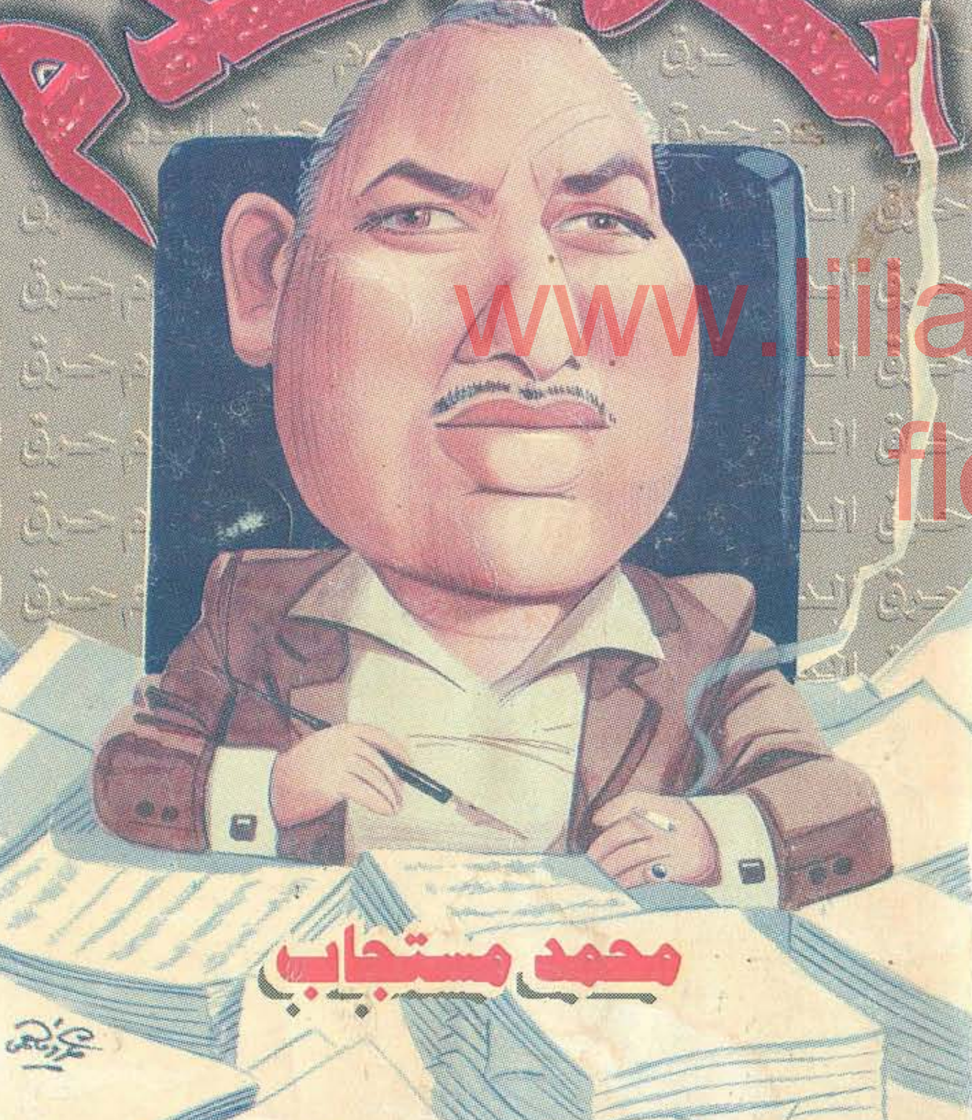
مطبوعات اخبار اليوم
قطاع الثقافة

حرق الدم



محمد مستجاب

طبع بمطابع دار اخبار اليوم

■■ رئيس مجلس الادارة :

إبراهيم سعده

مطبوعات اخبار اليوم

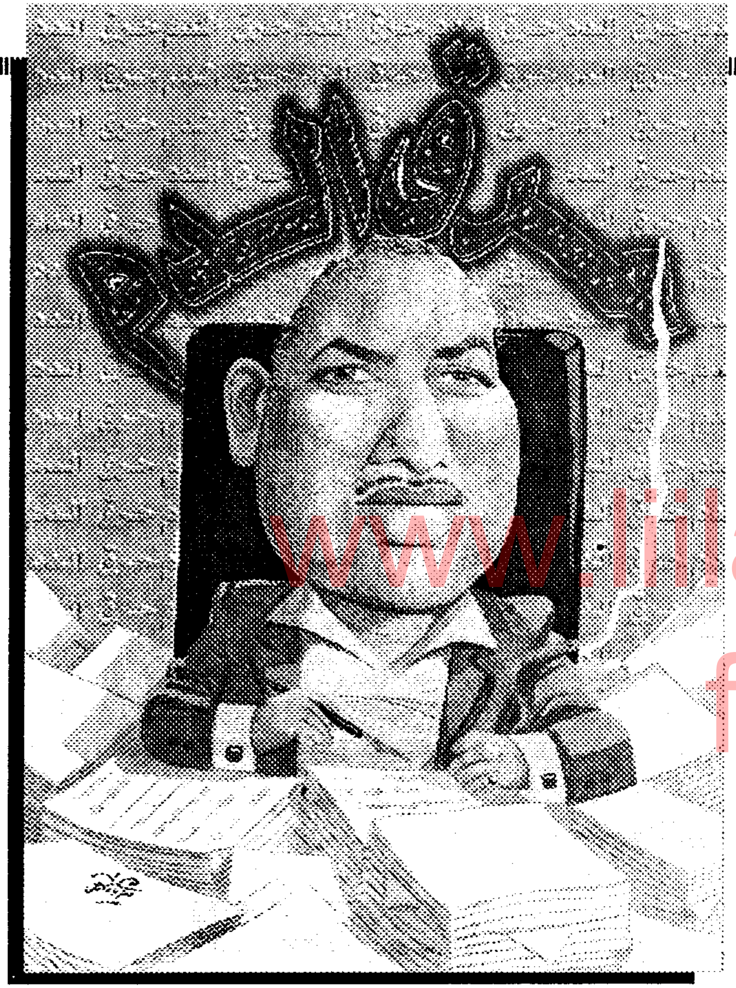
■ قطاع الثقافة ■

دار اخبار اليوم – قطاع الثقافة

جمهورية مصر العربية

٦ شارع الصحافة - القاهرة

تليفون و فاكس : ٥٧٩٠٩٣٠



«كان من المفروض أن اصبح لصا ..
لكن ظروفى ساءت فأصبحت كاتبا»

الغلاف بريشة الفنان :

عمرو فهمي

■ الاخراج الفني :

احمد سامح

أودرى معشوقتى الوحيدة ١

لما رأيت صورتها فوق الجريدة، أصابنى ما يصيبك ما دمت تملك حسا مرهفا ، حينما ترى بعد عدة حلقات من العمر ، صورة فتاتك ـ حبيبتك ـ معشوقتك ـ وقد علاها هذا الذبول ، وبالخط العريض (أودرى هيبورن مريضة وحيدة فى لندن)، وكان من الواضح أن المحرر الذى صاغ الخبر بليد الاحساس مثل خاله، فاقد اللماحية مثل معلمه، ذلك اننى عرفت أودرى مبكرا، كنت أيامها منغمسا فى علاقة كاسحة مع تحية كاريوكا، وكنت قد اقتنصتها من غرام مشتعل مع كمال الشناوى فى فيلم لا يعرف أحد طريقه الآن اسمه (أميرة الجزيرة)، وعدت إلى فراشى ليلتها مشبوبا مشتعلا بالرغبات، إذ أن تحية ذات جسد طرى ممتلىء يعلوه وجه صبوح، وجه حقيقى لانثى حقيقية، مخلوق مختلف عن راقية إبراهيم التى لم أتحملها ليلة واحدة، وعن ماجدة التى هربت منها قبل وصولى إلى البيت، وعن فاتن حمامة التى تركتنى أنام وجلست على مقعد قريب من الفراش تسبغ علىّ حنانا أخويا، وأدهشنى فى تحية انها رفضت أن تدخل الفراش إلا بعد أن صنعت لى كوبا من الشاى الثقيل المحوج بالزنجبيل، كما انها دخنت سيجارتين متتاليتين من المعدن الملكونيان ـ وهو الصنف السائد فى ذلك العصر، وكان صوتها يتألق واضحا شيقا به بحة دافئة ومثيرة، وكانت تعايرنى وتنتقدنى لأنى لا آكل جيدا، وكثيرا ما نبهتنى إلى أنواع بعينها من الآكل ليست هى الجبن القديم والعسل الأسود وقطعة اللحم الأسبوعية ـ ان وجدت، وكان ذلك مرهقا لكنه أدى إلى ضياع دجاجة وديك وكمية من البيض من بيتنا، أكلناها ـ فى عدة سهرات متوالية فى منزل صديق يعشق يوسف وهبى، ولما اكتشفت تحية أننى أحاول صياغة وجهى وجسدى

ليتقارب مع وجه كمال الشناوى أو عماد حمدى غضبت منى، وقالت بجرأتها المعهودة انها تعشقنى هكذا، دون أصطناع وجوه، وهجرتنى ليلتين متتاليتين حتى فكرت أن أقتلها لو عادت للعمل فى السينما بدونى.

وتحت إلحاحى وتوسلى استعدت تحية كاريوكا، لكن احساسا غامرا شاب علاقتنا، أصبح من المؤكد أن تحية قابلة لأن تخوننى، ذلك اننى كثيرا ما استيقظت بعد نصف الليل فأجد الفراش خاويا، ولم أكن قادرا على تحمل احتمال أن تصادق واحدا غيرى، كانت ظروفى صعبة، وفاتن حمامة تزوجت عمر الشريف، وماجدة ذكرتنى بمواقفى السابقة منها، وراقية إبراهيم سافرت لتعمل فى الأمم المتحدة، ولم يكن يليق بى أن أصادق الراقصة كيتى اللدنة الجميلة ذات الأصل اليونانى، كاحتياطى لتحية كاريوكا، ولم أكن أحب شادية، ولا مديحة يسرى، انهما لا تشبعان رغباتى، فوصلت علاقتى بتحية إلى عنفوان القلق، حتى اننى تعديت عليها بالضرب، فوقع كوب الشاى من يدها، ونظرت تحية إلىّ وظلت تضحك، فخرجت من حجرتى وتركتها وحدها بجوار فراشى.

كانت تلك الليلة هى الأولى التى فكرت فيها فى سامية جمال، سمرتها صبيانية لامرأة خارجة من أمام فرن الخبز ولخدودها ظلال لاثر قرصة قديمة من أصابع مدرية، كما انها تستطيع أن ترقص فتخلع أجناب القلب، وأهم من ذلك انها كانت جريحة اثر علاقة لم تكتمل بالملك فاروق الذى أطاح به عبدالناصر منذ سنوات، وهى بالتأكيد فى حاجة إلى واحد مثلى - لم يطح به أحد، ومنى عينى أن تداهمنا - تحية كاريوكا - فى الفراش معا، وبدأت أرتب لذلك، طاردت سامية على الشاشة وفى المجلات، واستحضرتها مرات لكنها كانت تأتى لاهثة كمن يطاردها أحد، ثم تتبخر فى الهواء قبل أن اكشف عن لواعج القلب، والأدهى من ذلك أن تحية اكتشفت ما أسعى إليه فألقت فى وجهى بسيجارة مشتعلة، وخرجت ضاحكة فى استهانة مرعبة.

فاضطررت أن أنشغل فترة فى كتابة خطابات غرام لواحدة من قريتنا تفوقنى جرما وطولا ونشاطا، وهالنى أن القروية الجميلة كانت تذهب بخطاباتى لمن يقرأها لها، وكانت أولى الفضائح الطاهرة التى واجهتها فى بداية نشاطى العاطفى، ولم تستطع الريفيات الحافيات أن يملأن فراغ القلب المتأجج، فى الوقت الذى ساءت

سيرتى بين كافة الممثلات الجميلات بصفتى شخصا غير موثوق فيه، وهنا ظهرت أودرى هيبورن.

كانت أودرى قد ضلت الطريق فى حديقة واسعة، فى الوقت الذى كان جريجورى بيك صحفيا يتسكع فى روما - بإيطاليا - بالقرب من نفس الحديقة، وأعجبنى فى أودرى هذه الرقة المتناهية التى يمكن أن تجد مثيلتها فى راقصات الباليه، مخلوق شديد التسامى لا يمكن مقارنتها بأية حال مع تكوينات تحية كاريوكا، وقد تركت أودرى تلتقى بجريجورى ليكملا تلك الرواية بصفتها سنيورة هاربة من ملل الثراء، لتقع فى براثن صحفى يبحث عن مغامرة أو فضيحة، وما كادت تنتهى الرواية حتى اصطحبتها معى، كان الليل القروى هادئا وأودرى تسير بجانبى - ذراعها فى ذراعى - تحكى لى عن هواياتها وأمنياتها، كانت تجيد العزف على البيانو وتعشق شوبان وفرانزلست، ولم أكن قد سمعت عنهما حتى ذلك اليوم، لكن أودرى فتحت باب العشق حتى آخر ما يمكن للعقل والقلب أن يصلا إليه، الموسيقى وفن المسرح والخطوات الناعمة لممثلة بالغة الرقة، فى الصوت والسلوك والهمس واللمس، وفى الوقت الذى سيطرت فيه على أودرى وثقافتها سيطرة تامة، فإنى لم أستطع أن استحضر لها - حتى فى الخيال!!! - فراشا يليق بها، ولذا فقد تركزت علاقتى بها فى الحدائق والحقول والقطارات والمسارح ودور السينما، سنوات طويلة وفى القلب تعيش أودرى هيبورن حتى والمأذون يتشبث بيدى ويمدها ليد والد فتاة أخرى إعلانا لزواجنا.

ولم أستطع أن أتخلص من أودرى كما تخلصت من زميلاتها عضوات نقابة المهن التمثيلية، كانت تنام بينى وبين زوجتى، وتسافر معى وتحضر الندوات والمؤتمرات، وتطالبنى - بين الحين والحين - أن أراعى صحتى، وتداعب عيالى، وتأمرنى أن أوطد علاقتى بذوى الأرحام من أهلى، وتأتينى - ولا سيما أثناء قلق نوم آخر الليل - بهدايا من كتب وأفلام وأحلام وآمال، حتى فوجئت بأن الزمن قد سرقنى، لأجد هذا الخبر الكاسح فى تلك الصحيفة الشريرة، أودرى هيبورن مريضة وحيدة فى منزل مهجور، وكانت كلمة مهجور تكاد تخصنى وحدى دون المنزل الذى تنام فيه معشوقتى أودرى.

أبو رجل مسلوخة ٢

ظهر أبو رجل مسلوخة أول ما ظهر فى حياتى وقد تلق فى السماء خلال تلك الليالى الباردة المطرة، حيث خرج من فروج الفيوم قافزا فوق الرعد وقد أمسك بالبرق فى يده المرعبة النارية، واخترق الحجب والظلمات مندفعا إلى بيتنا، ذلك البيت القائم وسط الحقول خارج البلد بمسافة صغيرة، والذى كان مجموعة من الحوائط التى لا تهتم بتقسيم البيت إلى فناء وحجرات، إذ لم يكن مسقوفا سوى حجرة واحدة صغيرة تخزن فيها أمى الجبن والسمن وتربى فى جحورها الأرانب وعلى نافذتها الوحيدة الحمام، ولم يكن ثمة باب فى البيت إلا لهذه الحجرة، والباقى سداح مداح، نخيل ودواجن وكلاب، فوق الحوائط ووراء الفرن وبجانب الزير، ولما كانت الشمس شديدة وملتهبة فقد كنا ندور معها خلال الظهيرة ونحن نحتمى بظل الحوائط ولكن تعديلا وتطويرا أصاب بيتنا، فقد تم عمل سقف مؤقت من البوص لجزء أعتقد انه القاعة وفى هذا الموقع كنا ننام، وفى هذا المكان كان أبورجل مسلوخة يداهمنى وأنا انتفض من الرعب تحت أغطية صوف الحيوانات، وكان سقف البوص لا يصمت أبدا طوال الليل، فالكائنات الدقيقة أو الغليظة تهيم حبا ليليا فى السعى بين تكوينات البوص الناشف، السحالى والبعوض والذباب والعصافير، ولا يخلو من كلب يقوم من فوق الحائط فينبح نباحا كسولا يكفى لا يقاظى، ثم يأتيه مزاجه فيسير فى حذر فوق البوص، الذى نكون جميعا نائمين تحته، ويهتز البوص ويسقط ذراته فوقنا، فيصرخ أبى فى الكلب ابن الكلب الذى يرتدع فيترك مسلحة سقف البوص بشكل أكثر اقلاقا وأكثر ضجيجا، فتتوقف الضفادع المقيمة فى البركة القريبة عن نقيقها الطريف العريض ذى الطبقات

الصوتية المتعددة، وبمجرد انصياع الكلب عن الحركة والنباح وبعد أن يحس أبى بالرضا لقدرته الفائقة على الهيمنة على الكلاب، تستعيد الضفادع الحانها، وتتجاوب قاعة عزف البركة بأصداء تفوق قدرات قاعات بكين وميلانو وبرلين وفيينا وأوبرا القاهرة أيضا، وبين هذا الدسم الصوتى المتبادل من كافة مخلوقاتنا الحميمة، يلتقى البرد والمطر واندفع من بينها أبورجل مسلوخة مسلحا بالبرق اللامع.

لكنى - بعد عدة رعود وبروق - بدأت آلف أبا رجل مسلوخة وآنس إليه، تركت رعبى وخوفى كى يقعا فى دائرة نباح الكلاب ونقيق الضفادع، وظللت أتجول بين السحب أحاول أن أجده فى ركن، كنت واثقا أنه يعانى من البطالة أيام الصحو وخلو السماء من السحب ومن المطر ومن الرعود والبروق، وظل بيتنا - بوقوعه خارج القرية - يغنينى باللف والدوران بين أكمات المزارع وأجمات النخل خلال النهار، ثم بالصعود ليلا إلى الطبقات العلى التى أعلم أن أبا رجل مسلوخة قد كمن فيها جائعا متشردا ينتظر فرصة عكارة السماء كى ينزل للأرض مطاردا الأطفال، وفرصة يكون أبو رجل مسلوخة هى أنسب الأوقات للتآلف معه، فهو بدون الرعد والبرق يصبح أعزل مسكينا يستحق الاحسان، وعندما - فى عز النهار - كنت أخرج متعلقا بيد أبى فى طريقنا للسوق، كنت أفحص وجوه المزدحمين والجائلين والصارخين، فقد تسربت لى معلومات من مصدر موثوق به أن أبا رجل مسلوخة ينزل سرا إلى الأسواق كى يجد شيئا يأكله، ولذا فقد كنت أمعن فى وجوه الناس الذين أراهم، ولاسيما الذين يرتدون الملابس الرثة، ويحجبون وجوههم باللفائف والأغطية، وجوه غريبة مستكينة تكاد تكون هائمة أكثر من كونها جائلة، ثم كنت أعود من السوق معتقدا أن أبا رجل مسلوخة قد يكون ينتظرنى بجوار الحائط فى مدخل البيت الذى لا باب له، أو أنه سوف يحضر آخر النهار فى هذا الوقت الرائع الذى تكون فيه أمى تنتهى آخر طقوس طبيخ السوق، أى فى هذا الوقت الذى تشع فيه رائحة قدحة الملوخية النافذة، والتى تتلجج فى أنوف الناس جميعا، إذ حتما سوف يحضر أبورجل مسلوخة كى يأخذ حقه من طبيخنا الأسبوعى الشهى، وكل شحات ومتسول وصاحب حاجة لا يتحرك نحو حاجته إلا فى هذا الوقت بالذات، وكنت بعد أن أتحرى ملامح أبى رجل مسلوخة فى

وجوههم، أمعن فى السيقان، كى أتأكد أن إحداها حمراء مسلوخة وقد تم تضميدها بلفافات يتصاعد منها الدخان، كنت أحاول أن أجده فى النهار كى لا يداهمني فى الليل، ذلك أن حكايات أمي وأختي الكبرى كانت تؤكد ان أبا رجل مسلوخة يفقد شره وتوحشه إذا ما انجذب من السماء وأصبح انسا أى إنسانا، وقد راعني أنني كنت أبحث عنه وسط المتسولين، ولماذا المتسولون؟؟ وألا يمكن أن يكون تاجر بهائم أو حبوب أو سقاء أو مدرسا أو جزارا؟؟ وظلت المسائل مستعصية ومغلقة.

غير أن الأمر وصل إلى ذروته حينما كنت أسير وراء أمي لزيارة خالتها زينب فى بلدة قريبة، فبينما كنت أحاول تبين بيت ستى زينب «هكذا نقول ستى على جدتي» وجدته جالسا أمام البيت.

نعم كان جالسا على الأرض وقد أمسك بلقمة من رغيف أبيض يزدردها، بنفس الصفات التى رأيته بها فى تلافيف سحب السماء ذات البرق، الملابس الرثة القذرة والوجه المحجوب بغطاء ممزق، ثم - ساقه الممتدة أمامه مسلوخة حمراء - وقد تم لف بعض أجزائها باربطة ولفائف لا تخفي منها شيئا ، وعندما توجه بنظره إليّ أيقنت انه كان ينتظرني، كانت نظرته لامعة تطق شررا، حتى انى تجمدت لحظات ثم هرعت خلف أمي وأنا أصرخ : أبورجل مسلوخة، وكان الصوت متحشرجا ومضطربا : أبورجل مسلوخة، وقبل أن تنتبه أمي لما يحدث خلفها، كان أبورجل مسلوخة قد ابتسم تلك الابتسامة المتألقة التى أستطيع أن أميزها من بين مئات الابتسامات، ووقفت أمامه أتبينه وأتفحصه مذهولا، فبعد صراخي مرتين ابتلعت صوتي، فقد كان الرجل لايزال ممعنا فى وجهي، حتى انه - وهو يبتسم - سحب ساقه المسلوخة وارتكز على الحائط ووقف، كان طويلا ماردا يمكن لك أن تكتشفه ولو سار وسط النخيل، وقبل أن أتحرك أية حركة أخرى ابتلع أبورجل مسلوخة ابتسامته وانقض عليّ انقضاضا ساعقا مروعا، وسقطت على الأرض صارخا مفزوعا، وأمي تعود إليّ مسرعة فى وجل : اسم الله عليك يابني، ورفعتني فى أحضانها من فوق الأرض وقد انزلقت روحي مني.

ومنذ ذلك اليوم وأبورجل مسلوخة لم يفارقني، رأيته فى عصا زكى أفندى مدرس الجغرافيا، وفى «فلكه» سيدنا محمد عثمان حينما كانا يوثقان قدميّ بها

لينهالا عليها بالزخمة عقابا لى على عدم حفظ الجزء المأمور بحفظه من القرآن الكريم، وفى أصابع خالى أحمد خميس وهو يقرص خدى فى قسوة لاستحمامى فى مياه الترعة، وفى قلم صراف الحكومة وهو يحجز على بيتنا وفاء لعشرة جنيهات للحكومة، وفى عجلات قطار السكة الحديدية وهو يبتر قدم ابن عمتى، ثم بعد ذلك باربعين عاما وهو يصطدم بابنى الأكبر، وفى تفجير الديناميت فى صخور السد العالي، وفى اليد الشرسة للشرطى السرى الذى قادنى للاعتقال، وفى منديل الماتون وهو يضغط كفى فى كف صهرى ليلة فرح عقد القران الميمون، وفى صوت جمال عبدالناصر وهو يعلن التنحى يوم ٩ يونيه، وفى مقال لناقد سخيف وهو يعلى من شان كاتب محدود الموهبة على حساب يوسف إدريس، وفى عيون زوجتي حينما تطالبني بنقود وهى تعلم انني لا أملك نقودا، وفى فوهة بندقية تتجه نحو اناس آمنين عابرين، وفى ذراع عم ضبع عندما كان يخرجها من بطن جاموستنا معلنا انها ليست عشارا - أى حاملا، وفى وجه أنور السادات وهو يلف ويدور حول سيرة عبدالناصر، وفى كتاب تجربتى الذى صور فيه عثمان أحمد عثمان جمال عبدالناصر وقد انحنى تقبيلا ليده الجميلة، وفى وجه الذئب الجربان الذى ظلت قريتى تطارده دون جدوى ثم وجدته جثمانا عفنا فى قناة مياه آسنة، وفى اللجان الدستورية التى تتعقد دستوريا لتعديل مواد الدستور لصالح تركيز سلطة الحكومة، وفى يد موظف مرتش يسلب أرملة بعض نقودها، وفى أصوات الضفادع الضاجة الشائهة فى أغانى اليوم، وفى الدب الذى سعى إليه الكاتب الأميركى فوكنر فى واحد من أجمل أعماله الأدبية، وفى عيون راسبوتين حينما كانت تداهمه قشعريرة اللذة، وفى اللمعة السريعة لعيون صديق خائن، وفى التصرف الذميم لمدير منهمك فى امتصاص نقود الفقراء، وفى - آخر الأمر - قصيدة شعر رديئة تحتل مكانا طيبا فى جريدة واسعة الانتشار والتوقيع أبورجل مسلوخة.

الدهن فى العتاقى ٣

أقصى ما كنت أحلم به فى نهاية هذا الشتاء : أن أقضى عدة أيام مسترخيا دون قراءة أو كتابة أو مناقشة حول الجماعات الارهابية المتطرفة - والتى شاء قدرى أن يكون مجالها ديروط بلدنا، كنت قد خرجت من مؤتمر مجمع اللغة العربية منهكا مرهقا من الكلام والمجاملات والسفر والتجوال والجدل اللغوى، وقبل أن أحدد المكان الذى سوف أستمتع فيه بالهدوء الرومانسى القديم، جاء القرار الادارى أن أتوجه اعتبارا من أول مايو إلى (مركز إعداد القادة للجهاز الحكومى)، كى أتلقى دورة تدريب فى الطريقة المثلى لأصبح واحدا من خيرة موظفى الحكومة الأباطرة، الذين يشغلون الدرجات العليا، ويمارسون بيروقراطيتهم فى هدوء وأمان وثقة، وإذا لم أذهب؟ سيكون ذلك مؤثرا فى ترقيتى، تلك التى سوف تحقق لى علاوة فى المرتب تصل إلى ستة جنيهات شهريا.

وما كنت موظفا ممتثلا، ولدى فائض من الذكاء الوظيفى يحتاج إلى تدريب وتمرين، فقد استجبت للأمر، وتوجهت فى ذلك اليوم الموعود، إلى مركز تجهيز سالقادة الحكوميين كى يقودوا الحكومة إلى المستقبل النضير.

كان مبنى مركز التدريب نظيفا وأنيقا أيضا، وفى ساعات التعارف الأولى وضح لنا اننا يجب أن نكون منضبطين خانعين للأوامر والتعليمات، قسمونا إلى مجموعات كل مجموعة تتكون من خمسة وعشرين، وكان المشرف على مجموعتنا شابا دمويا كثير الحركة - وكثير إصدار الأوامر والنواهى والتنبيهات المتشددة، لكنه بين اصدار أمر وبين تنبيه متشدد، كان يشير من بعيد إلى انه سوف يغفر لنا كثيرا من الخطايا الخاصة بالتأخير او التلكؤ فى حل الواجب، إذا ما تم ذلك بعد

استئذانه (ولو كان الاستئذان عن غياب يوم كامل..!!) كان فى سن ابنى الأكبر المدرس فاضطربت حينما داهمنى الاحساس باننى أصبحت تلميذا.. كن الجو حارا مرتين : مرة لأننا على مشارف الصيف، ومرة لوقوع هذه الفترة تحت موجة حارة قادمة من ليبيا أو السودان، لا أعرف فلم أتفحص.

هويتها، حيث كانت خانقة بكل الأبعاد، لكن المبنى الدراسى ذاته كان مكيفا ودرجة حرارته مقبولة ومعقولة، كما ان المجموعة التى وقع حظى فيها كانت تخلو من صنف النسوان، وعندما استرخينا فى مقاعدنا بالقاعة المخصصة لنا، ساءنا ان نكون على هذه الدرجة من التجهم والجدية، كان واضحا ان الجميع قد أخذ على عاتقه انتشال النظام الحكومى العتيق من بروكه القديم؟ البروك مصدر لغوى اخترعته إلا من الفعل برك - أى برك الجمل بروكا) وأن علاج النظام البارك من داء النقرس والروماتزم والروماتويد التاريخى سوف يتخلق فى هذه المجموعة من الرجال، والتى خلت من النساء - ويا للأسف..!! ومع ذلك فإن هذا الأسف ضاع بسرعة حينما شاهدنا - فى روية وأناة - النساء المديرات اللاتى تم حرماننا منهن، إذ كان مؤكد مجموعتنا ذات الخمس والعشرين مديرا قد فقدوا كثيرا من رجولتهم خلال الأحقاب الحكومية الماضية، وانهم اكتسبوا قدرا مذهلا من ارتداء اللوائح والتعليمات والتأشيرات المالية والادارية والمخزنية، فلماذا تظل نساء الحكومة جميلات؟؟ بدانا نرى هؤلاء اللاتى حرمن من تواجدهن معنا، مديرات أبناء مديرين أبا عن جد، شديدات الانتماء للوظيفة حتى انك تستطيع أن تعرفهن حتى وسط حشد اقامه لعرض الأزياء سان لوران فى مونت كارلو، لقد فقد من الأنوثة خلال الأحقاب الحكومية نفس ما فقدناه من الرجولة .. والله أعلم.

كانت القاعة صغيرة وأنيقة، والمواعيد تم ترتيبها وتنظيمها موائمة لظروف السادة الأساتذة المحاضرين القادمين من الجامعات والكليات والجهاز المركزى للتنظيم والادارة، كما ان اثنين من المحاضرين يعملان فى الجهاز الاستشارى للسيد رئيس الجمهورية، وأى هناء وسعدة أكثر من ذلك؟ ونحن - قادة القطاع الحكومى - تلاميذ على درجة معقولة من تخانة المخ والرغبة فى ارضاء المدرسين، حتى ولوكانت المواعيد تجبرنا على اليقظة مبكرين (انا استيقظ مبكرا بطبيعتى) كى نشم نسيم الصباح تحت يد المحاضرين، أو ننزل من بيوتنا بعد الظهر كى

يلهفنا تيار الحرارة المروع الملتهب، ونمضى إلى قاعتنا مبكرين، لكن واحدا من الأساتذة ما جاء فى موعده، وكان أول درس لنا فى الانضباط قد ضربه ومزق جثته مركز اعداد القادة نفسه، ولم يخل الأمر من احتجاج واضح من تلاميذ واضحين، فقد انتظرنا مرة أكثر من ساعتين انتظارا للأستاذ، ولما ضاق نزعنا بدأنا نترب عائدين إلى بيوتنا، لكن مديرة المركز - وهى سيدة رصينة - جاءت على صدى لاحتجاجنا، وقالتها صريحة : انتم على نمتنا لمدة أربع ساعات لا يصح أن تغادروا المكان خلال ذلك، على نمة من ؟ فقال لها أحد كبار المديرين منا : على نمتك ؟ كيف؟ أنا مستعد أن ادفع لك مؤخر الصداق لتتركونا، وكان التعليق صاخبا فأثار صخبا، مناسبا، وذلك اننا حين عدنا إلى شرانق التلاميذ اصطحبنا معنا كل أشواك كبار الموظفين.

إلا أن انغماسنا فى المواد الدراسية أسبغ علينا جدية ونشاطا وقدرة فائقة على الحوار اللئيم، إذ أن مقررات الدراسة وموضوعاتها فتحت فى الكيان طموحات إدارية ووظيفية هائلة، وظائف المدير والقدرة على اتخاذ القرارات المناسبة، تخطيط ومتابعة العمل، الأسلوب العلمى لاعداد البحوث والتقارير، تدريب وتنمية المرؤسين فى الادارة، الاتصالات الادارية والاتجاهات التنظيمية الحديثة، تبسيط الاجراءات وعوامل انهائها فى سلاسة، وغير ذلك من موضوعات لم أسمع عنها فى النصف قرن الأخير، وان رأيت عناوينها فى الجرائد والمجلات أقلب صفحاتها بحثا عن برامج التليفزيون أو قصة ليوسف إدريس أو صورة لآخر مرة ظهر فيها ماكسويل - امبراطور الصحافة - قبل أن يلقى بنفسه فى البحر غذاء للسمك، وربما - فى بعض الأحيان - انظر فى الصحيفة عن درجة حرارة الجو أو صفحة الذين رحلوا - مكرمين - عن عالمنا، وظهر اننا بالفعل تلاميذ ظلوا سنوات طويلة ينتظرون فرصة العودة إلى عصر التلمذة، حتى حينما طلبوا من كل واحد أن يعد بحثا فى تنظيم إدارى أو مشكلة لاجراءات أو عقدة فى قانونية القرار الادارى، فإننى - بصفتى تلميذا قديما جديدا - عصرت مخى وأوراقى وتجاربى للوصول إلى موضوع للبحث، فأنا - دون الزملاء - لا أعمل فى مصلحة جماهيرية يرتادها المواطنون كالجمارك والتعليم والتموين والوثائق والخارجية والصحة وحديقة الحيوانات ووزارة الثقافة، إنما أنا من مجمع اللغة العربية الذى حماه ا! من مداهمة

الجماهير العزيزة، حيث أبقى ا! له علاقته بصفوة العلماء والمثقفين، وهؤلاء لهم كوارث مختلفة اختلافا كبيرا عن جمهور الشعب العزيز.

وأخيرا استقر رأيى أن اكتب بحثا - قل مقالا وليس بحثا - عن مشكلة اراها فريدة فى بابها، وهى : المدير بلا إدارة، نعم : فقد ظهرت فى كل أنظمة المؤسسات والأنظمة الحكومية - فى كل دول العالم الثالث - مجموعة من المديرين الذين فصلت بينهم الأيام بعيدا عن إدارتهم، سواء لعدم رضاء رئيس المؤسسة عن مدير معين أو لرضائه الشديد عنه فقربه منه وكلفه بمهام لا تدخل فى اختصاصات إدارته حتى انفصلت إدارته عنه، وعددت عددا وافرا من حالات انواع المديرين الذين يتميزون بالذكاء والمثابرة والوصولية والدأب والكسل وقلة الضمير، كل واحد فى حد ذاته يصلح موضوعا لبحث، وقلت ان لحد أسباب هذه الظاهرة هو نظام الرسوب الوظيفى الذى جعل الموظفين يترقون بناء على المدة المنقضية فى الدرجة، وهو ما أدى إلى تشبع الدرجات العليا بموظفين لم يستعدوا لهذه الدرجات أبدا.

وكان البحث طريفا وجديدا، وأسعدنى الجميع - الزملاء والأساتذة - أثناء مناقشته، واكتشفوا - خلال المناقشة - اننى واحد من المديرين الذين بلا إدارة، وأن خلو البحث من الشروط العلمية يغفر له - أن البحث جاء صادقا وإن لم يكن فى عمق أبحاث باقى المديرين.

وقد نجحت، واجتزت الامتحان بكل تفوق، فقد اجتازه الجميع أيضا، وخرجنا من سوق مركز التدريب بمحصول وافر من المعرفة، ليس فقط فى التحصيل الادارى، بل وبمتعة مرهقة مارسناها حينما اتضح لنا أن أجمل كلام عن النساء هو ما يقوم به تلاميذ تعدوا الخامسة والأربعين من أعمارهم حينما يكونون فى فصل دراسى بلا نساء، حتى الذين اقتربوا من الستين كانت لهم قفشات تقع تحت طائلة : الدهن فى العتاقى، فما بالك وبهن العتاقى قد اكتنز فى كهوف المصالح الحكومية العتيقة؟ وعندما جلسنا فى امتثال ننتظر تسليمنا شهادات التفوق، كانت بنطلوناتنا تقصر، وكنا نتقافز من فوق سور المركز الذى لا سور له.

من وقائع ذكائى الحاد ٤
شلة زهرة البستان

من الذى قال: أعلى لحظات الذكاء قد تكون هى أعلى لحظات الغباء، فإذا لم يكن أحد قالها قبل الآن فها أنذا أقولها الآن، أقولها وأنا مستريح الضمير هادئ الجوانح بصفتى قد مارست هذه اللحظة الفائقة الارتفاع من الذكاء، راجيا أن يستخدم أصدقائى ذكاءهم - النادر - بنفس الطريقة الجميلة الحادة، والقاطعة أيضا..

عليك أن تعرف أن الكتاب « جمع كاتب » فى مصر ينقسمون إلى قسمين ، سوف أحدثك عن القسم الثالث - الذى أنا منه ، والذى ينقسم بدوره إلى قطاعين : قطاع حكومى وقطاع خاص ، ومعظم كتاب القطاع الخاص يلتقون وسط مدينة القاهرة على مقهى «زهرة البستان» ، لاحظ الشاعرية الجميلة ذات الرائحة العطرة فى الاسم ، نلعب الطاولة «النرد» ونمسك السيرة ونلتقط خيوط الإشاعات ونمارس حقدنا الدفين ضد الذين صعدوا إلى عنان الأقسام السابقة ولايخلو الأمر من استعراض قدرات القادرين - الكرماء - على حساب المستضعفين فى نقود الأدب، وهو أمر يجرى يوميا، أما أنا فأستمتع بممارسته مرة كل أسبوع بناء على ماتجود به الأقدار..

وبصفتى شديد الملاحظة «ألست ذكيا؟؟» فقد ساءنى أن الغلبان الوحيد الذى يمر على جلساتنا كان متسولا رث الملابس، ينحرف فجأة إلى مجموعة ويمد يده - فى صمت - إلى علبة سجاير، يمد يده فقط دون أن يلمس علبة السجاير، وحينئذ يتناول صاحب العلبة سيجارة ويقدمها إليه، فيأخذها دون أن يتكلم ويمشى بعيدا، الرجل ذو جسد فارع قوى يذكرك بملاحظى أعمال رصف الطرق الذين يقفون فى

الشمس على رؤوس العمال، كما انه شاب لم يتجاوز الحلقة الثالثة من عمره، وفكرت مرارا أن أسعى لالحاقه بأحد مكاتب أو مواقع عمل الشركات التى أعرف بعض السادة ذوى الشأن فيها، لكن هذا التفكير كان يتبخر بمجرد انتهاء تناوله السيجارة أو رحيلى انا عن المكان، أيهما أسرع، فنحن - كما تعرف - نبدو مهمومين بهموم الناس عندما تقع الكوارث أمامنا فقط ثم ننساها بعد قليل، لكنى - ولكى أعالج الأمر بشكل مقبول فقد قررت أن أكون كريما وأن أستخدم كرمى فى حجز بقعة معقولة فى الجنة بعد عمر طويل، اليست الحسنة بعشرة أمثالها؟؟ والا فكيف أكون ذكيا؟؟

وبدأت - فى سعادة غامرة - أشير إليه عندما أراه وانتحى به جانبا، وأمنحه مما منحنى الله جنيها أو جنيهين حسبما تكون جيوبى عامرة، ذلك لإننى - هكذا فكرت - سوف أساعده على بعض المأكل والمشرب تاركا أمر السجاير ليقوم به أصحابى بمعرفتهم، وكان الرجل الهادئ البادى الحزن يتناول منى النقود وينظر فيها ثم ينظر إلى وجهى فيجدنى سعيدا وأجده سعيدا، فأحس بالرضا وبالسعادة القصوى، وبالفرح والحبور، فى قلوب الملائكة المكلفة بمراعاة تحديد البقعة التى سوف أشغلها فى الجنة.

سنوات وأنا أمارس هذه اللذة الإنسانية المتعة حتى كان يوم.. كنت جالسا مع الأصدقاء فى الممر المواجه للمقهى، وجاء الرجل واندفع كعادته مشيرا إلى علبة سجاير - كانت علبة سجائرى، ففتحتها وأريتها له، كان بها أربعة سجاير فقط أخرجت من جيبى نقودا وطلبت منه أن يشترى لى سجاير «من نفس هذه العلبة» وعندما يعود يمكنه أن يأخذ العلبة الحالية، وأضمرت فى نفسى أن أهبه جنيها لكى يظل كلانا سعيدا - أنا وهو.. وتناول الرجل الورقة المالية ونظر فيها ثم اتجه إلى نهاية الشارع..

كان أحد الرفاق يمعن فى وجهى ثم يضحك فى سخرية، قلت فى نفسى: ماهى نفوس الفقراء تتكشف حينما يفسدون علينا الصنيع الجميل، سألنى وهو لايزال يضحك ساخرا وسط الرفاق: لماذا أعطيته هذه الورقة المالية؟ اى إجابة يمكن لى أن اقدمها لهذا الساذج؟ لكن سخريته الواضحة جعلتنى اشك فى الأمر، وداهمنى إحساس طالما داهمنا فى مثل هذه الشئون، فذات مرة - من سنوات طويلة ، عطفت

على إمرأة عجوز كانت تنتظرنى صباح كل يوم على راس الشارع، واخر نهار ذات يوم اخر سلكت طريقا جانبيا ملتويا لكنه يختصر المسافة إلى بيتى، فوجدتها جالسة فى ظل شجيرة، وهى تصنف ما جمعته من نقود طوال اليوم، كان المبلغ الذى فى حجرها اكبر من اى مبلغ وضعته فى جيبى فى يوم من الأيام، وعندما قصصت الامر على زوجتى اندلعت فى البيت حكايات عن شحاذين ومتسولين يملكون العمارات والحقول، وقامت الصحافة بتغذية الموضوع بنشر أساطير الاثرياء المتخفين فى الملابس الرثة تسولا فى الشوارع، ومن يومها كففت عن العطف والبر والتصدق على العابرين، وقصرت نشاطى فى الجمايل على من أدرك حالهم ادراكا مؤكدا، اى على مثل هذا الغلبان فى مقهى زهرة البستان، وعلى ذلك فإن سخرية رفيقى بصنيعى الجميل كانت غير مقبولة، حتى ولو قدم لى كل البراهين والاثباتات على أن هذا المسكين صاحب إقطاعيات وضياع.

غير ان سخرية رفيقى صاحبتها سخريات أخرى - أو اندماشات أخرى - من بعض الرفاق، لماذا؟ لأن هذا الرجل الغلبان ليس له اية علاقة بالنقود، يعنى أيه؟ يعنى ياأستاذ - أنا الأستاذ - هذا الرجل يأخذ النقود منك أو من غيرك ويلقيها بعيدا، خشيت أن أكون ضحية لرفاق يضمرون لى حقدا مناسباً لثرائى وذكائى، لكن النظفاء منهم أى بعض هؤلاء السانجين الذين لم يستخدموا عقولهم الشريرة بعد، قالوا: هذا الرجل لايعرف النقود ولايتعامل بها، وانفتحت مناجم المعلومات عن الرجل، سيدة تقيم فى نفس شارع قهوة «زهرة البستان» رأته من الشرفة فارسلت له نقودا وحلة من محشى الكرنب المعمول تحت كتل لحم الضان، فوضع النقود فى الإناء وتركهما لتداهمها الكلاب، ثرى شرقى منحه مبلغا من المال يكفى لرفع الروح المعنوية لحرافيش القهوة أربعة أسابيع، فأخذ الرجل المال ومضى وعاد بعد دقائق يبحث عن سيجارة، وهكذا ظل منجم المعلومات عن الرجل مفتوح الفوهة يغرقنى بأحجار الدهشة، ويدك بمعاولة بنيان ذكائى.

حتى الممثلة الشهيرة التى تزوجت فى الدقائق الخمس الأخيرة مرة أخرى رأته أثناء عبورها فارسلت فى طلبه، وغمرته بحنانها وأمرت وكيلها أن يدفع له مبلغا ثم يكسوه وينظفه، لكن الرجل أخذ المبلغ والكساء واللوازم الأخرى من أنواع التنظيف الفاخر، وألقاها كلها بعيدا مكتفيا بطلب سيجارة.

لكنى قاومت هذه المؤامرة المرعبة، فسألتهم فى إنكار: إذن كيف يعيش؟ أى كيف يأكل ويشرب؟ أه.. إنه يدخل أى مطعم فى هذه المنطقة ويمد يده فقط والمطاعم هنا بكافة درجاتها من الفول والطعمية حتى شرائح ورك العجل بالصوص - أى بالصلصة فيما أعتقد - تلف له الرغيف بالغموس، فيأخذه ويمضى، ويجلس فى ظل هذا الحائط ليأكل، وأشاروا بعيدا إلى حيث يجلس.

ولما كنت لا أستسلم بسهولة فقد قررت أن أتحداهم، بأن الرجل سوف يعود إلينا بعلبة السجاير التى طلبتها منه..

كان الجميع لايزال يتكلم عن هذا الرجل الذى اختصر حياته فى لقمة يأكلها، لاعلاقة له بالمال أو بالملابس أو أية ممتلكات، أى لاعلاقة له بما نزدحم حوله ونتقاتل من أجله. اختصر العالم كله وجلس هناك بعيدا فى ظل الحائط.

لكن الرجل عاد، كنت أنتظره بفروغ الصبر على أساس انه سيعود ومعه علبة السجاير على الأقل لكى ينتزعنى من الدوامة، وفرحت به وهو مقبل علينا لكنه كان خاوى الوفاض، وكل الذى فعله أنه اقترب منا وأشار بيده إلى علبة سجائرى!!

قلت له: ألم أمنحك نقودا لكى تشترى لى سجاير؟ فنظر الرجل فى وجهى وسحب يده عن علبة سجائرى «وكانت قد فرغت» وأشار إلى أحد الرفاق الذى أعطاه سيجارة ضاحكا..

وتركنى الرجل أجمع رقائق ذكائى المفتت، والمتساقط على أرض الواقع الممتد خلال تلك المرات التى كنت أمنحه فيها نقودا..

وظللت صامتا والرجل النزيه يسرع بعيدا، لكن الرفاق استمروا يحاصرون بقايا ذكائى الحاد والمتفرد، فلم أخبرهم - لم أستطع أن أخبرهم - بموضوع الجنيهات السابقة حتى لا أقف بينهم عاريا، دون الوصول حتى إلى بقعة صغيرة فى الجنة المأمولة.

أبونا في الكتابة

٥

الطاغوت الجميل يوسف إدريس

لو أن يحيى حقى لم يحرث هذه المساحة من الأرض، لتأخر ظهور يوسف إدريس كثيرا، ولو تأخر يوسف إدريس عن ظهوره فى بداية الخمسينات بصفته فلاحا زراعا راويا حاصدا، لظهر الجيل التالى له واهنا ضعيفا مصابا بالانيميا، لقد قطعت الحقول الفائلة التى استزرعها هذا الكاتب، الطريق على الكتابة المسالمة الطيبة التى امتعنا بها فى تسلية رقيقة محمود البدوى والشرقاوى ويوسف جوهر وأمين يوسف غراب ويوسف السباعى وغيرهم من أصحاب السر الهادى والقضايا الدافئة. فقد اجتاح يوسف إدريس عالم الكتابة بأسلوبه الشرس الطازج الذى يشر سوائل فوارة، حتى انك كنت - ولازلت - تسمع الصوت الهادر لحركة أفكاره وقلمه وورقه وأهدافه، لا يمكن لك أن تنجو منه: صداقة أو عداء، فلم يكن يوسف إدريس كاتبا مسليا يبغى إرضاءك ولا كاتبا دافئا يود. أن تستنيم لرؤاه وتصوراته، ولا فنانا مساوما يغازل رغباتك وأمنياتك ويداعب غرائزك وإحباطاتك إنما هو الريح، وهو العاصفة، وحتى عندما حاول أن يكون نسيما - بسبب الارهاق المتوالى للإجتياح أو بسبب المصالحات المؤقتة لم تكن محاولته ذات اتساع يسمح للنسيم أن يظل نسيما.

وهذه الحالة الحادة شديدة الإيلام والزهو استفاد منها الجميع، وحتى الكتاب الذين سبقوه، وأول من استفاد منها كاتبنا الكبير: نجيب محفوظ.

لقد ظل نجيب محفوظ - وسيظل - كاتبا دمثا مجاملا هادىء السريرة، ومنظما أيضا، يحيا خارج كتاباته القصصية والروائية، يصادق الجميع ويحترم الجميع لم

نسمع عنه مرة أن دخل فى حوار مع أحد - أى واحد - وخرج غاضبا، هذا إذا كان قد دخل فى حوار صاخب مع أحد أصلا، والذى يود أن يعرف أراء نجيب محفوظ فى الحرية والديمقراطية وأزمة الاسكان وسقوط الاصنام وانفراج الأبواب وانغلاق النوافذ، عليه أن يقرأ قصص وروايات نجيب محفوظ حتى مقالاته القصيرة التى دأب على كتابتها فى جريدة الأهرام منذ أكثر من عشرين عاما ظلت مسالمة هادئة رصينة، لايمكن لك أن تتذكر أن واحدا التقى بك أو اتصل بك تلفونيا ليسألك: هل قرأت ما كتبه اليوم نجيب محفوظ فى الأهرام؟؟ لكنك - بالتأكيد - التقيت ذات يوم بمن يسألك بعيون مفتوحة: هل قرأت اليوم مقالة يوسف إدريس؟؟ ولم نعرف أبدا عن نجيب محفوظ انه اطاح بكاتب سيناريو لانه شوه رؤيته فى قصة سينمائية، ولا بمعد مسرحى لم يكن أمينا فى طرح الأفكار الأصلية عن النص الروائى، ولا بمندوب مجلة مطبوعة لم يسلمه حقه عن عمل نشره له، ولا بصحفى نشر عنه أو أجرى حوارا معه لكن الصياغة لم تكن دقيقة، لكن يوسف إدريس فعل كل ذلك، فعله وبصوت ضاج، لأنه لا يفصل الأمور عن بعضها، لايتورع عن التفكير بصوت عال، وبصوت جارح، وكان الكثيرون يخشون التعامل معه، ولجأت جماعة يوسف السباعى «صالح جودت وثروت أباظة وصبرى أبو المجد.. ألخ» إلى وسائل كثيرة لمضايقة يوسف إدريس «هل أقول التنكيل؟؟» فدأبوا على تضخيم نجيب محفوظ بكل الصفات التى يرون أنها توخز يوسف إدريس وتسبب له المتاعب فوق متاعبه، فنجيب محفوظ المؤدب المهذب الراقى ضمير مصر وكاتبها الأول، وهى صفات - كما ترى - لا علاقة لها بالأدب المكتوب أو بالأساليب وفن القص إنما يقصدون أن يوسف إدريس يخلو منها، فيزداد يوسف إدريس انفعالا وثورة، ويشترك الجميع فى حصار هذا الفنان العظيم، ليستفيد نجيب محفوظ من هذا الحصار الذى أضفى عليه مديحا مستمرا لحميد صفاته، مع أن يوسف إدريس - هذا القلق دائما الثائر دائما - كان سباقا فى السؤال على من يسمع انه مريض، أو من يكون قد تلقفه الموت من الأدباء، ومقالته الكبيرة الشهيرة عن مرض الشاعر أمل دنقل لاتزال فى الذاكرة، التى كان من نتيجتها اهتمام الدولة المصرية برعاية هذا الشاعر -

رحمه الله، في حين ان نجيب محفوظ حينما كان يسمع في مجلس يوم الجمعة عن كارثة أصابت أديبا، يبدى ألما شديدا ويبرز مشاعر إنسانية خالصة، ويتوقف الأمر عند هذه الآلام وهذه المشاعر لقد كان يوسف إدريس نصا أدبيا هائجا يسير على قدمين.

ومع ذلك فقد كان يوسف إدريس فرديا في إيجابياته كما ان نجيب محفوظ فردى في سلبياته، نعم فيوسف إدريس كتلة أعصاب قلقة شديدة الحساسية، وحزمة مشاعر لا تضبط دائما، وكم أفسد جلسة مع أصدقائه لان سلوكا أو رأيا لم يعجباه.

كانت مجاملاته محدودة لكنها تجعل الآخرين يطمئنون إلى النهاية، وقد اصطدم بالجميع واصطدم به الجميع، وحتى رئيس الدولة أعلن عداءه له في خطبة شهيرة - والدولة كلها وراءه في حين أن يوسف إدريس لا يملك سوى قلمه، وكان الموقف عصيبا. لكنه أيضا كان موقفا مشرفا وراقيا وفيه أعلى درجات التواجد لفنان فرد، وبعد ذلك بسنوات كان رئيس الدولة ضيفا عابرا على أسرة يوسف إدريس في منزله بإحدى القرى الشمالية المصرية السياحية، ليس رئيس الدولة فقط - بل وكان معه رئيس دولة عربية أخرى.. لقد كان يوسف إدريس فنانا شامخا، لم يمنعه شموخه ان يكون طفلا في كثير من تصرفاته، وقد كتبت عنه أيامها مقالا ملخصه: لابد من تكوين تنظيم لحماية يوسف إدريس من يوسف إدريس، لقد اقتحم المسرح القومي أمام المتفرجين ليطلب وقف مسرحيته المعروضة لان المخرج عبث بتفاصيلها وأعاد صياغة بعض أجزائها بطريقة تفقدها حدتها وشراستها وشائك أفكارها، وظهرت الاقلام التي هاجمت المؤلف لهذا السلوك الشائن، ورفعوا لواء المقالات التي تتحدث عن سؤال بايخ: من المسئول عن النص المعروض: المؤلف أم المخرج، وكأن المؤلف قد انتهى دوره بمجرد أن قبض ثمن النص، كما أن يوسف إدريس لم يتساهل مع كثيرين من كتاب السيناريو حينما كانوا يعدلون في وجهات نظره الروائية أكثر مما ينبغي، في حين أن واحدا مثل نجيب محفوظ لم يكن يهتم بذلك تحت دعوى معروفة تنص: أنا مسئول عن النص

المطبوع وللآخرين حرية التصرف عند تحويله إلى فن آخر خارج الكتاب المطبوع، وليس صحيحا ان معظم روايات يوسف إدريس تحول إلى سينما كما يدعى البعض عن جهل، والحقيقة ان ما انتجته السينما من أعماله قد يكون خمسة أفلام، وهي نسبة ضئيلة بالنسبة للكم الذى كتبه ولاسيما في قصصه القصيرة الموسعة «النوفيلا» وذلك راجع بالطبع إلى نصوصه التي يصعب استئناسها للسينما المدجنة.

ولم يكن أحد من جيلي - أو الأجيال التالية ليوسف إدريس قريبا بشكل دائم من يوسف إدريس إذ أن هذا الفنان كان يحب المأكل والمشرب والسفر والجدل والكتابة، ولايركن ولا يهدأ، لا يغلق عينيه وهو نائم، يحب كل الناس «طفل» ويداهم كل الناس «عاصفة» يعشق الحياة عشقا جارفا، وعندما يقرأ نصا يثير عجبه ودهشته تجتاحه رغبة ان يرى صاحبه، لكن هذه الرغبة تتراجع وتتزاح بعد ذلك تحت سطوة رغبات جديدة متوالية، وقد وقعت أنا نفسي في هذا الفخ، فقد أخبرني الروائي سليمان فياض أن يوسف إدريس تكلم عني بشكل مذهل، وبالذات عن قصة كانت منشورة لي أيامها «كلب آل مستجاب» وشعرت بسعادة طاغية جعلتني أتصل به تلفونيا، ولم أصدق نفسي وأنا أسمع هذا الثناء المشتعل البسيط «اكتب ياولد، هذه هي الكتابة الجديدة الحقيقية» ونمت سعيدا، فقد حصلت على بركة يوسف إدريس، تلك البركة التي سوف يتم تتويجها بالقطع بعد ذلك بأيام في برنامج تليفزيوني سجله له الشاعر والمذيع اللامع فاروق شوشة، وكان السؤال الموجه ليوسف إدريس في الأجيال الجديدة من شباب الروائيين وكتاب القصة - من الذى لفت انتباهك؟؟

وكانت إجابة يوسف إدريس بعد لحظات هدوء صامت بالنص: « والله يا أستاذ فاروق أنا بطلت أراهن على أي كاتب، يعني، أنا مش شايف واحد معين» وكان يوسف إدريس صادقا مع نفسه - أنا الذى رحت ضحية لكاذب التصورات، مع ان يوسف إدريس قدم صنع الله إبراهيم في مجلة الكاتب وكذلك تكلم كثيرا بحب مبكر عن جمال الغيطاني ويحيى الطاهر، ولكن ذلك كان في الستينيات، بعدها -

كمـا هو واضح ـ توقف عن هذه الابوة التى قد لاتثمـر سـوى الأبناء الابقين «من وجـهـة نظره» وكل الذى فـعله فى السنوات الأخيـرة ان أبدى تبـرمـه وضـيقـه بكل الاجيال التالية، محتفظا بإعجابه المحدود باثنين: شمس الدين موسى ومنى حلمى عندما كان مشرفا على القصة فى مجلة «الشموع» فى بداية صدورها، ثم بعد نلك ظل دائم الإعجاب بالصديق محمد المخزنجى، المؤدب المهذب الرصين الهادى، مع أن الحياة الأدبية المصرية ـ وفى القصة القصيرة والشعر بالذات ـ كانت تمور بالكثيرين.

إن قيمة يوسف إدريس لم تكن فقط فى نصوصه الساخنة، بل وفى مواقفه المشتعلة، وقد أفسدنا عليه كثيرا من طعم الحياة بمناوراتنا ومراوغاتنا له، والهجوم الضارى الذى تعرض له من كل أركان الأرض، ومحاصرتنا له فى عاداته ومطالبه، واتهاماتنا المتوالية له، لكنه يستحق كل نلك، فمن أين يتسنى لنا أن نستحضر مثل هذا الطاغوت العبقرى الذى نجند له كل قدراتنا للايقاع به، حتى تستقر أرواحنا البائسة فى جوفنا الشرير الخاوى، من أين؟؟

٦ أيها الجمال الساحر الخشن دعنى أموت فيك وحدى

نحن الأدباء مولعون بالورق المطبوع، على شكل مناظر طبيعية، أو مقالات وقصص وأشعار، أو شيكات وأوراق نقدية، وقد أدى نلك بالبعض منا أن اختصر العالم فى هذا الورق، حتى التجارب المستعرة التى يشعلونها فى كتاباتهم، تكاد تكون كلها تجارب مستعارة، هى تجارب الآخرين يعيدون صياغتها لصالحهم لتبدو كلتها مقتطعة من ذاتهم البالغة الاشتعال، إذ لا فرق كبير عندهم بين التجربة المستعرة والمستعارة، وحتى السفر إلى الأماكن البعيدة يتحول إلى لقاء أدبى ثرثار بين الأساتذة ـ الذين هم نحن ـ وبقية الأدباء ـ الذين هم أبناء الأقاليم ـ ثم قبل نلك أو بعد نلك، الأكل الجيد والمشرب الجيد والكلام الجيد والقطار الفاخر ثم مقال أو عدة مقالات، لنقوم بتطييب خاطر الذين استضافونا، حيث نذكر أسماءهم باعتزاز يتناسب مع جو الألفة والكرم الذى أحاطونا به، والذى لم نبرح ـ خلاله ـ الفندق أو القاعة موضع اللقاء.

غير أن الأمر بالنسبة لى يختلف قليلا، فأنا مولع بالنقود (هذه البراعة التى يبديها الآخرون فى ادخار النقود لا تباريها سوى براعتى فى اهلاكها)، وبالمأكل والمشرب (أى صداقة جافة التى تخلو منهما)، وبالأدب (أتشمم الطريق إلى الأدب الطازج كثعبان يتلوى فى طريقه إلى إناء اللبن)، ومولع أيضا بما هو أعلى من كل نلك: السفر، وكل سفر ينتهى فى فندق وقاعة مناقشات فهو ليس سفرا، إنما السفر شىء آخر أعلى وأخطر من النقود والأدب والمأكل والمشرب ويعلو أيضا على أشياء كثيرة أخرى تسبق أيا من نلك ولا حرج، ودون داع للإسهاب فيها أو حتى الاشارة إليها.

× × ×

تجمعنا مبكرين فى الباص السياحى: مع الأساتذة العلماء العرب والمستشرقين والمصريين ضيوف مؤتمر مجمع اللغة العربية المنعقد فى القاهرة، ومع الزملاء العاملين فى المجمع، وكان الربيع قد قام مبكراً وظل يقبل فى وجنات القاهرة الفارقة فى النوم، وكنت قد ارتديت أسلحة التصميم على الاستمتاع بالسفر، الابتعاد عن الكلام والثرثرة وقراءة الجرائد والاطمئنان على زاد السفر المغلف فى العلب واللفائف، جلست فى المقعد الأمامى بجوار السائق الهادىء، وكانت القاهرة قد استيقظت وبدأت تطرد أبناءها من البيوت إلى الشوارع عندما غادرناها، فى طريقنا إلى سيناء، وإلى طابا على وجه التحديد..

كانت جلستى بجوار السائق فى المقدمة مناسبة لى تماما، حيث ابتعدت عن مركز العواصف والقلق، ابراهيم الترزى أمين عام المجمع وانشغاله الدائم براحة الضيوف، لا يكل ولا يركن ولا يهدأ وسامى سليمان المشرف على القطاع والمنهك مع أحمد حامد ومن يلوذ بهما فى مراقبة حركة الصرف والاتفاق والفواتير وقوائم السداد ومواعيد توزيع الافطار والمشروبات وأكياس البطاطس المحمرة، الضيوف الذين لا يملون أبدا ولا يسأمون أبدا من الجدل حول الفرق بين (الجر والجرجرة) و(النطاعة والتنطع) و(الكسح والكساح) و(الطامع والطامح) و(الجدولة والبرمجة)، كما انهم يميلون إلى الولوج فى كتب التراث النفسية ليستخرجوا منها ما يضحكهم ويسعدهم، ابتداء من المرأة التى التقى بها بشار بن برد ليلا لترد بيتين من شعره إلى شاعر سابق، مستخدمة منهج البنيوية، وانتهاء بقضية نصر أبى زيد الذى ظل يحاضر سنوات فى الجامعة مستخدما المنهج الذى رفضوه بعد ذلك حينما أصبحت المحاضرات كتابا يتعلق بترقيته، فإذا أضفت إلى الأمر أن فيديو الباص قد بدأ البث، فإنه يصبح لائقا أن أكون فى مقدمة السيارة حيث يصبح الفيديو وبشار بن برد، ونصر أبو زيد - جميعهم - خلفى، لا أدرى بهم ولا يدرون بى..

وكانت صحراء السويس المنبسطة قد بدأت تكفهر قليلا بظهور جبل عتاقة والذى يومىء بأن صندوق الأداء العلنى للمخدرات فى مصر يقبع فى أغواره، وظل الأفق ممتدا عالقة به كل آثار تنفس المدن: الغبار والضباب والدخان والعلب

الفارغة وبقايا ضوضاء الفيديو والضحك عالى الصوت الذى فيه من المجاملة أكثر من الصفاء، حتى تسلل الباص (لم أقل اندفع) إلى نفق أحمد حمدى، ومع بطء حركة التسلل احسست كأنى أنزلق من رحم قديم، داهمتنى طفولة القت بنصف القرن فى هوة غامضة، كان العمال يصلحون ما تآكل من بطن الرحم، وبدت ضلوع النفق تشكيلا لمعاناة سحيقة، واستمر طابور السيارات - صفا واحدا بطيئا هامسا بأزيز الموتورات دون فزع صوت آلات التنبيه: جنازة قادمة من افريقيا تتلمس الطريق إلى آسيا، لماذا جنازة؟؟ أعوذ بالله، حتى أفواه أصحاب النحو الصرف والبيان والأفاكيه والطرائف وما قيل فى شكوى الزمان - صممت وكانها تنصت فى حذر للحركة المقبلة..

بمجرد خروجنا من نفق أحمد حمدى، أى بمجرد أن توجت الشمس المصرية الوجوه العربية، انفك اللسان وبدأ التاريخ يداهم الجغرافيا، تآوت سيناء والحكايا تترى متوالية: الجيوش والسحرة وموسى ويوسف والنبى صالح وجمال عبدالناصر والاستراتيجية ورمسيس ويعقوب والسادات وممر متلا وحصار الجيش الثالث وكامب دافيد وبئر فرعون ومناحم بيجين ودوائر الثأر المصرى - الاسرائيلى العربى العالمى، وتراجعت كل التباب والتلال للخلف لتترك للباص القوى فرصة الاندفاع إلى جذور الجبال، وبين كل سحر وسحر يظهر جبل عتيد فتحس ان نداء غامضا يتسلل إلى الجوانح: أنا ربك الأعظم، وتمنيت لحظتها أن الكون الشرس المتجهم يبتسم لنا فى امتثال مذهل، وكلما ارتفعت الجبال وشهقت تتراقص الألوان موشية بجمال ليس من السهل التعبير عنه، لو كان الأمر بيدى، أو لو كنت شجاعا بشكل معقول، لغادرت السيارة واندسست داخل هذه الجبال ثعلبا أو ذئبا أو نمسا أو نغمة موسيقية أو سحابة أو بيتا من الشعر الأخاذ، لكن عضو المجمع الجديد من فلسطين - أحمد صدقى الدجانى - قرر أن يخرج من غيبوبة السحر ليشرح للقوم حركة الرياح والصخور وعوامل التعرية والرسوبيات، لم أكن أسمعه بشكل جيد فظللت هائما فى الكهوف والطرق والمدقات ونجوم النهار، لقد تمنيت أن أقضى آخر أنفاسى فى هذا الوادى - وادى فيران - ..!!

وعندما وصلنا دير سانت كاترين كان أعضاء المؤتمر قد عرفوا - من الدجانى أيضا - أن السيدة القديسة كاترين - وهى أميرة رومانية - قد هربت فى عصر

دقلديانوس (المسمى تاريخيا بعصر الشهداء) ولاذت بهذا المكان الذى يحوى مع الكنيسة مسجدا وبئرا لها جاذبيتها لمن يريدون الاستشفاء أو التبرك، وكانت الجبال الشاهقة تضغط على الأعصاب ليظل الجميع ممتثلين مذهولين، وفى فتحة المنخفض الضيق اقامت شركة سياحية مجموعة من الشاليهات المتناثرة، فى نفس الموقع الذى لجأ إليه السادات ليقيم لمرة أو مرتين بصفته وادى الراحة الذى يتنسم فيه الرئيس رائحة التاريخ والصفاء، ويستعيد بعده اللياقة السياسية المناسبة وهى اللياقة التى استدرجته إلى اعتقالات سبتمبر ثم مأساة اغتياله بعد ذلك بشهر او اكثر قليلا..

كان الآباء فى دير سانت كاترين هادئين وهم يقودون العلماء العرب إلى مختلف مواقع وتكوينات الدير، وكان جبل موسى ماردا شبحيا يجعل من البقعة ظلا وارفا ذات أشجار كهنوتية كأنها قادمة مع آدم وحواء من خمائل الجنة، وعندما غادرنا هذا المنخفض المتسربل بغلالات الجبال الهائلة، أحسست ان الأمر كان يجب الا يعالج بهذه السرعة، وأن الطريق الذى امتد صاعدا كان ضيق الصدر، فاستسلم الجميع للصمت أو النوم أو الاتعاظ أو مصمصة الشفاة أو الهمس الخافت الناعم الغامض، وظللت أقاوم رغبتى فى الكلام مع سائق سياحى لا يندهش ولا يتكلم ولا يضيق ولا يبتسم، وكانت النباتات الواهنة - شديدة الخضرة - تطل بإصرار من بين الصخور الشمطاء، وسحب بدايات الصيف تتسابق - هناك بعيدا - فوق القمم تحيلك إلى شاعر، والدروب الضيقة - كالشرايين الدقيقة - تتواصل مع الوريد الأوسع الذى تتدفع السيارة فيه..

× × ×

آخر النهار، أى عندما يزداد الوجود اقترابا من حافة النهار ليطل على بوادر الليل، تأخذ الطبيعة فى سيناء فى تغيير ملابس النهار، تخلع أرديتها المستهلكة وتتحلى بكل شحنات العشق الهفهاف، تمتد الظلال وتلتف حتى تصبح استرحاما نقيا مفعما بألوان المساء، بين الحين والحين أرى جملا هادئا لا يهتم بنا ولا ينظر إلينا، ثم مجموعة من الماعز المتقافز حول خيمة أو خيمتين، كثرت عوائق الطرق التى تقام من السلطات للتأكد من سلامة النوايا، جمعت الشمس آخر أشعتها الواهنة من قمم الجبال وأشارت لنا بتحية ناعمة من الرياح لنتجه إلى طريق

شاطىء البحر، وكانت اضواء الجزيرة العربية قد تلألأت فأحسست بلخوة عربية تثير المرح والتعليقات، وبين شاهق الجبال وجرف البحر استيقظ القوم، لكن سيناء كانت قد انفرزت فى جوف الليل.

× × ×

لم نكن نملك فى هذا المساء إلا أن نأكل ونجلس وراء نوافذ حجراتنا فى الفندق لنطل على البوابة الفاصلة فى طابا بيننا وبين اليهود، كان الجبل يحاصرنا من ثلاث جهات وظهر الفندق إلى الجبال وأقدامه فى رأس خليج العقبة، التليفزيون فى الحجرة حافل بقنوات من اسرائيل والأردن والسعودية، وقنوات أخرى غامضة أسعدت من يريد السعادة، ودفعت بالنشوة لمن يريد الانتشاء، غير أن جرعة مشاهد سيناء ظلت مهيمنة على وجدانى، حتى التدخين لم أمارسه فى هدوء هذا المكان الساحر، والذى يصبح التليفزيون فيه أثرا رديئا من آثار الحضارة الحديثة، والسير على حافة حمام السباحة ليلا - كان يمكن أن يصبح أكثر رونقا لولا هذه السيقان الغربية العارية المختفية وراء أشجار حديقة حمام السباحة..

لكن الأمر لا يخلو من حرق الدم، ففى الصباح فوجئنا بحركة صامتة ضاغطة لأفواج من ذوى الملابس العسكرية، يسيرون جماعات ويهمسون ويتحركون بما ينم عن شىء غير معروف سيحدث، ولما سألت واحدا من العاملين عما يجرى، قال ان كبار المسئولين سوف يقيمون فى الفندق تمهيدا للاحتفال بعيد سيناء فى طابا، ثم أضاف بأننا لا دخل لنا فى الأمر لأنهم استوثقوا من نبل مقاصدنا وأهمية شخصياتنا، ونص، لكن حركة العسكريين كسرت الأفق وشرخت الهدوء وضغطت على الأعصاب، وكان لابد أن نجمع أجسادنا من الحجرات وننوى الرحيل، وبدا واضحا أن سيناء لا تجد نفسها وتتحقق ذاتها إلا فى حركة العسكريين - سلما أو حربا - وأننا - مثل أبناء الزوجة الأولى - يجب أن نصمت قليلا، ثم نركب سيارتنا، وأن نغفو، أو نضحك، أو نعود لمعرفة الفرق بين السكينة والسكين، والأخضر والكاكى، والجر والجرجرة..

ولم أنم فقد ظللت أستدعى هذا الجمال الرائع كى أموت - بكل إخلاص - فى ملامحه الخشنة، تاركا الآخرين ينظمون وسائل المأكل والمشرب والأمور الأخرى.

٧ هذه المعجنة اللغوية

عندما اكتب كلمة (موسيقى) منتهية بالياء، فلابد أن يبتعد عنها مصحح الجريدة وإلا يجعلها (موسيقا) بالألف، بالياء أريدها ومصمم عليها، ولست مهيئا للدخول فى مشاجرة قد تنتهى بتقطيع الملابس والكتب، ذلك لأنى لم أعد قابلا لمناقشة البديهيات، فكل كلمة - أى كلمة كانت فعلا أو إسما أو عفريتا أحمر - تزيد عن ثلاثة حروف تنقلب ألفها المدودة ياء: موسيقى، وفتوى، وبلوى، وسلوى، وحلوى، ودعوى - سواء أكان أصلها الثلاثى ألفا أو ياء، سيقوم السيد المصحح - مع أنصاره - بإثارة قضية ما كان أصله غير عربى ويزيد عن ثلاثة حروف مثل دراما وروبابيكيا وفانتازيا وشيزوفرانيا ومناخوليا، وبالطبع ما ينطبق على ذلك هو الذى تخضع له كلمة (موسيقى)، لكنى لن أتراجع مهما كانت المحظورات، ومهما عضدته وآزرته ثريا وعليا وغيرهما من أسماء تقلب الدماغ وتداهم أصول اللغة عندى، ونضطر أن نقلد أو نحاكى ذاك الزميل الضالع فى تأليف المسلسلات التليفزيونية الناجحة، الذى أعماه هذا النجاح عن الحقائق اللغوية والبيولوجية التى تقوم عليها الحياة، فطالب - دون حرج - بإلغاء صيغة المثنى من اللغة العربية (إذا كنا نود أن تكون لغتنا حية مثل تلك اللغات الحية الخالية من المثنى)، والمقال المنشور فى مجلة الوطن باسم أسامة أنور عكاشة، الذى لا دخل له فى التعامل مع صيغة المثنى من قريب أو بعيد، فما الذى تحتاجه ليالى الحلمية وضمير أبلة حكمت وأبو العلا البشرى من صيغة المثنى؟؟ وأصار حكم بانتى - فى الأوقات الحرجة - تمنيت إلغاء صيغة المثنى، وهذه الأوقات الحرجة تنسحب على عدم إجادة أساليب فنون اللغة، والضيق بالحياة الزوجية بصفتها تخضع مباشرة للمثنى، والضيق المادى حيث تجد نفسك مجبرا على استخدام صيغة المثنى (الاقى معاك قرشين؟؟) - هذا الكلام موجه لأسامة - كذلك فإن الذى يكتشف أن الحياة الزوجية

هى الصيغة المثلى للمثنى فلابد أن نضيق بعد ذلك بنون النسوة، وهى آفة لغوية تصنع اضرابا فى الأساليب وقلقلة فى الايقاع بما تتطلبه من إمعان: قمن - نمن - رحن - صرخن - بيكين - ينحن، أنظر للفعل الأخير: ينحن، أى يمارسن النواح، إذ بدخول نون النسوة ضاعت واو الفعل، والتى لم يستطع الذكور إلا أن يحترموها وهم ينوحون محافظين على كل حروف الكلمة، إن نون النسوة - فى أحسن حالاتها - تعبر عن الجشع والنهم، لكنها - أيها السادة - لا تظهر بنهمها وجشعها إلا فى اللغة الفصحى، أما اللهجات العامية فقد تحررت من هذه النون القاسية، وهى اللهجات التى يكتب به الأصدقاء مسلسلاتهم التليفزيونية، والتى تحررت بدورها من صيغة المثنى، ولذلك فلنا شديد الاستغراب أن يضع كاتب ذكى يده فى شق المثنى فتلدغه عقارب اللغة، مع أن نون النسوة أولى، والسبب فى ذلك - ولنا بالطبع تكاؤنا - أن أسامة أنور عكاشة يود الإطاحة بالمثنى فى اللغة، ثم فى الحياة الاجتماعية - والمثنى فيها هو الزواج، ثم يطيح بالمثنى بعد ذلك فى الحياة السياسية وهى دعوة لنية لاستعادة سلطة المفرد (لم أقل الفرد) مكان المثنى، (يراجع صيغة المفرد فى أبو العلا البشرى الذى دمر بأحلامه حياة الذين حوله - مع أنها كانت حياة فاسدة فقط - دون تدمير). أما الكاتب الحاذق - أى الفصيح جدا - فلا يتوقف أمام لغته القومية ومعضلاتها المرهقة، والتى - هذه المعضلات - جزء أثير من شخصيتها، واللغات الأخرى - الحية جدا والحية نص - نص - داخلها معضلات أقوى وأشد وأصعب، لكنها لا تظهر بكامل حدتها إلا للغارق فيها والضالع فى سراديبها، مع أنى من الذين يضطرون لنطح صخرة المثنى فى العربية بين يوم وآخر، ولذا فقد اكتشفت سرا يهوّن من هذه المسألة، وإن كان لا يحلها حلا نهائيا، ففى العربية فصيلة من الكلمات تقع تحت باب (اسم النوع) أو (اسم الجنس)، ويمكن إحلالها مكان المثنى: امرأة ذات عينين جميلتين وساقين عاجيتين وخدين متألقين، يمكن صياغتها هكذا: امرأة ذات عيون جميلة وسيقان عاجية وخدود متألقة، بل ويمكن أن يحل المفرد محل المثنى: امرأة ذات عين جميلة وساق عاجية وخد متألق، وبالطبع ليس كل مثنى قابلا لهذه المعالجة، فالذى اشترى بقرتين هائلتين، أو الذى أنجب غزالتين رقيقتين، لا يمكن - بأية حال - أن تعالج له هذا المثنى بأى شكل فصيح، لكن اللسان العامى يمكنه أن يفعل ذلك: اشترى اتنين بقر وأنجب ٢ غزلان، وأراح عقله وضميره بغض النظر عن موضوع نون النسوان..

لكن الأخطر من ذلك ليس كتابة (موسيقى) بالألف، أو مشاكل المثنى ونون النسوة، إنما هو أمر اخر يكاد يختفى كلما تذكرت بعضا منه، فبالتأكيد أن مصحح جريدة الوطن رأى ما لم يره أسامة أنور عكاشة، كارثة أصول الموضوعات، وهى مسألة لا يمكن لأحد أن يراها إلا إذا عمل فى مطبخ واحدة من المطبوعات وهو ما يسمى (الديسك)، والذى يتلقى المواد المرشحة للنشر، ويقوم بفرز هذه المواد، والذى يعيننا هنا هو المواد الصالحة للنشر: سواء صلاحية ناجمة من ذاتها أو بأمر رئيس تحرير المطبوعة، ذلك أن عددا لا بأس به من خيرة الكتاب - وبعضهم ذوو شهرة مدوية - لا يهتم (ربما لأنه لا يعرف) بالنحو والصرف وأداة الموصول والاشارة، وذات مرة رأيت الدكتور عبدالقادر القط - وكان أيامها رئيسا لتحرير مجلة (المجلة) خلفا ليحيى حقى - شديد الاستياء والضيق، أقرأ، وجلست أقرأ، كانت قصة بقلم كاتب شهير تتسابق السينما على أعماله، وهو بالمناسبة ليس يوسف السباعى أو إحسان عبدالقدوس، وجلست أقرأ، كان الخط واضحا به سمات من الجمال، لكنه لا يحفل - استهتارا أو جهلا - بكل مقتضيات اللغة، ابتداء من سلامة الأسلوب إلى صحة تكوين الجملة إلى مراعاة الوضع النحوى للكلمة (جلس بجوارها يأكلو.. وهم ينظرون إلى الزراعات حول النهر الجميل التى ينساب فى غرام)، وعندما توقفت عن القراءة ممعنا فى وجه الدكتور عبدالقادر القط قال فى ضيق: والمصيبة ان وزير الثقافة (الذى قتل بعد ذلك بسنوات فى قبرص) اتصل بى تليفونيا لكى يوصى به عندى، وفى مثل هذه الأمور يقوم المصححون الشهداء بتصليح كافة المسائل، ويلعنون فى سرهم اليوم الأغبر الذى وضعهم فى هذه المعجنة، ذلك أن الكاتب - الذى مهنته الكتابة - يجب أن يجيد فن الكتابة بكامل تفاصيلها، انظر لتاجر البهائم وهو يمعن فى الجاموسية متوسلا إليها بأنامله المدربة فى الأثداء والمؤخرة والأظلاف والأسنان والقرون والجفون واللسان، لكى يعرف عمرها وقدرتها فى الانجاب وخلوها من الأمراض، انظر للخباز وهو يمعن فى الدقيق ويرفعه فى كفه ويشمه ليعرف هل هو دقيق ذرة أو قمح، وليدرك نسبة الردة والنخالة فيه، انظر للصائغ وهو يلقى النظرة المتأنية على قطعة الذهب ليقومها دون انتظار للتثبت من ختم دمغة الذهب، ثم انظر لهذا الحس الانسانى الدقيق المجرب الذى تعتريك حينما ترى أنثى فائقة الجمال، فإذ بك فى هدوء تخلع عنها ألوانها وكحلها وباروكتها وطقم أسنانها وما تم تضمينه لثنايا جسدها الضامر، فتحدد - فى سرك - سنها، وألاعيبها، وما حاق بها من تجارب، مش تقوللى نلغى المثنى من اللغة..!!

٨ جميع النساء جميلات عدا زوجتى

أول من ظهر على سطح الوجود : السلاحف ثم الغربان ثم نقاد الأدب، وبعد فترة ظهر الأصدقاء والمدرسون والثعالب والضباع والحكام العسكريون، ثم كانت الراقصات، وبعد أن زها الكون وتلوى انتعاشا ظهر المذيعون والقطط والصقور والضفادع والسياسيون، ولم يعد هناك مجال لمزيد - بسبب الزحام - فظهر ثعبان أوحد وذئب واحد ونعجة وحيدة، وامرأة وحيدة، هى التى قدمها لى ابن خالتى - ذو المنصب المرموق، فكدت أطير فرحا، بل طرت فرحا بسبب ما جاء فى ذهنك الآن وهو مطابق لما فى ذهنى تماما.

دعنى أوسع من مخك قليلا لأضيف : ليست امرأة فقط ، بل وألمانية أيضا.

كنت قد ضقت ذرعا بالحب المحلى الذى كثيرا ما انتهى إلى واحدة من كارثتين : المطالبة باسترداد الخطابات - إذا كانت التجربة غير ناضجة، أو فضيحة صغيرة فى الحالات النادرة الأخرى.

صحيح اننى تمنيت ذات مرة أن أقع بين أحضان امرأة اسبانية حيث تكون بعض الموضوعات المشتركة عنصرا رابطا بيننا ابتداء من طارق بن زياد وانتهاء بعبدالرحمن الناصر - مع المرور السريع على دون كيشوت وسرفانتس ولوركا، وبعض الملاحظات ذات البريق حول موسيقى دى فايا.

وصحيح أيضا اننى - ذات ربيع حالم مقفر وخاو من التجارب، تمنيت أن تكون لى واحدة فرنسية ذات زخم ثقافى يتراقص حول ما تعلمناه عن وطنها الفرنسى العظيم فى المدارس - مع التركيز بعد ذلك على سارتر وسيكمون دى بوفوار وعلاقتهما على وجه الخصوص.

وقد درت بخيالى فى أوروبا كلها، خلال كل المواسم - كى تقع واحدة من نسائها فى أحضانى، حتى يئست.. لكنى - وخلال كل هذه المواسم - لم يطف فى

خيالي ان يتقدم ابن خالتي - الذى احبه حبا غامرا واجله جلالا جسيما - بواحدة المانية ويمد يده بها إليّ هدية وهو يبتسم، ويحتسى بقايا القهوة، ويتركنا - وهو يبتسم ايضا - تاركا أمر اسعادها كي اقوم به بمعرفتي.

لاحظ - قبل اى كلمة - ان الغربيات (اوروبيات او اميركيات او حتى استراليات) لا يثرن غيرة زوجاتنا، ولا يتركن ذلك الأثر الثرثار في بيوتنا، الذى تتركه العلاقات الغرامية الوطنية، وصدقنى أن كثيرا من زوجات الأصدقاء الذين وقعوا فى تجربة اجنبية كدن ينطقن بالفخر والاعتزاز لأن أزواجهن اتصفن بهذه الصفات، لا تضق ذرعا بنون النسوة التى ارهقتنى أثناء كتابة هذا المقطع.

من باب التنبيه فإن ماريانا الألمانية هذه، لم تكن فى جمال اللاتى نتمناهن، لكن ما قد ينقص فى الشكل الخارجي سوف يعوضه جمال الروح، وإلا فلماذا ظهرت الثقافة على وجه الأرض؟؟

ودار عقلي بسرعة ليخدم الفرصة المواتية، تليفون لصديق يعمل فى هيئة الآثار ليتيح لنا مجانا زيارة مناطق منف - اقدم العواصم تاريخا - وسقارة والهرم المدرج ثم منطقة الجيزة باهرامها وابو هولها، مع مراعاة الا يكون معنا مرافق بالمرة، تليفون لصديق يعمل فى مشروع الصوت والضوء ليلا بالهرم، وكانت المفاجاة السارة أن العرض هذه الليلة سيكون باللغة الألمانية، مع مراعاة الا يكون معنا مرافق، تليفون لعم عبدالخالق صاحب قعدة شرقية على الطريق المواجه للتمثال العملاق لرمسيس الثاني، والذى ينام على الأرض لعدم وجود قوة معروفة تستطيع ان ترفعه (اضخم بكثير من تمثال رمسيس الذى فى محطة القاهرة)، مع مراعاة الا يكون معنا مرافق، وتليفون لصديق يملك سيارة كى ينتقل بنا فى هذه المنطقة الشاسعة، مع مراعاة الا يكون معنا مرافق (!!).

كانت ماريانا سعيدة وأنا استعرض امامها اتصالاتى، التى طعمتها ببعض الفاظ انجليزية، وكانت المفاجاة التالية هى ان ماريانا لا تعرف من الانجليزية إلا عددا محدودا من الفاظ ومصطلحات تكفى بالقوة وبالضغط على الحروف وبالتكرار للخدمات المحدودة، وهى التى لا اعرف سواها، والتى لا أريد سواها ايضا.

فى يقينى - وانا استقل مع ماريانا سيارة اجرة لعدم تجاوب الصديق الثالث صاحب السيارة للاسف - ان جميع النساء جميلات عدا زوجاتنا، وعندما انعكست انوار شمس اصيل ذاك النهار على جزء من خدود ماريانا، بدا البياض

الوردى يتالق، وعندما مددت ذراعي كي تتشبث بها فى سيرها القلق العابث على الرمل، تناولتها فى بساطة ضاحكة، هذه البساطة الضاحكة التى ازالت وبسرعة اى اثر لنقصان الجمال من محيّاها، واصبحت ماريانا - فى هذه اللحظة - أكثر من عاشرت - اقصد من شاهدت - جمالا وتالقا، وعندما اقتربنا من بوابة متحف رمسيس الثاني التقط كل منا انفاسه وملت إلى الحارس اوضح له اننا قادمان من طرف الصديق الاول، فمال الحارس - بدوره - على حارس اخر، ومال الأخير على اذن الجالس داخل «الكشك» ومعه التذاكر، عندما حدث ذلك كله إضافة إلى انتفاء مساعدة صديقنا صاحب السيارة، اى بعد أن تحملت مبلغا طائلا لا طاقة لى - ولا للذين اعرفهم - بتحمله، ايقنت ان احتمال فشل الصديق الاول وارد، والدخول سوف يكلفني اكثر مما استطيع كتابته، ولاسيما بعد أن تصاعدت رسوم دخول الاجانب إلى الآثار بشكل مفزع.

لكن الرجل الذى فى (الكشك) هز راسه مرارا، ثم اشار بدمه الثقيل ودون أن يبتسم أن تتفضل..!!

ودخلنا..

كنت قد غرقت فى السعادة وأنا اختصر مصر كلها - وطنى كله - فى تمثال رمسيس الثاني العملاق، لاقدمه على كفوف الغرام المتوقع إلى المانيا، والذى - حتى الآن - ينام ضخما مروعا على الارض، وقد وقف فى شرفات القاعة عدد من السائحين الصامتين فى تبتل منبهر مندهش غارقين فى الاعجاب، حتى ان واحدة نظرت فى ضيق لواحد لانه قطع عليها اندماجها التاريخي، عندما احدث بالكاميرا ضجيجا ناعما مضيئا صغيرا.

لكنى - وعندما هممت بالهمس المتدفق لاحكي المحاولات الاسطورية التى قمنا - بها بصفتي ممثلا لمصر فى هذه - اللحظة لكي نرفع التمثال الضخم من فوق الأرض - وفى هذه اللحظة الوطنية فوجئت بماريانا تنظر فى السقف، كان سقف المتحف خاليا عندما جاريتها ونظرت إليه، نبهتها - بانجليزيتي الجميلة - إلى ضخامة التاج والأذرع، وانتظرت منها ان تنبهر.

فلم تنبهر.

وقفت بجامدة صامدة تنظر للسقف وتمعن فى اظافرها، فعدت من جديد انبهها إلى ضخامة الساقين والحزام الذى يلف الوسط المزخرف بآيات الفخر والعزة والفتح، حتى ان صوتى علا اكثر مما يجب مما جعل السائحين الصامتين يتضايقون.

فى المرات السابقة - وهى عديدة - التى زرت فيها هذا التمثال، كنت اعانى كثيرا من مداهمة الاعجاب لمشاعرى، وكانى اراه لأول مرة، ولم يكن اعجابى هذا يقل ابدا عن اعجاب الذين رافقونى من كافة الطوائف وطبقات العلم والجهل.

وعدت أمز مشاعر ماريانا - على الاقل لاجعل لقدومها من المانيا إلى مصر ثمنا من الدهشة والمتعة، حيث نبهتها إلى انه لا يوجد فى المانيا كلها تمثال يصل إلى هذا الحد دون جدوى.

وفى الطريق إلى (قعدة) عم عبدالخالق بدات ابدو عدوانيا، فقلت لها إننى مطلع على التراث الألماني الموسيقي والفلسفي من بيتهوفن إلى فاجنر إلى ماندل (صاحب المياه الموسيقية التى تبدأ بها محطة لندن العربية ارسالها) إلى انجلز إلى كانت إلى.. فاتضح لى انها لا تعرف من كل ذلك شيئا.

وبدت ماريانا الألمانية وكانها قادمة من حقول وبرارى العالم الثالث لا تعرف شيئا، ماذا افعل فى هذا البخت الأسود؟؟

كانت ماريانا قد جلست - فى جمودها - على المقعد الوثير الذى قدمه لها عم عبدالخالق مرحبا، والأشجار تزقزق والـ...

وكان جمالها - البقية الباقية من جمالها - قد اندثرت، وتحولت المراة الاوروبية إلى كائن آخر ليس من السهل وصفه.

ابتعلت أمنياتى وثقافتى وسرورى، وجلست محنقا فى مقعدى، اشار لى عم عبدالخالق - من بعيد - ان كان يحضر لنا الطعام.. فلم ارد، إنما ذهبت إلى التليفون واتصلت بابن خالتى - الذى أكرهه كراهية العمى - وأكدت له : ان لم يحضر لياخذها فسوف أتركها وحدها فى صحراء سقارة..!!

وعدت إليها، فاستقبلتنى مبتسمة، وسالتنى بانجليزيتها المتهالكة وكانها جالسة تخبز أمام فرن ريفى : إن كنت أشعر بحاجة إلى الطعام؟؟

فسالتها بانجليزية سليمة لا لبث فيها : عزيزتى ماريانا : هل تعرفين شيئا عن بسمارك ؟؟

فضحكت بابتسامة عذبة (من العذاب) وليس من العذوبة)، وهزت راسها الذى لم اتوقع أن يكون له مثيل فى اوروبا كلها، التى أكدت لى أن اول ما ظهر على الأرض كانت السلاحف ولم تظهر أنواع اخرى بعدها حتى الآن، ولم يكن معها مرافق.. سواى..!!

٩ القرص الأحمر يفترش الأرض فى الليلة البهيجة

ورثت عن سنوات المدارس ثلاثة تعبيرات تعتبر القاعدة الأساسية لكثير من المذاهب الأسلوبية فى العصر الحديث : «يفترش الأرض ويلتحف السماء»، ولم اره فيما رأيت من أعاجيب الكتابة قبل مصطفى لطفى المنفلوطى، وهو تعبير يستخدم - إن كنت لا تتكر - استدرارا لدموعك واسترحاما لجوانحك وإثارة لعطفك كى تبكى ما استطعت البكاء على حال بطل روائى صايع ضايع طيب القلب، سيحظى فى نهاية الأمر بمعشوقته التى فى الجانب الآخر، لا تفترش الأرض ولا تلتحف السماء عادة، لان هذا الافتراش والالتحاف قد يفسد الماكياج أو بعض الترتيبات الأنثوية الأخرى، وقد عكف غلاة صانعى القصص فى فترة الكتابات المكافحة على أدواتهم فطوروها وساعدوا على تهيئة الجو المناسب لهذا البطل المشار إليه فجعلوه يفترش الأرض ويلتحف السماء على شاطىء جدول ماء رقراق، وهل هناك تكييف هواء أكثر مراوحة من هذا، لكنهم أثناء التطوير لم ينتبهوا خلال هذه النومة الدرامية أن يوضحوا أن كان بطلهم يضع دماغه على ذراعه أو على ربطة حشيش أو على وسادة، ودون توضيح ذلك يظل «التكنيك» ناقصا والآلية التى تحكم المشهد مختلة لان التوسد عنصر لا يمكن اسقاطه أبدا من المسالة وخصوصا على شاطىء الجدول.

اما التعبير الثانى فقد كان أكثر اصالة ورومانسية وجانبية وأكثر معاصرة أيضا «عندما يغرب القرص الأحمر القانى فى الأفق» ويستكمل هذا التعبير عادة - وهو نصف المعادلة - بربطة الحب الغارب فى جوانح الراوى والبطل على السواء، وتكون العاشقة الشريفة قد اكتوت بنار اللوعة التى تحملناها معا فى حركة القرص الأحمر الدامى أو القانى، وقد ظللت - دعونى اعترف - فترة طويلة أعتقد أن القرص المشار إليه إنما هو قرص طعمية او كفتة أو شريحة البنجر فيما بعد، وكان المشهد متالفا معى فلن قرص الطعمية طلم يكن قرصا واحدا فى الحقيقة» قام بدور مؤثر فى

قصص حبنا على شواطىء الانهار بين الحدائق والبساتين، صحيح أن البعض من أساتذة الفن القصصي توقفت قدرات عشقهم على حدود قزقزة اللب ومزمزة الترمس على نفس الشواطىء أيضا، لكن الذين كانت فرصة غرامهم أكثر سموا وقعوا على هذا القرص الأحمر، يرمزون به إلى العالم الساخن المرشوش على وجهه قليل من السمسم والبقدونس فلما اتسعت مداركي وبعد أن قرأت قصص الوجوديين والعدميين في أوروبا، ثم الطبيعيين والواقعيين والثوار في العالم العربي أي بعد أن هزني ديستويفسكي وكامي ويحيى حقي ثم يوسف إدريس، اتضح لي أن القرص الأحمر سواء أكان داميا أو قانيا أو كالحا أو باهتا المقصود به الشمس وأن قرص الشمس استطاع أن يفلت من الهيمنة التي وضعها فيه قدماء المصريين وتحول إلى قرص أحمر مثل طاسة نحاسية لم يصبها الزنجار الأزرق، وانه في أفوله الرومانسي المروع الباكي قد سحب خلفه مديحة يسرى وبجوارها عماد حمدى في تلك اللحظات المؤثرة ذات الشجن في «انى راحلة» وكان القرص الاحمر الدامي يغرب في آفاق البحر فازداد القلب لوعة في هذه اللحظات الحساسة.

أما التعبير الثالث فلم يكن وصفا لحالة عاشق صايع ينام على شاطىء النهر كالتعبير الأول ولا اضطرابا في مدارك العشاق وهم يتأرجحون بين مختلف الأقراص الحمراء في التعبير الثاني بل كان الثالث تعبيرا فضفاضا واسعا مركزا شديد الثقل : الليل البهيم ولازالت حتى اليوم لا أعرف سببا محددا لوصف الليل بالبهيم فالبهيم - رعاك اللهم وأبقاك ناصع الفهم - هو البهيم، ومعناها القاموسي الليل الذى لا ضوء فيه إلى الصباح، وهو معنى منتزع مباشرة من المصدر الأساسي : بهم أي غمض واستغلق ولم يعد فيه اشارة للوضوح، وبالتالي فإنك لا تستطيع أن تقول النهار البهيم إلا اذا كنت قد وصلت إلى مرحلة الحداثة الجارفة في التعبير وخصوصا في الشعر، هم يفعلون ذلك وقادرون على ما لم يستطع قوله البارودى وشوقي والجواهرى وحافظ والسياب والشابي وعبدالصبور، النهار البهيم - بعيد عنك - والشقاء الارجوان واسمال المدن والزنجية الشقراء أو الصلعاء والباذنجانة الهيفاء والوردة السوداء والكلب القرمزى، أنت تستطيع أن تصف وبلا حدود أو ضوابط كلاسيكية وفي حدود كل ذلك تسير الأمور سليمة بشكل أو بآخر. لكني بصفتي واحدا «حديثيا» موغلا في الحداثة فقد احسست بشبهة عدم الاستقرار في تعبير «الليل البهيم» ذلك أن ألسنة الناس من فجر ظهور الألسنة قسمت اليوم كله إلى ليل ونهار، وظل النهار نهارا منكرا، لم تصبه أية أوشاب أو تغييرات سواء كان النهار

الأبيض أو النهار الطين، في حالات الرضا والحب والغضب والانهيار، النهار مذكر ولا أعرف له جمعا انهر أو نهارات أو هو بدون جمع أصلا أما الليل - هذا البهيم - فقد كان كريما مع اللغة كما أن اللغة كريمة معه، إذ يبدو أن اللغة بنت ليل حتى لو أصبحت ضجيجا في النهار فقد ظهر لليل المذكر ليلة مؤنثة فقط بل ولا يستطيع الليل بكل ما فيه من جبروت وسطوة وتحايل ومكر وخداع ومداهمة أن تتصف به أنثاه - أو مؤنثة - الليلة فاتت - والجميع أيضا - تقول ليلة الفرح وليلة الدخلة وليلة المولد وليلة الهنا وليلة التواصل وليلة النكد وليلة الفراق وليلة العبث وليلة ١٥ مايو وليلة الحظ التي لا يمكن تعويضها، ومن نافلة القول إن تقول ذلك عن الليل إذ هو لا يصلح حتى في نحت أشعار أحفاد شوقي الليل الأحمق أو الطويل أو البهيم وعند لفظ «البهيم» اقف طويلا كما يقف المجد المجتهد أمام أستاذه، فلماذا الليل البهيم دون الليلة البهيمة، وهكذا استطعت أن أصيب التعبير الموروث في مقتل، فالليلة هي الأحق بوصف البهيمة فيكفي أن تقول عن ليلة الدخلة أو الفرح أو الحظ أو ١٥ مايو : ليلة بهيمة.. هنا يبدو ألق اللغة وإدراكها لما يكون قد فاتها، فالليلة البهيمة أطول وأصعب وأظرف من الليل البهيم ومن كل القصائد المحدثة التي لم تستشرف سوى النهارات التي يسافر على أجنحتها نرجس البحر «شعر جميل من عندي» وفي تلك الليلة البهيمة التقيت بحبيبتي وخلال تلك الليلة البهيمة قررت أن أقتل عمي الذى تزوج من أمي «هاملت لشكسبير» وكانت الكلاب قد نهشت أعقاب مستجاب الأول في تلك الليلة البهيمة وجلسنا - في اجتماعنا المشهود - ننظم مواد الدستور في تلك الليلة البهيمة، وبدأ القائد الهمام يزحف بجيشه العرمرم على الوطن في تلك الليلة البهيمة، وكان التاريخ قد انفرد بالجغرافيا في منطقة مقطوعة وأخذ يخلع عنها ملابسها في تلك الليلة البهيمة، وكانت الليلة البهيمة قد أسدلت ستارها السميك على عقله الحمار، لاحظ أن الليلة البهيمة قد أودت بنا إلى أن نأخذ من جموع الشعب تعبيرات تنظر إليها اللغة الفصحى بنصف عين دون الاقتراب منها : المخ الحمار، والذكاء الجحش، والاخلاص التمساح، وهنا يصبح الأمر - بما فيه من صفات - غير قابل للتورط أكثر، ولنظل بين أحراش الليلة البهيمة نقرأ فصولا من التاريخ البقرة، حتى نتعظ أو يتعظ لنقلب على الليلة البهيمة ماجورا، ونتوقف عن الموروث من تعبيراتنا الأثيرة، والتي على رأسها : وعندما ظهر الصباح سكتت شهرزاد عن الكلام المباح، فهل بدأت - بعد ذلك - في الكلام غير المباح ؟

اللهم اجعله خيرا.

١٠ تنميل الدماغ

لكى أشرح لك - دون إرهاق - معنى تنميل الدماغ يجب أن تكون قد تجاوزت مرحلة الطفولة الأولى، والشباب، والطفولة الثانية، وأن يخلو قلبك من التوجس الدائم خشية أن تنام فلا تقوم «وكأنك إن قمت سوف تفتح عكا»، وأن تظل أمنياتك الخالدة فى حدود الحب والطرب وفناء الأعداء، وأن تنسى بشكل نهائى قضية التحدى والاستجابة التى فسر بها الزميل توينبى حركة التاريخ لصالح الاشتراكية الشهيرة، وأن تكون مستعدا لإدراك مصطلحات المرح الشائكة ولو كانت تستهدف شخصك النبيل، وأن تترك غيرك يتلوى فى كتابة قصائد المديح أو شكوى الزمان أو خيانة الخلان، لكى تتفرغ أنت لهذه المهمة الشاقة الشائقة: تنميل الدماغ..!!

أنت تعرف «وسع مخ وخليك معى» أن معظم أعضاء الجسم قابلة للتنميل، بسبب ظروف متعددة: التكاسل والنوم الطويل، والخلط بين الزوجة والحبيبة، والجلوس أكثر من عشر دقائق أمام مسلسلات التليفزيون، والانصات لأكثر من مائة وثمانين ثانية لخطب السياسيين، أو الاستمرار بعض الوقت فى مجاملة الضيوف الثقلاء، وقراءة الجرائد اليومية بشكل جاد وبدقة فائقة، وما إلى ذلك من ظروف لا يمكن تفصيلها هنا ولو دفعت ألف دولار..

كل هذا يؤدى إلى تنميل فى الساعد أو الكف أو الكتف أو رمش العين أو الأصابع أو الساق أو الفخذ، ونادرا ما يحدث فى الظهر والرقبة - لكنه يحدث - لكنه أيضا لا يؤدى - فى معظم الحالات إلى تنميل فى الدماغ..

ولكى تكون المسألة واضحة فإن الدماغ - كما تعرف - يحمل الامبراطور المهيمن

على كل حواس وحركة أجهزة الجسد الحى، أى المخ، والمخ له مقابل معنوى مباشر اسمه: العقل، والعقل هو نار المخ ولهيبه وكهرباؤه، فإذا خبا ذلك العقل أصبح المخ قابلا للطهو، ويمكن إنضاج المخ فوق نار هادئة مع قليل من الزبدة والبقدونس وفص الثوم، وشىء من الملح والفلفل الأسود، ويستحب التهامه فى الأمسيات التى تنتهى بأوقات السمر الجميلة، والبعض يضيف إليه البيض قبل القلى، ليظل محتفظا بأنواره ولهيبه وكهربائه، أو هكذا يجب أن تعتقد، لكن هذا كله سيضيع هباء إذا ما تم دون الجو الخلوى «بين أحضان الطبيعة» ومعك يكون القمران: قمر فى السماء يهديك إلى الطريق الصحيح كى لا تقع فى مصارف المياه، وقمر بجوارك يتوه بك عن الطريق الصحيح كى تضيع فى أول مصرف ماء..

فى هذه اللحظات يا صاحبى يحدث للدماغ - دماغك - شىء غريب، تجده قد اتسع وبدا مذهلا فى اتساعه وكأنه سوف يضم العالم كله فى رحابته، ثم يقوم الدماغ - بنفسه دون تدخل من شيشة أو سيجارة معمرة أو استحلاب أى شىء على الاطلاق - أو أى وسيلة من هذه الوسائل البايخة التى قد تحول دون نشر هذا المقال يقوم الدماغ بإحداث صرير دقيق مثل الصوت المتعسر المتعثر لفتح باب..... الصرير يبدأ فيصنع ارتجافا ناعما ناجما من لهيب فرن، هذا الارتجاف الحار الذى يتكاثف بين جدران الجمجمة ليبدأ فى انسياب لعزف آلة كمان، ويكون القمر الثانى - الذى يسير فى صمت بجوارك قد اضطرب مما جعل القمر الأول يتستر وراء غمامة أو فرع شجرة، ويكون المخ فى هذه اللحظة قد استشرف أحسن حالاته، حتى انك تستطيع أن تردد فقرات كاملة من نشيد طابور الصباح الذى كنت تحفظه من أحقاب قديمة، ثم وعندما يهمس لك القمر الجميل بما لم تسمعه فى حياتك «أو هكذا تبدو الأمور» يمكنك أن تردد كميات صحيحة من جدول الضرب، وتختمها بأغنية للسيدة الحاضرة فى مثل هذه الأزمات أم كلثوم: فاكر لما كنت جنبى، حينئذ يصبح مناسبا أن تقع من طولك عند أول خميلة، انتبه حتى لا يكون الموقع مبتلا أو موحلا..

ومع ذلك فإن التنميل الحقيقى للدماغ لم يبدأ بعد..

ذلك أن هذا اللهيب العقلى الذى استثار نشيد الصباح وجدول الضرب وفاكر لما كنت جنبى، يكون - لا يزال - فى بواكيره، ولما كان القمر الفاتن - لا أعرف أيهما - قد واجهته رغبة عارمة أن يمارس طفولته، ويكون القمر قد خلع حذاءه وألقى بالايشارب على الحشائش تمهيدا للجلوس الجميل، ويكون الطقس قد استنام هانئا وأغلق فم الكون فلم يبق منه سوى صوت نباح كلب فى آخر الأفق، يكون المخ قد قطع مرحلة جديدة فى الانتشاء، فإذا بك تزحف - مع أنيسك القمرى الفاتن - فوق حافة سور الدنيا، لتخترق التاريخ كما يخترق سيخ ملتهب قطعا من مكعبات لحوم متبلة ممتازة، لتتقافز من العصر الحجرى إلى العصر البرونزى، ولا مانع من قضاء بعض الوقت فى منف أو طيبة أو طروادة، ومن المتوقع أن تسافر مع هانيبال القرطاجنى ليداهم جنوب أوربا كى يحاصر روما العتيدة، وقد تجد نفسك فى ضيافة معاوية.. فى دمشق، أو الخليفة المأمون فى بغداد، أو جوزيف بروزتيتو فى البوسنة والهرسك، أو عمرو بن العاص فى الفسطاط أو كلينتون فى واشنطن، أو كيرك دوجلاس فى أسبرطة، أو سليمان الفهد فى كيفان، أو كلب أهل الكهف فى الكهف، أو اخناتون فى تل العمارنة، أو أنور وجدى فى الآخرة، أو عجوز هيمنجواى فى هافانا، أو أسمهان فى بطن ترعة غويطة..

وصدقنى أن كل هؤلاء سيكونون كرماء، ويرحبون بكما، ويحمونكما من هذا التنميل فى دماغك الذى استعل أكثر، وظهرت نيرانه مشتعلة فى الأذنين وملتهبة فى النظرات، ويكون القمر الأول قد اختفى نهائيا، ويكون القمر الثانى قد لاذ بالصمت، طالبا منك فى همس شائك أن تعود لأن الفجر على الأبواب..

لكن ترفض

ذلك انك تخشى أن ترجع إلى بيتك تنام فلا تقوم، وإن قمت فقد لا يتكرر ذلك التنميل الدماغى مرة أخرى، وإن تكرر فقد يظل دماغك سادرا عند حفظ نشيد الصباح وجدول الضرب يا صاحبى..

١١

ليلة لامؤاخذة جميلة

والليلة مبتدأ - ان كنت لاتزال تتذكر ما حاق بك فى المدرسة، وجميلة خبر، أما (لامؤاخذة) فهى - لمؤخذة - تعبير استنكارى يستخدمه أولاد البلد - فى مصر بالذات، ويعنى لا تؤاخذنى ان أخطأت، واعذرنى ان أخطأت ثم - لا مؤاخذة - هى اداة تنبيه لاحتمال أن تسرح بمخك بعيدا عن هذه الليلة الجميلة فتسوخ أقدامك فى ليلة جميلة أخرى، ومادمنا اتفقنا على المعنى يصبح لزاما عليك أن تعرف أن هذه الليلة - المشار اليها جاءت بالنسبة لى متأخرة عن موعدها اثنين وثلاثين عاما، أى جاءت بعد أن اقتحمت دائرة الخمسين بنجاح ساحق، وبعد أن أهلكت أكثر من ستمائة شهر من أجود الشهور الافرنجية والهجرية، أى بعد أن أهلك عددا لابأس به من الأصدقاء والوزراء والأحلام والملوك والمدرسين والقصص والمساكن والقصائد، وبعد أن أنجبت أربعة أبناء وثلاثة كتب وخمس قضايا (ثلاث منها ضرائب واثنتان اعتداء على الرؤساء بأدوات غير حادة) مع الحصول على وسام الفنون والعلوم والآداب من الطبقة الأولى، أى بعد أن اكتملت خبرة ورغبة واحساسا غامرا بالواجب وحب الوطن.

جاءت تلك الليلة - لامؤاخذة - الجميلة.

كان الأصدقاء - الذين أثق فى جزء كبير من اخلاصهم - قد نقلوا الى اعجاب للممثلة الفاتنة بى، أقصد بكتاباتى وقصص وتصرفاتى الهوجاء التى أطاحت ذات مرة - لا مؤاخذة - بشاعر تقليدى عمودى (أصبح بعد ذلك وزيرا) فى ندوة عامة من فوق مقعده، ثم وصل اعجاب الممثلة الفاتنة - التى أكن لها كل تقدير - الى الذروة حينما استطعت أن أمسح بمذيع تليفزيونى الأرض فى برنامج معروف، ثم زاد الأمر وهجا أن بعض الأصدقاء - الذين أثق فى جزء كبير من اخلاصهم - نقلوا عنى - دون أن أعرف - أننى لست الشخص الذى يستجيب لدعوة ممثلة فاتنة مثلها، لماذا؟؟ لا أعرف، بالتالى فقد جاءت دعوة الممثلة الجميلة

الفاتنة للقائها ملفوفة (الدعوة بالطبع) برغبتها في ان تقوم بالدور الأول في واحدة من قصصي، ليست ملفوفة فقط ـ الدعوة ـ بل ومختصرة في سيارة ذات طراز غامض بارز الأفخاذ ـ السيارة ـ زنجية الأنف غليظة العيون، تنتظرني اسفل بيتي، وقد وقف بجوار مقدمتها سائق شامخ أنيق (تمنيت لحظتها ان يحدث ذلك في قريتي ـ وأن تخرج قريتي عن بكرة ابيها لتراني في هذا الوضع الفاخر)، ذلك السائق الذي كان قد هرع الى الباب ليفتحه لي، وعندما راني وقد ارتديت جلبابي الأثير اضطرب وبدا أن يديه اصيبتا بشلل، فترك باب السيارة مفتوحا وابتعد.

نعم كنت قد ارتديت جلبابي البلدي الذي يسبغ على شخصي فخامة واناقة وبساطة وتواضعا وحبا للوطن، ورايت الا اقف كثيرا امام الاضطراب الذي اربك السائق الأنيق، كما لم اطالب بحقي ـ ليس في فتح الباب فقط بل والانحناء الضروري، لامؤاخذة: نصف انحناءة تكفي، اثناء دخولي السيارة الفخيمة، فقد كنت انا الآخر مضطربا، والسيارة مضطربة، والشارع مضطربا، فطلبت من الله الستر.

وبعد ان هدأت انفاس الثلاثة ـ أنا والسيارة والسائق، وبعد أن استوت السيارة على الطريق وبدأت تأخذ الاتجاه المناسب للأمل المناسب، سألت الساق في همس له كبرياء:

ـــ المدام وحدها؟؟

فأجابني ـ وهو يناظرني ويراقبني في مراة السيارة، اجابني بتحريك شفتيه الغليظتين ليندفع قدر محسوس من الحروف لم اكن مستعدا ان اعيد ترتيبه لكي اعرف ما الذي قاله، قلت المهم ان يعرف هذا السائق المتمرد انه يحمل في جوف سيارته خلاصة الثقافة العربية التي لا يأتيها الاضطراب من الأمام او من الخلف فأردفت انا في هدوء واثق:

ـــ على هناك؟؟

لم يسألني من هو (علي) هذا، هو الحجار، أو علي بدرخان او علي مستجاب او علي الزيبق، انما عاد السائق ينظر الى في المراة التي امامه ثم تمتم بما لايمكن لأحد أن يعرفه او يدركه بالمرة، فقررت أن ارميه بآخر سهم في الجعبة، حيث ـ في اتزان وتمهل ـ اشعلت سيجارة وأرحت جسدي الى الخلف واعتبرت نفسي جالسا على الدكة (الأريكة) في شارع قريتنا هناك في ديروط الشريف، كما اعتبرت نفسي ـ أيضا ـ فاهما ما يقوله السائق المتكبر، وأن ما قاله هو ما أريده على وجه التحديد.

بعد الف عام أو يزيد، وبعد أن قطعت السيارة أحياء القاهرة العتيدة، ودارت حول

ميادين ونافورات واشارات وقطارات، اندفعت الى شارع جميل ملئ بالخضرة من تلك الشوارع التي وردت كثيرا في مذكرات ليلة ثورة ١٩٥٢، ثم لم تلبث السيارة أن هدأت، وارتاحت وانفتح بابها تلقائيا، خرجت انا الى الهواء في الوقت الذي كان السائق قد وقف امام باب حديدي صغير وضغط على زرار علوي، وسمعته وهو ينطق كلاما واضحا، وعاد الى الخلف لينفتح الباب، فأيقنت أن السائق استخدم عينا تليفزيونية من تلك العيون الغامضة التي رأيتها في مسلسلات جي.ار، او شيء من هذا القبيل، حيث انتهى الأمر بصعودي عدة درجات لينفتح باب باب، بيد واحدة مبتسمة ذات ملامح جنوب أسيوية، حيث واجهتني قاعة فسيحة ـ كل حوائطها مغطاة بالستائر، وفي آخر القاعة كانت هي..

ممثلتي

وفاتنتي

تلك التي تحركت مبتسمة مرحبة، ووجهها المعروف الأنيق المتألق قد تحرك نحوي، لتمتد يداها ـ كلتا يديها ـ هاشة باشة لتصافحني، وتشير في بساطة مذهلة: اتفضل، فتفضلت جالسا في مقعد وثير، وبدأت عيوني تتثعلب حول جسدها الفاتن، يا رحمن يارحيم، اللهم امنحنا الفلاح والقدرة يارب، وكنت سعيدا.

من اللحظة الأولى ايقنت أن ممثلتي ـ ومضيفتي ـ لا تضع اية مساحيق على وجهها، وكان ذلك له اهمية بالنسبة لقوم يرجعون كل جمال في السينما للمكياج، حتى أن بعض الذين التقوا بممثلات جميلات في أوضاع عادية غير سينمائية، كانوا يتعمدون أن ينالوا من هذا الجمال المصنوع، لكن الأمر الآن ـ وبالنسبة لي، وبالنسبة لها، كان واضحا فهي جميلة جميلة جمالا اخاذا، طبيعيا، دون اية مساحيق، واعتبرت ذلك من حظي، فاشتعلت رجولتي حتى كدت اربت على كتفي نفسي بالتهنئة العاطرة، وهززت جسدي وكأنني أطرد من فوق الكاهل بيتا من زوجة وأم وأربعة أبناء..

وعندما جلست فاتنتي (سوف أردد فاتنتي من الآن حتى نهاية المقال) في المقعد المقابل، انت لاتزال تبتسم، وكأنها تمضغ اخر حكايات الرفاق عني، وهي حكايات تشرف أي رجل في الشرق ومن العرب ومن مصر ومن ديروط الشريف بالذات.

ـــ فينك؟؟

وترجمة ذلك: فين انت، اي: اين انت لا تبسم في هدوء واهمس بكلام مناسب خرج محطما مجروشا وكأنه منطوق من فم السائق، وقالت كلاما كثيرا عن سعادتها القصوى

لانها قرأت لى، وتكلمت عن قصص كثيرة معظمها لا اعرف من هو صاحبه، لكنها كانت تتكلم وعيونها الجميلة مفتوحة ومتألقة ترمش بين كل مقطع واخر وكأننا نعرف بعضنا منذ سبع ليال على الأقل، كانت - فاتنتي - ترتدى بلوزة بيضاء نصف كم بسيطة وكأنها قميص بتاع عيل فى سنة أولى ثانوى، وبنطلون كاروهات تناثرت مربعاته حول مضايق اكتناز المضمون، وأشارت الى شىء غامض وراء ستار القاعة بأصابعها، ثم عرجت (عرجت يعنى مالت الى موضوع جديد فى الكلام - وليس العرج الذى قد يتبادر الى ذهنك الشرير)، عرجت الى الكلام عن الأصدقاء، الذين منهم بعض من اعرفهم، والذين عرفت منها أن بعضهم قادم ليشاركنا ليلتنا - لا مؤاخذة - الجميلة، والتى بدأ أريجها العطر يملأ جو العمر وطقس العمر وفراغ العمر أيضا.

وجاء الرجل الغامض من وراء الستائر الغامضة وقد ارتدى تلك الأزياء التى نراها فى السينما والمسدلة على الجسد يحاصرها حزام أحمر، انه الخادم، وبين يديه صينية عليها عدة الشاى، وعيونه البرمائية التى تشبه عيون الضفادع مصوبة نحوى.

ـــ بدون سكر لو سمحت..

وامتدت يدها بكوب الشاى من غير سكر، لماذا من غير سكر؟؟ وأخرجت من الجيب السكر الصناعى الموصوف للمصابين بالسكر، وبأناملها الأنيقة ـــ والسمينة ـــ أيضا وضعت السكر الصناعى فى الكوب، وظلت تبتسم لكنها كانت تمعن فى وجهى، كانت تزداد جمالا، وتمنيت نية صادقة مخلصة الا يأتى احد من الرفاق، اى جو مشبع بالأمنيات الساخنة دون هؤلاء الاصدقاء ذوى الضجيج، وعندما مدت يدها الرقيقة الى التليفون كدت اطلب منها الا تتصل بأحد، فلم يكن يليق بجو مثل هذا الجو، ومكان مثل هذا المكان، وفاتنة مثل هذه الفاتنة، وحلم مثل هذا الحلم، ان تتم مداهمته بالآخرين حتى لو كانوا من الاعزاء، وضربت الرقم وسرحت بعيونها التى خلبت لبى - ولب كل من رآها - فى السقف، ثم أعادت السماعة، وقالت فى بساطة الذين يتمنون تنفيذ كل الأمنيات: ان كنت أحب تناول بعض المشروبات قبل الأكل؟؟ وماذا احب غير ذلك يا قاتلتى؟؟، وقبل ان ابدى الموافقة المناسبة، أشارت الى الستائر الغامضة امرة وهى تبتسم فى حلاوة ليس من السهل رصدها بالكتابة، واستأذنت منى وقامت حيث اختفت فى آخر القاعة، فبدأت أعيد ترتيب أفكارى كى تخرج مرنة هادئة خبيثة واضحة.

لما عادت فاتنتى كنت قد قررت أن التهمها التهاما كاملا، دعك من الوسائل الرومانسية

التى انتجت فى النفس ندما تاريخيا ممتدا بطول سنوات العمر، الصداقة العقلية، والغرام القلبى، والحب الشعرى، يملأون ساحة التاريخ بما لاداعى للزيادة فيها، اننى أتحقق الآن وليس من الحكمة التفلسف، وبعد لحظات عادت فاتنتى يسبقها أريج نافذ وقد ارتدت هذه الغلالة الهفهافة القادرة على إشعال نيران العالم، وجاء خلفها هذا الرجل السينمائى الذى انحنى امامى بكوب (فيه حاجة صفرة)، اعوذ بالله، تمنيت لو ان مصورا بالكاميرا او بالفيديو يكون موجودا ليسجل للتاريخ اجمل مايفخر به التاريخ، وعبثت يداى فى جيوب جلبابى الأثير الجميل، سألتنى ضاحك عما اريد، قلت فى حرج صغير نسيت البريندين، وما هو البريندين؟؟ حبوب تخفيض الضغط، اشارت الفاتنة الى الستائر الغامضة فجاءت الغلامة - اى البنت التى تشبه الغلام - ذات الملامح الآسيوية الجنوبية وانحنت لكى اصدر اليها تعليماتى، ليست حبوب تخفيض الضغط فقط بل واليوروسلفين فوار لإذابة الأملاح، وحبوب النو - يورك التى تمنع تكوين الاحماض الامينية اتقاء النقرس، وحبوب السيتجروين لتحسين الدورة الدموية، وظللت ارصد انواع البرشام والحبوب والفوارات التى تحافظ على لياقتى المناسبة، ومددت يدى بالورقة الى الغلامة الآسيوية، كى تحضرها من أقرب صيدلية، وعندما وضعت القلب بجوار التليفون، كانت الفاتنة قد وقفت صامتة ساكنة وهى مفتوحة العيون، ثم لم تلبث ان قالت بصوت واضح: ان لم يحضر جميع الأصدقاء، فهى تفضل أن نتناول ما نريده فى مطعم من مطاعم الفنادق او الكازينوهات أو الملاهى، كانت قد اشعلت سيجارتها، وعلقت نصف ابتسامة فى شفتيها، وقالت وهى تجلس على مسند المقعد:

ـــ ايه اخبار كتاباتك؟؟

فبدأت احكى لها القصة العظيمة الجديدة التى تتناول حكاية جدى مستجاب الأول الذى ركب الجمل الخاص به وتوجه داخل الصحراء سبعة ايام اتضح انه قد تاه فى بطن الصحراء، وأنه بذلك سوف يعود من الحج بلا حج مما يغرى الأعداء بالسخرية منه، فنذر لله ان انجا من التيه ان ينبح جمله ويوزعه على المساكين، فإذا به بعد ساعات على حدود قريتنا التى خرج منها للحج منذ عشرة ايام، سألتنى - دون أن تبتسم: جميلة، وماذا سوف تسميها؟؟ لم اجب فقد كانت عيونى ممعنة فى وجهها المتألق، فظلت صامتة وعيونها تحدق فى السقف.

قالت الفاتنة: من رايى ان يكون عنوانها: الخيبة الكبرى، ودخلت لترتدى ملابس الخروج كى تبدأ الليلة - لامؤاخذة - الجميلة.

أول السيل ١٢ أنبوبة

بدات الحكاية بتركيب أنبوبة بوتاجاز، والتى تمثل إرهاقا للجميع مهما كانت رتبتك أو وظيفتك أو سطوتك، فلا بد أنك واجهت هذا الموقف: تحتاج إلى كوب شاى تفتح به شهيتك للصباح، لا توجد أنبوبة بوتاجاز، والاحتياطية؟ والاحتياطية أيضا فرغت أمس، وكثيرا ما لجأت زوجتى - بارك الله فيها على الأقل حتى انتهاء فترة الشتاء - إلى بوتاجازات الجيران أو بوابير الجاز أو بوابير الكحول، وكثيرا أيضا ما وقفت زوجتى فى الشرفة تستطلع مرور بتاع البوتاجاز والذى تظل تنادى عليه من الطابق الخامس فما يكاد يراها فى هذا العلو الشامخ حتى يتغاضى عن كل نداءاتها وتوسلاتها وتهديداتها التى تنتهى بتدخل اجنبى يؤدى إلى صعود بتاع أنابيب البوتاجاز مرغما، واكون انا خلال كل هذا الشد والجذب والحنق والغيظ قد كرهت حياتى من اولها لآخرها، واكون مهيا للعودة إلى عشة فى موقع بعيد اختصر فيه العالم ببوتاجازه ونسائه وصراخه، حتى أعمل بيدى كوبا من الشاى فوق نار خشب الصباح، دون زوجة وأنبوبة بوتاجاز، وبناء على قانون غامض ينص على ان معظم المشاكل تفرخ عند حلها مشاكل أخرى والقانون الآخر الذى يميل إلى ان احسن حل لبعض المشاكل الا يكون لها اى حل، فقد أفرخت الأنبوبة «دون أن يصعد بها عامل البوتاجاز» مشكلة جديدة، من الذى يتقن فك الأنبوبة الفارغة، ويتقن تركيب الأنبوبة الجديدة دون أن نتعرض لأخطار، كذلك الذى حدث منذ سنوات فى شقة عم الحاج حفنى، وادى إلى حريق فى المبنى كله لايزال رعبه كامنا فى تصرفاتنا حتى الآن؟!

ولما كنت كاتبا عاكفا على الكتابة الدائمة لتوريد المبالغ الدائمة للبيت فقد أعفتنى جهودى وظروفى من هذه المسألة والعيال عيال لايمكن ان نترك لهم مثل هذه الأمور التى تبدأ بتسريب غاز البوتاجاز وتنتهى بالانفجار أعوذ بالله.

ولما كانت زوجتى قاهرية عنيدة فقد أخذت على عاتقها حل هذه المعضلة الجديدة،

اشترت مفتاحا مناسبا «لاأعرف من اين حتى الآن» وتمرنت عدة مرات فى فك وتركيب انبوبة فارغة، لتضيف - عندما نجحت فى تركيب الأنبوبة الملآنة - جميلا آخر ومعروفا مرهقا يضاف إلى جمائلها التى تفخر بها فى أوقات الصراع الزوجى، حتى اننى كدت أحب زوجتى حبا جديدا لم يستخدم بعد.

وعندما تداهمنا هذه الظروف التى نحب فيها زوجاتنا تداهمنا فى نفس الوقت رغبة عارمة فى التفلسف، حيث نميل إلى الثرثرة تدميرا لما هو شائع من أن الفلاسفة فى حالة صمت وسكون وتأمل، «وإذن من أين جاءت كل هذه النظريات والكتب والصراعات الفكرية إذا كان الصمت قد لازم منشئيها؟؟ نعم أيها السادة: جاء الوقت «وزوجتى قد نجحت فى تركيب أول أنابيب البوتاجاز المليئة بالغاز» لكى تعرفوا أن الفلاسفة لم يكونوا صامتين يتأملون، أليسوا هم واضعى نظريات المنطق وعلم الكلام والقدرة على احتواء الكون ؟

وكانت زوجتى - فور انتهائها من الموضوع المشار إليه - قد تألقت أكثر فأحببتها أكثر، وكان الفرن - فرن البوتاجاز - قد اشتعل بطريقة مهيبة تذكرنى بنفس اللحظات التى داهمتنى بشعور دافق عند تشغيل محطة كهرباء السد العالى، فطلبت من زوجتى فى نشوة أن تتوج جهودها بأكلة كباب زائد سلاطة طحينة زائد شرائح الطماطم زائد قطعة محمرة من ورك العجل، ولكن الأمر انتهى عند شرائح الطماطم لخلو البيت من العناصر الأخرى، ومع ذلك لم يؤثر ذلك فى عنفوان سعادتى حيث نمت بعدها طويلا .

المفروض أن تنتهى المسألة عند هذا الحد الذى نجحت فيه زوجتى أن تتقن تركيب انبوبة البوتجاز فى الموقد أولا، ثم انبوبة أخرى فى السخان، وان اسعد باقتناء هذه الزوجة الكنز، والتى عوضتنى عن عجزى - أو رعبى - من تركيب حتى لمبة كهرباء.

فأنا يا أيها السادة لا أجيد شيئا فى أمور وقضايا الكهرباء والبوتجاز والتلفزيون والفيديوهات وحتى قدرتى على دق مسمار فى حائط اضمحلت وتلاشت.. ألست كاتبا!!

لكن الأمر بدأ يتدخل فى أمور أخرى، ونحن - مثلا - فى عز الاحتفاء بضيوف اعزاء تأتى بنت الجيران نعم.. طانط نادية - والتى هى زوجتى تأتى إلينا لتركيب أنبوبة البوتاجاز، مرة وتذهب المسألة لحالها، لكن المنزل الذى يحوى عشر شقق غير شقتى به ما يقرب من عشرين انبوبة بوتجاز «بين الموقد والسخان» وكل أنبوبة تنتهى فى الوقت غير المناسب، جرس الباب يدق فى الصباح المبكر: بعد اذنك عاوزين ابلة نادية - التى هى زوجتى - تركب لنا أنبوبة السخان، وبعد أن نسوى مسائل آخر المساء - أى عند بداية

سهرة التلفزيون - ثم وفى عز قيلولة الظهيرة، الجيران لبعضهم فهل نستطيع أن نمنع خدماتنا او مساعداتنا عن الجيران، ثم وفى الظهيرة وفى العصر وفى الصباح المبكر مرتين.. مرة من اجل بوتاجاز الحاج عبدالله ومرة من أجل سخان خالتى زينب، وفى البيت المجاور، نلك ان شهرة زوجتى طبقت الافاق وطافت - وليس فى شقق الجيران فقط - بل وفى العمارات المجاورة، ونالت زوجتى مجدا لم ينله الذى ابتكر البوتجاز وافرانه وسخاناته، لا يمر يوم - وفى اى وقت - دون أن يستنجد الشعب المقيم فى منطقتنا بزوجتى كى تركب لهم أنابيب البوتاجاز.

دعك الآن من فكرة الفلسفة والكتابة والتأمل وانظر إلى - إلى شخصى القوى الواثق - عند نزولى من السيارة فى الظهيرة كى اصعد إلى مسكنى، فسوف تجد واحدة من جيراننا تطلب منى ان اتكرم فابلغ زوجتى بانهم فى حاجة إليها فى شقة رقم ٧، ثم انظر إلى شخصى القوى الواثق عضو اتحاد الكتاب العرب عندما التقيت بواحد من جيراننا - فى العمارة المقابلة - قابلته فى الشارع فتبادلنا - بالأيدى - التحية والسلام، ولما كان جارنا يعمل محاميا فإننى بالطبع سألته عن احوال القضايا والناس، قال الحمدلله ثم قدمنى إلى صديق ثالث يقف بجواره، الاستاذ فلان زوج مدام نادية، ابتسم الرجل مسلما، فاكمل صديقنا المشترك التعريف قائلا: مدام نادية اللى بتركب أنابيب البوتاجاز.!!

فى نلك اليوم صعدت إلى شقتى مرهقا كان الغداء مجهزا حينما مررت على المائدة لاويا بوزى، صرخت فى زوجتى محتدا والقيت عليها يمين الطلاق وجلست فى الصالة محنقا، لكن جارى سمع صراخى وخبط على الباب، فتحت له الباب وأنا فى منتهى الغضب، وقال فى ادب جم: اعصابك يا أستاذ، حرام حبيبى ثم ضحك وطلب من زوجتى الباكية أن تتركنى لأهدأ، وتكون - فى هذا الوقت - قد قامت بتركيب أنبوبة السخان.!!

وظللت ممعنا فى جو الشقة الساكن فى هدوء يماثل هدوء وسكون وتأمل الفلاسفة.

يوم بنفسجى ١٣

المسألة فى يدك الآن وكى يبدأ يومك بنفسجيا - كما بدأ يومى - عليك الا تنتظر إلى وجه زوجتك، وإلا تتذكر شيئا من المليون عام الأولى التى مضت من حياتك، وحتى فردة الجورب المثقوبة ارتديتها فى هدوء دون الضجيج المعهود الذى يترتب عنه تغيير الجورب كله، كنت قد قررت أن اتفادى كل ما ينجم عنه اضطراب هرمونى أو قلق فى كرات الدم البيضاء إذ من حقى - بين حقبه واخرى - أن امتطى قارب سعادتى ولو كان مقلوبا، وقد ادى نلك إلى اختزال كوب شاى الصباح إلى رشفة حلوة وجميلة، وتقافزت على السلم سريعا (إكمالا لمنهج التجنب الذى بدأته منذ سطور) وبدأت المسائل تتوافق معى صاحب البيت الذى يعاملنى وكأنى مستعمر شقة هى فلذة كبده، نطق ليرد تحية صباح لم القها اصلا، وكان الرجل - صدقنى - بالغ الابتسام، كما ان الشارع كان واضح النظافة، فسرت فيه رائقا ودودا، وانفتحت شهيتى للطعام، ان اسباب فقدان الشهية فى الصباح ترجع إلى ثلاثة اسباب واضحة : التدخين والزوجة ورئيسك فى العمل، وكان رئيسى - رئيس التحرير - ثالث المنغصات قد ركب فوق رقبتى فى الشهور الأخيرة، فأنا - من وجهة نظره - نجار موضوعات، سأوضح لك ان اى موضوع صحفى يرى رئيس التحرير انه فى حاجة لان يصبح موضوعا يحيله إلىّ، فاقوم بالمنشار المشكل على هيئة قلم باعادة صياغة الموضوع مع رش شوية توابل على اجوانه، وبالطبع يحتاج الموضوع إلى مقدمة مشتعلة تلهب خيال القارئ، مع انى نادرا ما اصطدمت بقارئ ذى خيال ملتهب، ثم تكون النتيجة الراسخة التى لا نود ان تتغير فأنا - مع نلك - لا أرى اسمى فى كشوف الحوافز والمكافآت والمبالغ المتتالية التى تنصرف فى إيقاع جذاب الى الزملاء لماذا؟؟ لأن ثقافتى - والتى افاض رئيس التحرير كثيرا فى وصفها - مضطربة، واسلوبى مرتبك كما ان مصححى النحو يشكون من اخطائى اللغوية والمصورين يتهربون منى - مع انى لست

صاحب الموضوعات، وكنت اعلل النفس بأن اخضع لحكمة سارية ترددها امى من احقاب طويلة: انتظر على جار السوء حتى ترحل أو يرحل، ومع ذلك فكلانا - أنا ورئيس التحرير - لم نستطع الرحيل، فوقفت صفة جار السوء على راس كل واحد منا، ومساء امس تركزت كل انشطة سوء رئيس التحرير فوق دماغي، ابتداء من مقاله الذى يعتقد انه سوف يكسر الدنيا، وانتهاء بموضوعات الزملاء التى يعتقدون انها سوف تكسر الدنيا والآخرة معا، ولما كنت املك عقلا لايقل فى نصاعته وضرواته وانحرافه عن عقل رئيس التحرير، فقد قررت ان اقتطع هذا اليوم التاريخى من بين براثنه، وان ابعد عنه براثن زوجتى، وان اعتبر اليوم عيدا خاصا للاقلية التى لايمثلها احد سواى.

استبعدت بمجرد أن غادرت منطقة السكن الجلوس على المقهى، مع انى محترف لعب طاولة، وكوتشينة ودومينو (ضومنه احسن) واتجهت إلى الاجناب الراقية من البلد وهفت نفسى أن ادخل السينما، ولا السينما، لن اذهب لاجلس فى مكان مغلق مظلم ثلاث ساعات، كنت احس انى امارس حرية لم اعهدها من قبل، وهززت اكتافى كى انفض عنها اخر اعباء الاعداء: زوجتى ورئيس التحرير، كما انى رايت الا ادخن، وكانت المدينة قد ابتسمت لى فاتحة ذراعيها واحسست بالود والراحة، وما رايك فى حديقة الحيوان؟ بالطبع فيها ما يسلى، وما يسعد لكنى اخشى ان اخدش مزاجي الرائق بصخب الاقوام الذين يذهبون إليها فى فرح وفوضى وسعادة، وفى مثل هذا التألق والاشعاع والرضا، ساعدت كهلا فى عبور الشارع والقيت تحية الصباح على رجل لا اعرفه، وعبرت الكوبرى الطويل فى هدوء مستمتعا بالنسيم (كان فيه قليل من البرودة) وعرجت على أول شارع بعد الكوبرى والذى تقع على شاطئه المنطقة الارستقراطية الهادئة، كان واضحا اننى تفاديت كل الشوارع التى قد تؤدى إلى المنطقة التى تقع فيها المؤسسة والتى على راسها رئيس التحرير ذو الوجه الغاضب دائما فى وجهى وتلكات قليلا على كورنيش النهر، ونفضت رئيس التحرير من دماغي مرتين فى اهتزازات حاسمة، وظللت فترة أمعن فى المبانى، لها اشكالها المختلفة لكن لكل مبنى شخصية مستقلة، كان ظهرى إلى النهر ووجهى إلى المبانى التى تحوطها أشجار منمقة، وبدأت اتفحص اشكال الشبابيك والنوافذ العليا، وساريات التليفزيونات وبعض اشخاص يجلسون فى هدوء فى الشرفات، ليتنى امتلك شقة هنا ، ثم لم يلبث أن تقدم منى احد العابرين وواجهنى وفى يده سيجارة ممكن تولع لى؟ أعرف متى نتخلص نحن الشرقيين من هذه العادة الذميمة، فى أوروبا لا

يفعلون ذلك، وبحثت فى جيوبى عن علبة كبريت، فاكتشفت خلو الجيوب من الكبريت والسجاير ايضا، اخرجت يدى فاضية واعتذرت له، نسيت السجاير والكبريت فى البيت لكنه كان قد اقترب اكثر مما تسمح به ظروف توليع سيجارة، وكانت السيجارة قد انتقلت من فمه إلى يده وهو يكاد يحتضننى حتى انى تراجعت للخلف، همس فى هدوء: الأستاذ بيشتغل ايه؟؟ قلت بصوت شابته العصبية: صحفى؟؟ رفع عيونه وهمس فى سخرية صحفي؟؟؟ لكن هذه المنطقة لا صحف فيها، داهمتنى رغبة فى وقفه عند حده: وهل الصحفيون يمشون فى مناطق الصحف؟ قال بصوت اكثر ضيقا: ممكن بطاقتك الشخصية؟؟ بالطبع، وبحثت عن البطاقة الشخصية، أو.. لكنى توقفت وصحت فيه: أنت مين علشان.. وقبل أن اكمل اخرج الرجل من جيبه بطاقة ذات صورة ملونة تمثله وقد ارتدى زى ضباط الشرطة المرصع بنجومهم وشار النسر المذهبة قد اعتلت بطاقته المهيبة فاكملت البحث فى جيوبى : كارنيه النقابة؟؟ ولا كارنيه النقابة، بطاقة المؤسسة؟ ولا بطاقة المؤسسة، كارنيه اشتراك ركوب السيارات أو القطارات أو الطيارات أو الصواريخ أو المراكب؟ ولا كارنيه اشتراك الركوب، قلت له اننى صحفى والنقابة سوف تقلب الدنيا إذا ما حاولت أن.. بلاش وجع دماغ، وهل النقابة - قالها فى سخرية - قالت لك أن تتلكأ أمام بيوت الناس وتفحص النوافذ والأبواب والجدران؟ كانت ذراعه القوية قد التفت حول ذراعى، وبمجرد أن اصبحت كلى طوع ذراعيه جاءت سيارة بيضاء لا يمكن لك أن تفرزها من بين مثيلاتها، ونزل اثنان حيث دفعانى دفعا إلى السيارة، والمكان قد خلا من كل الكائنات عدا البيوت الصامتة والمياه الجارية.

اخر ذلك النهار - قبل المغرب - جاء رئيس التحرير جاء بنفسه وبكرشه الضخم وعيونه ذات الخرز المتاجج، ووقع على محضر استلامى، وحيا الشرطة الذين هم فى خدمة الشعب، ودفعنى دفعا كى اسير امامه، لكنى لم استطع السير، بل انحنيت أمامه، فتسلقنى بجسده الضخم وامرنى أن اتوجه به إلى المؤسسة لاعنا يومى الأسود، نظرت إليه من تحته ونبهته أن اليوم بنفسيجى، فضحك فى مرح وضيق وسعادة وقرصنى فى اننى طالبا منى أن اسرع، وأسرعت بهذا الوضع الذى لا يتيح لى رؤية وجه زوجتى أو وجه رئيس التحرير .

١٤ مدير عام الشك والإرتياب والبخل والإبتسام الأصفر

لو كان الزميل تشيكوف يعيش حتى الآن لما أفلت منه نموذج الأستاذ عبدالعال إبراهيم الذى كان مديرا لمجمع اللغة العربية، يرأسه فى السلطة الأعلى رئيس المجمع ونائبه وأمينه العام، وهو يرأس فى السلم المتدرج كل العاملين فى المجمع من كافة أنواع الدرجات والتخصصات والأنشطة والوظائف، فى واقع الأمر: هو مجمع اللغة العربية بغض النظر عن أن رئيس المجمع هو الرمز وهو الأعلى والأهم.

كان الأستاذ عبدالعال إبراهيم بخيلا، جميل هذه صفة تخصه، فقد كان غيره بخيلا، وكان قليل الكلام، جميل ومن الذى يرغب فى مدير كثير الكلام؟ وكان شكاكا؟ أى يتوقف وينظر فى وريقة بها أجر مواصلات زهيد لأحد العمال مقابل توصيل محضر الجلسة للأعضاء، ويظل ينظر فى الوريقة وكأنه اكتشف خاصية إشعاع الكويالت أيام دخول زحل فى مجال القمر، ثم ينظر للعامل بعد الورقة والعامل - يا عينى - ينتفض فى حضرة المدير العام. ثم يبخل على العامل بسؤاله عن هذا المشوار الذى استحق عليه كل هذه الملاليم مجرد ينظر فى الورقة وفى العامل المنتفض. ثم يأمر العامل أن يتركها لماذا؟؟ أليس من حقه كمدير عام أن يراجعها ويخرج العامل وهو يسير إلى الخلف مرعوبا - ربما - أو شديد الغضب على اليوم الذى جعله يحتاج لتوقيع الأستاذ عبدالعال إبراهيم.

كل هذا من حقه وأكثر من ذلك له الحق فيه أن يأمر بإغلاق المروحة فى جو أغسطس الخانق كى لا يتأذى منها، وكأن لف المروحة ليصبح تيارها بعيدا عنه لا يكفى أن يكون خطه سيئا جدا وحروفه متداخلة عمياء فاقدة الإحساس الجمالى «لا تنس أنه مدير مجمع اللغة العربية» أو أن يظل ممعنا فى وجهك وأنت تشرح المسألة الإدارية التى تتطلب تدخله. ثم تكتشف أنه لم يفهم شيئا وأن يظل فى المكتب ساعات بعد انتهاء مواعيد العمل الرسمية «لانهاء أعمال وهمية أو لعدم انتباهه لانتهاء المواعيد أو لأن جو المكتب المقبض أكثر رحابة من جو البيت الذى لم يره أحد منا» أو أن يلمح على مكتبى كتابا فيخجل من سؤالى عن الكتاب، فيقوم بسؤال شخص آخر لا يدرى عن الكتاب شيئا.

كل هذه من حقه ولا يوجد من يمكنه أن يناقشه فيه.

حتى ظهرت أهمية درج الأستاذ عبدالعال!!

١ - كان السادات قد نجح فى التخلص من أنصار عبدالناصر، وهو يعلن فى نفس الوقت أنه شخصيا أفضل أنصار عبدالناصر، وخرجنا من حرب١٩٧٣ لاتسعنا الدنيا من الانتصارات المفرحة، وبدأت المعونة الأمريكية تسبقها أفيشات ومانشيتات الجرائد تعلن عن أهميتها، مع استخدام تعبيرات ذات إيحاء واضح تأخذ على عبدالناصر عدم كياسته فى استمرار الحصول عليها مع التنبيه لكياسة العصر الجديد، وجاءنا خطاب من وزارة الثقافة التى كنا نتبعها شكليا أيامها، يطلب منا - أى من مجمع اللغة العربية - تحديد مطلوباته فى حدود عشرين ألف دولار من مصنوعات أو منتجات أميريكية، وقام المراقب العام الأستاذ محمد حامد يرحمه الله بتحويل الخطاب إلى حيث كنت مشرفا على اجراءات تشييد المبنى الجديد للمجمع بالزمالك، وبعد مناقشة المسئولين فى وزارة الثقافة والمسئولين بمجمع اللغة العربية أشار الدكتور إبراهيم مدكور رئيس المجمع أن أحسن طريقة لاستخدام هذا المبلغ هو شراء مطبعة وتركيبها بالمبنى الجديد.

٢- كان مجمع اللغة العربية - ولايزال - يعانى من طبع كتبه ومعاجمه فى مطابع المؤسسات الحكومية والقطاع العام، ذلك أن كثيرا من المطابع - خلال تطورها - هجرت التشكيل المرسوم على الحرف، وفى لغة كالعربية يتداخل ويتشابه رسم حروف بعض كلماتها مما يحدث لبسا فى نطقها وفى فهمها بعد ذلك، نجد لزاما علينا أن نعود لتشكيل الحروف لنفى التشابه واللبس تأكيدا للمقصود مثل السكر- والسكر الشدة المفتوحة فوق الكلمة الأولى تجعلها المنتج النباتى الحلو المذاق، أو تعنى المرض الشائع فى حين أن السكر - بتسكين الكاف - ينصرف معناها إلى الحالة المعروفة التى تنتاب الثمل السكران، الحلم فى حالة ضم حائها تعنى رؤيا المنام، ويكسر الحاء تعنى الصبر وطول البال وعدم الغضب مع التعفف والصفح، السمك كمخلوق مائى، والسمك بقصد التعبير عن مدى التخانة، الجزر والجزر، واحدة للنبات المعروف الذى تؤكل سوقه، والثانية للحركة المقابلة للمد فى مياه البحار، الحب والحب، واحدة للقلب والثانية للدقيق، الحمار والحمار والحمار: للركوب ولاسم لون «مثل البياض» ولسائق الحمار عند تشديد الميم، وغيرها من كلمات يساعد السياق فى فهمها، لكنها فى المعاجم تحتاج إلى ضبط وتشكيل، ولا سيما فى المصطلحات التى تنزع عادة من السياق بغية التعريف بها.

ولذا فقد ظلت أمنية مجمع اللغة العربية أن يكون له مطبعة خاصة يهيمن عليها ويطوعها

لأغراضه بدلا من هذا الارهاق الذى ينتاب الزملاء خلال مراجعتهم لتجارب الطباعة، وما يترتب على ذلك من توتر مع مع أصحاب المطابع الذين يجنحون إلى السرعة وإلى تطويع مطابعهم لما يدر ربحا أكثر وجهدا أقل.

٣ ـ كان دورى أن أتصل بأصحاب دور الطباعة المتقدمة والقديمة، كى أستطلع آرائهم حول المطبعة المطلوبة، وبعد جولة طويلة فى هذا المجال، استطعت أن أحدد مطلب المجمع فى مطبعة متقدمة لكنها تخدمنا فى التشكيل الظاهر للحروف، وذلك لأن التشكيل العصرى ـ أن وجد ـ يكون دقيقا قد لا تلحظه العيون العادية بالشكل المراد، وعرفت أن هذه المطبعة هى خط طباعة كامل.. طبع وقص وتغليف أو تجليد، وأحسن مصدر له ليس أمريكا بل أحد أقطار أوروبا الغربية.

وبعد مناقشات مع مسئولى التمويل فى وزارة الثقافة، ومع أهمية الحصول على هذه المطبعة «خط الطباعة» قمت فورا بمخاطبة المكتب الاستشارى الذى صمم المبنى الجديد للمجمع، والقائم ببناؤه حينذاك. بتجهيز موقع بالمبنى للمطبعة، وقد تجاوب معى مهندسو المكتب وعدلوا فى تكوينات البدروم «الدور تحت الأرض» ثم تم التفاهم مع وزارة الثقافة للحصول على المطبعة المناسبة من مصدر غير أمريكى، على أن يقوموا بتمويله من معونة غير أمريكية، من تلك المعونات التى تتافست بعض الدول الأوروبية فى إعلان تقديمها لمصر، فى أول سنوات خروجها من الحقبة الناصرية، ولم نعد نسمع عنها شيئا بعد ذلك. المهم جهزنا الورق، وأرفقنا به كتالوج المطبعة «وقد حصلنا عليه بصعوبة» وتوجهنا إلى مكتب المدير العام الخاص بمجمعنا الموقر، لاعتماده تمهيدا لتسليمه للجهة المسئولة والوقت لايزال لصالحنا ثلاثة أشهر أهلكنا منها شهرا ونصفا وبقى شهر ونصف.

ونظر الأستاذ عبدالعال إبراهيم ـ مدير عموم المجمع ـ فى وجهى طويلا «مستريبا» ثم فى الورق دون أن يتناوله ظل كلانا ممعنا فى وجه الآخر حتى اضطررت أنا ـ رجاء تسكين الباء ـ فأنزلت الورق ووضعته على مكتب سيادته دون أن أتركه، وأوضحت له ما كنت أوضحه عن هذا الموضوع وهذا المشروع خلال الأحقاب الماضية التى قاربت الخمسة والأربعين يوما.

٤ ـ وأخيرا ابتسم وكان إذا ابتسم الأستاذ عبدالعال يحرك شفته الرفيعة الأولى قليلا حتى تتيح لشفته السفلى ـ الرفيعة أيضا ـ قدرة الانفراج، وعندما يصل التوتر بين الشفتين الرفيعتين مداه يكون عليك أن تفهم أنه يبتسم، فتبتسم، وفور أن ابتسمت مد يده إلى الورق وسحبه ونظر فيه: الورقة الأولى مذكرة مؤشر عليه من الدكتور إبراهيم مدكور رئيس المجمع بالموافقة على استعمال المعونة الأمريكية، ومذكرة أخرى، أيضا من رئيس المجمع يوافق على استبدال المعونة الأمريكية بأموال معونة أخرى، والخطاب الوارد من الثقافة بتخصيص مبلغ عشرين ألف دولار لمجمع اللغة العربية، وخطاب من وزارة التخطيط بالموافقة على تمويل

المشروع، وخطاب من العفريت الأحمر للعفريت الأزرق أى: ملف كامل للموضوع وعلى سيادته أن يوقع على الخطاب الموجه للثقافة بالشكل النهائى لاستخدام المعونة فى مطبعة ذات صفات خاصة ومرفق كتالوج للمطبعة المطلوبة.

لو كان الأستاذ عبدالعال إبراهيم سمع للمرة الأولى عن الموضوع فمن حقه أن يطلع على الأوراق اطلاعا دقيقا، لكن الفترة السابقة كلها احتاجت لتوقيعه مرات، مع قص الحكاية من أولها مرات.

ذلك أنه وفور ثبوت الابتسامة على وجهه طلب منى أن أترك الورق له، وبالطبع تركته.

يوم . اثنان . ثلاثة. ثم أخبرت المراقب العام «المرحوم محمد حامد» الذى خاطبه فى الموضوع ثم ذهب إليه فى مكتبه مع أن محمد حامد أقوى فى الشخصية والمرونة منه، وفى الأسبوع الثانى الأستاذ عبدالعال وحين أشار السيد الرئيس للعامل أن ينادى الأستاذ عبدالعال، هرع السيد المدير العام ليسمع كلاما أمرا أن يوقع على أوراق خط الطباعة وأن يرسله إلى وزارة الثقافة فورا، وخرج الأستاذ عبدالعال من مكتب الرئيس وهو يقطر عرقا.

لم يكن من اللائق أن أتبع المدير العام إلى حجرته فى هذه الساعة المتوترة، لكنى توقعت أن يأمر بأن أمثل ـ مع تسكين الميم وضم التاء ـ أمثل فى مكتبه ليلقى إلىّ بالتعليمات المناسبة مع تسليمى الأوراق معتمدة وانتظرت.

وبدأنا ندخل فى الأسبوع الأخير، وكان واضحا أننى ـوكنت أيامها الأصغر ـ بدأت أفقد حماسى، فرفضت أن أسأل عن الورق أو حتى أذكر به أحدا، لكنى لم أستطع فتوجهت إليه طالبا ملف خط الطباعة لم يكن يهمنى ألا يوقع عليه، فهناك من يستطيع أن يحل محله، كنت أود الحصول على الملف إنقاذا للمشروع كله.

٥ ـ أخيرا ابتسم الأستاذ عبدالعال إبراهيم فى الساعة الحادية عشرة من ذلك اليوم للهيب، وبعد أن رحل تشيكوف عن عالمنا بعشرات السنين، تاركا نماذجه تملأ رواياته وقصصه حتى كاد يسلب الأرض كل نماذجها ، وبعد أن شرحنا موضوع خط الطباعة للأستاذ عبدالعال مرة أخرى استأذننى أن يكون الملف بين يدى صباح اليوم التالى.

ولم يحضر فى اليوم التالى إلى مكتبه رغم أنه كان عديم الغياب لأى سبب ولم يحضر فى اليوم الذى تلا التالى.

وعندما عاد كانت المدة قد انتهت فلم أهتم بالسؤال.

وتم نسيان الموضوع خرج عبدالعال إلى المعاش، وتم بناء المبنى وانتقلنا إليه.

ولا تزال مساحة معينة بطابقه السفلى فارغة، كانت فى الأصل موقعا لمطبعة.. ولم يتسن للمجمع اللغوى أن يحصل على مطبعة خاصة حتى الآن.

وعفا الله عما سلف، ودخل الأمر كله فى طيات النسيان.

موسوعتنا للأرقام القياسية والظواهر المدهشة ١٥

لم يكن السيد جينز افضل منا، حتى ينشىء موسوعته الشهيرة التى طوت بين دفتيها الظواهر المدهشة، الأرقام القياسية المبهرة. صحيح اننى لا أعرف عن السيد جينز شيئا بالمرة، البلد والجنسية وكم مرة تزوج وما عدد ابنائه، وكيف لطشته هذه الفكرة الخطيرة الجميلة، وصحيح اننى هممت اكثر من مرة ان ابحث عن معلومات عنه فى الموسوعات التى هى عدة كاتب مثلى، لكنى - وفى كل مرة - كنت انسى، حتى اننى ضربت رقما قياسيا فى نسيان الاطلاع على هذا الموضوع، ويرجع الأمر - أمر هذا النسيان - فيما ازعم إلى ان السيد جينز نادرا ما يرصد حالة قياسية او ظاهرة مدهشة خارج بلاد الغرب، او مما يحدث فى اقطار العرب، او فى مصر، او فى قرية او قبيلة او عائلة آل مستجاب التى انتمى إليها بلا فخر - وبكل فخر، حتى ان هذا الفخر - فى حد ذاته يدعو للعجب العجاب، والذى سيظل يلد ويتوالد حتى يغطى كافة موسوعات العجب بلا منافس.

ولقد هممت مرارا ان انشىء موسوعة مماثلة ، تقتصر على ما حققناه من ارقام قياسية لم يبلغها احد، وعلى ظواهر عجيبة لم تحدث إلا عندنا، لكن بعض الأصدقاء نبهنى إلى انه من السهل تحويل هذه الموسوعة إلى سلاح ضدى، تكون اسباب دعواها ما ضمنتها إياه، وتكون حيثيات الحكم ايضا فى نفس الوقت، وسألتهم وهل سأفضح بلدى، واكشف سوءات وطنى ، واطعن فى تاريخ قبيلتى وفى سيرتها، وفى مسيرتها، وفى الهدف الذى تسعى إليه بكل فخر؟

ومع ذلك سيبقى هامش يمكن ان تتحمله موسوعتنا المشار إليها ونستطيع ان نطن فيه ان: المثل الراحل بشارة واكيم الذى تخصص فى تمثيل الشخصية الشامية «السورية - اللبنانية» فى الأفلام المصرية، لم يكن - على غير ما يعتقد الجمهور - من الشام، بل كان مصريا خالصا من شبرا احد احياء شمال القاهرة أسامة أنور عكاشة. ذو الشهرة التليفزيونية الواسعة: ظل يكتب القصة القصيرة طوال الستينيات، وحاز جوائز من نادى القصة التى يمنحها تشجيعا للمبتدئين، ولم يحقق اى نجاح، لكنه فاق الجميع شهرة حين كتب مسلسلات للتليفزيون، ملك

السويد جوستاف قال فى خطبة تدشين نجيب محفوظ ليلة حفل تسليم ابنتيه جائزة نوبل بدلا من ابيهما: لقد تمنيت ان التقى بهذا الكاتب العظيم، وفى نفس الليلة قال نجيب محفوظ أثناء مشاهدته للحفل المنقول تليفزيونيا عندما سأله احد الصحفيين عن امنيته فى هذه اللحظة :

أتمنى الا أحرم من الذهاب صباح كل يوم إلى المقهى فى ميدان التحرير وسط القاهرة. وكل واحد له امنيات تليق به، ابن عمتى انور فراج كسب رهانا حول التهامه ٢كيلو حلاوة طحينية دون ان ينقل إلى المستشفى او يضطرب عنده الهضم عبدالظاهر احمد فضل الملقب بملك الكراكات الضخمة فى السد العالى، لتفوقه فى إصلاحها وإدارتها، نقل من أسوان إلى احد المستشفيات القاهرية عاملا على آلة كسح نفايات، وقد انتحر بعد ذلك - بالقاء نفسه من الدور التاسع بأحد الفنادق، إبراهيم بخيت فلاح من قريتنا اشترى بيتين متواليين وحفر فيهما فوجد صرة من الذهب، واشترى البيت الثالث فإنهار عليه دون ان يحفر فيه، وجدتى الحاجة نفيسة أم أمى مات عنها زوجها ومعها ثلاثة اطفال، فظلت ترتدى الأسود حزنا، أو وفاء، وظلت فى هذه الحالة حتى قاربت التسعين، ثم بدأت ترتدى الملابس الملونة الزاهية، وماتت فيها، اتحاد الكتاب فى مصر - الذى يرأسه ثروت اباظة - يرفض مساعدة او زيارة أى من اعضائه الذى يعتقلون على ذمة قضايا سياسية بدعوى أن الزيارة تغليب رأى على رأى، وانحياز لطرف ضد طرف، وهو ما يخالف الحياد الديمقراطى الذى يؤمن به، أمى - ذات عصر - اقتنت عنزة كبيرة ولودا، وكلما أنجبت جديان صغيرة تقوم بنطحها حتى تودى بها، مجمع اللغة العربية الذى قام على اكتاف أعضائه من خبراء اللغة العربية من ٦٠سنة والذين كانوا يمثلون الأغلبية بين الأعضاء بطبيعة عمله، أصبحت الأغلبية فيه الآن لأعضاء متخصصين فى العلوم الاجتماعية كالفلسفة والاجتماع والتربية ، ومتخصصين فى العلوم التجريبية كالكيمياء والطبيعة والأحياء والطب، وأصبح اللغويون الخلص أقلية واضحة بسبب العمل وطبيعة العصر، خالى عبدالحميد. وهو خال أمى - ظل يدور ويلف على قدميه لمدة ثلاثين عاما - او اكثر - فى مختلف بلاد القطر المصرى، من السلوم والاسكندرية والعريش شمالا حتى وادى حلفا جنوبا، ودون أن يستقل أى آلة تساعده ، عدا قوارب تعدية الأنهار. حبا فى أولياء الله الصالحين ، وزيارة لأبناء قريته فى الجيش والمعسكرات والمؤسسات والشركات الذين يكونون فى أى بلد يحل به، وقد كتب عنه صديق روائى قصة بعنوان: يعرف كل البلاد، لما أعلن سعيد باشا والى مصر فى القرن التاسع عشر انه سيدفع تعويضا لمن يطلق سراح عبيده ويحررهم: رفض عبيد أحد أثرياء الأقصر - جنوب مصر - أن يتركوا سيدهم، وأعتقد الرجل بأن رفضهم مغادرة خدمته والتمتع بالحرية راجع إلى وفائهم، فشعر بامتنان وسعادة قصوى، لكنه - بعد أيام قليلة - اكتشف أن السبب فى ذلك يرجع إلى كونهم لا يجيدون أى عمل: فلاحة أرض أو رعاية حدائق أو بيع

وشراء الفواكه او الملاحة فى نهر النيل، حينئذ غضب سيدهم وطردهم بالقوة فاجتمعوا عليه وقتلوه، وهو موضوع فاخر لرواية عظيمة سوف اكتبها فور الانتهاء من هذا المقال، احمد بهاء الدين الكاتب اللامع منحه الله الصحة وطول العمر، تولى رئاسة تحرير مجلة صباح الخير وعمره اقل من ٢٥عاما، إحسان عبدالقدوس نشر إولى قصصه وهو فى السادسة عشرة، ابوعواجه كان يعمل مع ابنه احمد فى السد العالى، وقد خرج ابنه إلى المعاش بواقع شهادة الميلاد، وظل ابوعواجة نفسه فى العمل سنوات بواقع التسنين من الطبيب المختص، معظم الكتاب الذين لم يعتقلوا - بالمرة - فى عصر عبدالناصر هم الذين عضدو السادات ضد عصر عبدالناصر، وتولوا قيادة الانتقاد لهذا الرجل العظيم حتى الآن.

لاعب الكرة الشهير فى الستينات رفعت الفناجيلى كان موظفا بعقد عمل على مشروع السد العالى فى اسوان، لكنه لم يشاهد السد العالى إلا بعد انتهائه حيث كان يقيم فى العاصمة، الكاتب المعروف محمد مستجاب. الذى هو انا - عمل سنوات عاملا يمسح البلاط فى معمل تحميض افلام سينمائية - وكاتبا عند احد المحامين. وكان مرشحا كى يكون لصا خطيرا او قاطع طريق لكن لظروف ساءت اكثر فاصبح كاتبا، إسماعيل بك كامل احد عتاة الاثرياء فى ديروط الشريف بوسط صعيد مصر، والذين قام عبدالناصر بالثورة ضدهم اصلا، هو الذى انشا منظمة التحرير الناصرية فى تلك البلد. ثم الاتحاد القومى. ثم تولى شئون الاتحاد الاشتراكى . ثم تولى امر الحزب الوطنى الحاكم. ثم ضاق بكل ذلك فأحال نفسه للاستيداع - او للمعاش - قبل ان يموت قبل سنوات قليلة، خالتى اميرة - ام عوف - فشلت فى أن تربى فى بيتها - فى الريف - اى نوع من البهائم كالبقر او الجاموس او الخراف، حيث كانت كلها تموت بعد اقتنائها بأسابيع، ولما هجرت هذا البيت إلى القاهرة، لم يستطع اهل هذا المنزل الجدد ان ينجحوا فى اقتناء اى حيوان او اية طيور حتى اليوم، ابن عمى الذى يعمل فى التربية والتعليم والذى تجاوز الخامسة والخمسين من عمره استطاع ان يبنى قصرا واسعا ذا الوان زاهية ويكتفى بأن يستمتع برش الماء امام هذا القصر، ثم يذهب إلى البيت القديم الضيق جدا والمتهالك لينام فيه، اى انه لم ينم مرة واحدة فى هذا القصر المنيف، إحدى قريباتى الموسرات فى القاهرة كانت بطلة للجمباز فى معهد التربية الرياضية بإشراف نفيسة الغمراوى، وجاءت صورتها - مرة - على غلاف مجلة «الجيل» وكان رئيس تحريرها أنيس منصور، والتى لم تستمر طويلا، وأصبحت قريبتى نجمة سياسية ايام منظمة الشباب، وتزوجت من احد الضباط وأنجبت بنتا. ثم سافرت لتكمل دراستها فى امريكا وحينئذ تزوجت من امريكى بعد ان دفعت زوجها - من بعيد - لطلاقها وبعد سنوات عادت النجمة القديمة إلى القاهرة كى تتولى تزويج ابنتها مع زوجها الامريكى وكأن شيئا لم يكن، الشاعر الشهير صلاح عبدالصبور والذى تحتفل مدينة منفلوط داسيوطه بمولده كل عام فى مهرجان ثقافى عارم، بصفته احد ابنائها، لم

يزر منفلوط مرة واحدة فى حياته، اخطر نشال يسرق الحبوب فى الاسكندرية فى الخمسينيات كانت كفاه بلا اصابع، سيد حافظ الذى تزعم جماعة مناوئة لاخيه: نجح فى إشعال النار فى وكر اخيه مما ادى إلى احتراق ابن اخيه - اعوذ بالله هجر بلدتنا وأقام فى اسوان وأنجب عيالا اشتعلت النار فى اكبرهم وقضت عليه بين الحادثتين عشرون عاما كاملة، واحد ثان من بلدنا خطف احد ابناء عائلة خصومه والقاه فى البئر - اعوذ بالله الاول - مهندس مبانى - بالصرع وسقط فى بركة ماء ليموت فيها وابنه الثانى - مهندس كهرباء - وقع فى نفس البئر والتى كانت مردومة بغطاء ترابى، اما الثالث فقد رحل ولم نعد نعرف عنه شيئا حتى الآن.

احد عتاة المجرمين المبكرين فى قريتنا كان «محجبا» أى يرتدى «حجابا» يحول بين الرصاص واصابته كما فهمنا، وحاول خصومه أن يقتلوه مرارا فشلوا ، ثم مات على المصطبة بسبب لدغة عقرب طولها عشرون ملليمترا، سبع نخلات ورثناها عن ابى داخل بيتنا فى القرية، لم تثمر جميعها اى نوع من البلح بعد رحيل ابى - مع انها لم تتأخر فى الاثمار - فى حياته ابدا، واحد آخر من بلدنا اغتاظ من زوجاته العديدات لانجابهن الاناث دون الذكور، طلقهن جميعا وسافر بعيدا حيث احضر زوجة من خارج منطقتنا، وكان أول مولودها شبيها بالقرد فقتلها - اعوذ بالله - الشاعر عبدالمنعم عواد يوسف الذى يطالب بحقه فى ريادة الشعر الحر الحديث فى مصر بديلا لصلاح عبدالصبور، اصدر ديوانه الاول منذ سنوات قليلة من الشعر العمودى، إذا استطعت ان تشرب اللبن الرائب عدة مرات لعدة أيام ستصبح ثملا، دعك من اصابتك بالاسهال بعد اليوم الاول، واخر ما يمكن أن تتسع له موسوعتنا لمثل هذه الظواهر المدهشة والافعال العجيبة والأرقام القياسية، هو تلك العادة التى اندثرت فى جنوب الصعيد، حيث كانت الراقصة التى تزف العروسين تقيم عدة أيام مع العروسين لتسهيل الشئون المعقدة ونشر البهجة فى الجو السعيد، ولم تكن تتقاضى اجرا بالمرة.

وعلينا الآن ان نغلق هذا الجزء من موسوعتنا املين ان تتاح لنا فرصة الاهتمام بموادها من جديد كى نكشف عما يخفيه الزمان فى جوانحه من كافة الاعاجيب، ولا عمل لنا سوى الانشغال بها واحيطكم علما بأنى - أثناء كتابة هذا الموضوع - بحثت فى الموسوعة العربية الميسرة عن مادة أقدمها لكم تعريفا بموسوعة الجينز المشار إليها. فلم أجد شيئا وعندما يتيسر لى الحصول على اية معلومات فلن ابخل بها عليكم. رعانا الله جميعا حتى ذلك اليوم.

١٦ بداية مشروع فى اغتيال صديق عزيز

انا لست انت، حتى ولو اتحدت النوايا والأهداف والأصول والجذور ودرجة الوعى والمرتبة الثقافية والدخل الشهرى، وانا لست أنت حتى لو تزوجت من فاتن تفوق فتنة التى - رعاها الله - تزوجتها، لكننا اصدقاء على اية حال، تتحد ارادتنا فى كثير من الاحوال حول اكلة معينة او سهرة معينة او رحلة معينة، وهكذا تم الاتفاق بينى وبين الصديق الذى يعمل استاذا فى كلية التجارة بجامعة المنصورة - شمال شرق الدلتا المصرية - ان نقضى يومين بمدينة العريش على ساحل البحر المتوسط، هو بسيارته الصغيرة وانا بأموالى الكثيرة، لكنى لم استطع، ذلك لأن صديقى هذا اكثر مالا.

من باب الاحاطة يجب ان تعلم ان صديقى الأستاذ: مع استاذيته فى كلية جامعية ومع سيارته، ومع امواله، اقترب منى اكثر فى الشهور الأخيرة، فاكتوى بمرض القصة القصيرة، ولما زاد عليه الداء وطفح، كتب قصة قراها أمام جماعة مثقفة فى ضيافتى، ولما كانت المائدة عامرة بما يساعد على سرعة الانفعال الثقافى، فقد نشروها له فى مجلتهم وقد ادى ذلك ان داهمنى - بعد ذلك بأيام - قادما من المنصورة إلى مستقرى فى الجيزة وفى منتصف الليل، كى يقرا صديقى هذا قصة أخرى بين يدى، فاستقبلته فى هدوء كرم الضيافة المشهور عنى، ثم رفضت ان يقرا لى شيئا فى غلاسة رفضى ان اكون ضحية لكونه قد اصبح كاتبا، ذلك اننى اجالس اصدقاء الثقافة، بما لديهم من قصص او قصائد او مقالات او اناشيد او اغان او مواويل - مساء كل خميس - مالم اكن مسافرا أما باقى الاسبوع فهو متروك لارتباطات ونشاطات أخرى تقتضيها قوانين الحياة، اذن كيف يمكن للواحد ان يقضى الاسبوع كله فى غمار الثقافة؟؟

وهكذا اتحدت إرادتنا - انا وصديقى - أن نترك الثقافة لمساء الثقافة، فدعانى ان يصحبنى إلى الساحل الشمالى الشرقى - حيث العريش، لقاء يومين بسيارته الصغيرة

الجميلة، التى قطع بها الآف الكيلو مترات من ابى سنبل جنوبا إلى طرابلس ليبيا غربا إلى العريش شمالا. كان الجو حارا فى ذلك الصباح المبكر - ثانى أيام العيد الكبير، ولم نصحب معنا سوى زجاجات من الماء الثلجى، ومستلزمات ضرورية من الملابس، حيث كنا وبعد ساعتين - قد تجاوزنا مدينة الاسماعيلية، ثم اتجهنا شمالا لنعبر قناة السويس من مدينة القنطرة، ومررنا على آثار واضحة وقليلة هى بقايا حرب ٧٣ اتجهنا شمالا من جديد لنصل بعد ثلاث ساعات إلى مدينة العريش، البسيطة الهادئة، ذات النخيل المتمايل فى هبات الريح.

سألنا عن فندق اقامة صديق اثير كان يعمل معى فى السد العالى منذ ربع قرن، حيث نشط أحمد الخليلى - سليل عائلة - الخليلى بالعريش لاستقبالنا، ومنذ أول لحظة رفض قبول اى مقابل لإقامتنا، اللهم اجعله خيرا الإقامة والأكل والشرب - كله مجانا لذكرى صداقة لم أعد اتذكر منها شيئا، وأحمد الخليلى يحب التمثيل، وقد شارك فى مسلسلات كثيرة مع كبار النجوم، وهو فى طريقه لإنشاء شركة إنتاج تليفزيونى، وله ذكريات مع محمد عوض وفؤاد المهندس وغيرهما من نجوم الكوميديا، وصديقى استاذ الجامعة جالس صامت لا يشارك فى جدل ولا جر حبل ذكريات ولا الافاضة بذكريات خاصة ثلاثة أيام مع ليلتين، ودعنا فيها الشمس حتى غطست فى ماء البحر، واستقبلنا فيها القمر حتى اسلمنا للفراش، والكل يحتفى بنا، وصديقى الجميل صامت .

ثم بدانا رحلة العودة..

بناء على تقاليد موروثة، لا احب، ولا أستطيع أن أعود إلى بيتى فى الجيزة دون أن يكون معى شىء من منتجات البلد الذى ازوره، من دمياط والمنصورة اصطحب معى فطائر هذه المنطقة التى تفوق باقى بلاد القطر فى صناعتها، من الفيوم: العنب والزبيب والبط والديك الرومى، من الاسماعيلية: كيزان العسل والشمام والبطيخ والمانجو من أسيوط والمنيا: لحم الجديان والدواجن البلدى والبلح الذى يشبه الزبد، وفى الحالات التى لا اجد فى البلد شيئا خاصا يصلح لأن يكون مادة اقدمها لعيالى - مثل الغردقة فإننى اصطحب شيئا من القاهرة ذاتها، اننى لا استطيع الدخول إلى أسرتى خاوى الوفاض ابدا، حتى اننى ذات رحلة - عدت خاليا فاشتريت لزوجتى وعيالى شوية شيكولاتة - مع أن البيت اصبح دون الأطفال بعد أن كبر الاتجال ونمت لهم شوارب ذات شأن.

كان الجو حارا وصديقى الدكتور يقود السيارة صامتا، كنا نخترق العريش خارجين

منها حينما طلبت من صديقى ان نعرج على باعة الفاكهة لنصحب شيئا للأسرة، والعريش بصفتها عاصمة لشمال سيناء ـ مشهورة بالخوخ والكانتلوب «نوع من كيزان العسل شديد الحلاوة والطعامة» والبرقوق، لكن صديقى ظل صامتا ودون اهتمام بطلبى، سألته وانا اكاد اخلع يديه من عجلة القيادة: لماذا لم تستجب لطلبى؟؟ قال فى ضيق: ارجوك انا لا استطيع أن انظر يمينا او شمالا وانا اقود السيارة يعنى ايه؟؟

قلت فى هدوء: عند اول بائع فاكهة عليك ان تتوقف دون ان اطلب منك ذلك، ومع ذلك لم يتوقف، مررنا على تلال من الفواكه التى كانت رائحتها تعبق بأنوفنا حتى قبل ان نراها قلت له: يا دكتور: حرام هذا الذى تفعله، ظل صامتا حتى تركنا منطقة العريش كلها، وعبرنا بعد ساعات قناة السويس عند القنطرة، ثم ملنا غربا لنعود للقاهرة عن طريق بلبيس الشهير، والذى ورد كثيرا فى كتابات أساتذتنا لانه يضم المواقع التى كان يختفى فيها الفدائيون ايام احتلال الانجليز لقناة السويس، وفى نفس الوقت فإن هذا الطريق ملىء بالفاكهة، فرصة لنشترى شيئا منها للأسرة، لكن صديقى لم يسمعنى.

فى هذه اللحظة فكرت أن اقتله.

كان جالسا وراء عجلة القيادة بوجهه الأبيض المسلوب المستطيل والذى يذكرك فورا بوجوه حراس ثلاجات الموتى فى المستشفيات.

سألته فى هدوء: هل اعطيت عيالك عيدية؟؟ والعيدية ـ كما هو معروف ـ هى هذا الطقس الجميل الذى يمارسه رب الأسرة إزاء الأسرة، ويمارسه بعد ذلك بعد أن تنمو الأسرة وتشب، من باب اثبات بقايا انقاض السلطة القديمة، يا دكتور: كم جنيها اعطيته لاولادك عيدية؟؟ وبدأت أحكى ـ لاحظ انى لم أبارح فكرة قتل صديقى هذا ـ اننى صباح يوم العيد، استيقظت مبكرا، وبعد الحمام مباشرة وجدت الأفراد الخمسة متمترين: واحد مدرس وواحد فى كلية التجارة وواحدة تعمل فى شركة الومنيوم ثم الصغيرة «١٧ سنة» فى ثانوى صناعى، ثم السيدة قائدة هذا الفيلق: زوجتى، كل سنة وانت طيب يابابا، ويختطف الواحد منهم المظروف الخاص به ثم يطير حيث لا اراه إلا اليوم التالى، حتى قائدة الفيلق السيدة زوجتى: تأخذ المظروف الخاص بها فى فرح مع ان مظروف البيت كله فى يدها وتحت سطوتها .

لكن صديقى ظل صامتا.

ثم انى ذهبت إلى مدينة الحوامدية القريبة من الجيزة حيث قبلت يد أمى ومنحتها

العدية، ثم كان اولاد أخى، وهاص الجميع، وشعرت بسعادة تفوق ما اهلكته من اموال.

لكن صديقى ظل صامتا، وطريق الاسماعيلية يؤدى إلى التل الكبير حيث الموقعة الشهيرة التى هزم فيها الانجليز احمد عرابى.

ثم كان لابد لى أن أسأل صديقى: ألم تذهب لأمك؟؟

حينئذ، وعجلة القيادة لاتزال بين يديه، انفجر غاضبا، أنا انسان لاقيمة له ولا افعل شيئا، ابى لم يعطنى شيئا وكان يضربنى مع انى كنت الأول فى المدرسة فلماذا اعطى الآخرين؟؟

قلت له لكنك كريم، قال: وهو لايزال محتدا: الكرم شىء غير هذه المسائل، امى تسكن تحتنا مباشرة مع أختى، وأبى مات منذ سنوات، ومع ذلك لم يحدث ابدا أن اعطيتهما عيدية أو دخلت عليهما بأى شىء، إلا إذا طلبا هما ذلك، وهذا نادر.

انا ـ هذه المرة ـ الذى ظل صامتا.

واستمر صديقى يحكى عن طفولته العذبة ـ وكان طفولتى انا مترفة، وانه لم يدخل إلى بيته ومعه اى شىء لأولاده الذكور الثلاثة، امهم تتولى ذلك، ثم اضاف بمرارة: انا لا استطيع أن افعل ذلك، واعتبر ذلك سلوك عيال، غير انى ايضا احس فى قرارة نفسى اننى لا قيمة لى بالمرة.

كان من نافلة القول ان اقول له ان بيتك الجميل به أسرة جميلة تنتظرك وغيرنا لايملك ذلك أحمد ربنا يا مقترى، لكنه أضاف على فكرة: انا قرأت ما كتبته عنك إحدى المجلات: مستجاب يعترف: أنا عيل، ومستعد ان اظل عيلا طوال حياتى.

ومال صديقى إلى مقهى ليركن السيارة، وهمس: عاوزين نشرب الشاى.

وكانت المرة الاولى التى يطلب فيها شيئا غير انى ظللت امعن فى رقبته كى احدد المنطقة التى يجب ان أطلق عليها مسدسى.. ونسيت رقبته فقد انشغلت فى احتساء الشاى فى صمت حيث قام بعدها صديقى لنتحرك بالسيارة رافضا ان يتوقف لنصحب لاولادنا شيئا.

وبدأت من جديد أفكر فى خنقه بكل قوة اليدين. وكانت رقبته الصامتة البيضاء تدعونى .

١٧ مهزلة الأعناق الملتوية غربا

اجمل المخلوقات العربية على الاطلاق: نقاد الأدب، تراهم مثقفين فاهمين مدركين مستوعبين، لا تفلت من بين أصابعهم وعيونهم وأخاديد عقولهم اية ذرة أو نسيرة أو فتلة أو سطحية ادبية، دون أن يردوها لمصادرها الأساسية فإذا لم يجدوا لها مصدرا يرتاحون إليه فإنهم يختلقون لها مصدرا، ونادرا ما تكون المصادر أو المنابع عربية، بل هي دائما مصادر غربية اوروبية امريكية على وجه التحديد، وأى حمار يظهر فى نص أدبى فهو مولود بالتأكيد من بطن حمارة سانشوبانزا تابع دون كيشوت، مع أن سرفانتس منحه حمارا لا يلد ولم يمنحه أتانا، أو هو حمار اسبانى آخر ممن سبق لخمينيث استخدامه، وكأن هذا الزوج من الحمير بالذات هو الذى نجا من طوفان سيدنا نوح، ونتكلم عن الأدب الساخر المعاصر، محمود السعدنى مثلا لا يردونه تأصيلا الى الجاحظ أو الحطيئة أو ابراهيم عبدالقادر المازنى، أو حافظ ابراهيم أو الشيخ البشرى، أو حتى جحا، انما - هؤلاء النقاد الأذكياء جدا - يخلعون عنه عروبته ويخلون من احشائه مصريته، ويمزقون قلبه وأسلوبه وجسده وأفكاره ويقومون فى عظمة وثقة بتوزيعها على برنارد شو ومارك توين، وأسماء أخرى لا تدركها ثقافتى المحدودة، وذات مرة تكلم احد هؤلاء المتخصصين فى علوم النقد عن قصة بديعة ليس لها مثال أو مثيل ليوسف ادريس عنوانها: العملية الكبرى، كتبها بعد ١٩٦٧ أثناء فوران الانتقاد ضد عبدالناصر ونظامه عن طبيب عظيم يخطىء خطأ جسيما فى عملية جراحية، ولم يستطع أحد من تلاميذه الأطباء أن يوجه نظره أليه، والقصة لا تصلح للاختصار بالمرة، انما تأتى قيمتها فى تفاصيلها وزخمها وتقلب معانيها، وبعدما يقرب من عشرين عاما على كتابة «العملية الكبرى» ونشرها عدة مرات، أى حوالى عام ١٩٨٧، جمعتنا جلسة الخميس فى بيتى ودار الكلام حول الأعمال الأدبية المؤثرة، وتناولنا - ضمن ما تناولنا - هذه القصة الجميلة الموخزة، فانبرى أحد صناديد النقاد لينبهنا ان هذه القصة متأثرة بقصة كتبها العفريت الأزرق فى الأدب الألمانى أو الايطالى

أو المالطى أو القبرصى، وفى لكنة عجيبة قال اسم المؤلف الذى لاستطيع أن أحفظه فانقلبنا على هذا الناقد المشرق وأوسعناه سخرية وعرف يوسف ادريس بالأمر، حيث اصطاد هذا الناقد فى أحد مشارب المدينة فأوسعه استهزاء حتى فارق المكان.

وبالتأكيد فإن يوسف ادريس وأمثاله - ان كان له مثيل - مخطئون لأن عموم النقاد يعملون فى مجال الثقافة الجادة، وهم خبراء فى كل أنواع الأدب والفكر، ومن حقهم أن يستخدموا ثقافتهم بوضوح وعلى أوسع مدى إذ انهم يولدون وعيونهم تنظر غربا ورؤوسهم تفكر غربا، ولسانهم ينطق غربا، وتحت آباطهم - دائما - ربطة كتب تتألق غربا وتتراقص غربا، فبلاد الغرب تصدر لنا الأكل والشراب والملعبات ووسائل التزلج على الجليد وأصول التفكير، ولا أعرف ماذا سيفعلون بعد انتقال موازين التصدير إلينا من اليابان وكوريا وماليزيا، حيث بدأت تظهر نغمة الهيراكارى وبوكيموشيما وكيراساوا، وما إلى ذلك من مصطلحات الفروسية وأسماء المؤلفين والمخرجين، لكن هذه النغمة ضعيفة لم تصل بعد لمستوى المراجع والمنابع، ربما لضيق ذات اليد أو ذات المخ أو لأن الرأس الذى تعود أن يلتوى عنقه غربا يصعب دورانه شرقا إلا بعد بعض الوقت.

ذلك كله يتم فى هدوء يتساوى مع القدرة الباردة لثقافة هذه الفصيلة من المخلوقات، والتى تراعى - ضمن ما تراعى - التغيير الواجب فى المنابع والمصادر والمراجع، ذلك أن واحدا من أفراد الفصيلة كتب مقالا تكريما لشخصى بمناسبة حصولى على جائزة الدولة التشجيعية فى الأدب عام ١٩٨٤، وورد فيه أن اهتمامى بالتفاصيل والطقوس وسطوة التقاليد راجع الى ما أحدثه ماركيز - الكولومبى - من تأثير فى الكتابة العربية، كان الزميل ماركيز قد نال جائزة نوبل وانفتحت عيون وأفهام النقاد تتشرب عناصر مدرسته فى «مائة عام من العزلة» و«الكولونيل لا يجد من يكاتبه» وعشر مطبوعات أخرى ليس فى عقلى قدرة الاحتفاظ بها، لكن الأكثر طرافة أن المجلة العربية الأدبية التى نشرت المقال الأدبى لهذا الناقد الأدبى فتحت هامشا بذيل المقال ينبه القراء بأن قصصى - موضوع المقال - نشرت فى الفترة من ١٩٦٩ الى ١٩٧٧، وفى هذه الفترة لم نكن نعرف شيئا بالمرة عن كتابات أمريكا اللاتينية، صحيح أن مسئول تحرير المجلة أنقذ كتابتى من هذا اللصق القسرى ودفع عنى اتهاما مقلقا وغبيا، لكن الأمر يظل ضاغطا ولاسيما فى المحافل التى تهيمن عليها أمور لا تتصل بالأدب دائما، حيث لن يتهيأ أحد بالصدفة ليدفع عنك مثل هذه الاتهامات المثقفة، ومثال ذلك ما فعلته ناقدة ذات بهاء معتم من كثرة الثقافة، ويبدو أنها عميلة لزوجتى «المقصود بذلك أن ما فيها من عناصر

ضد الأنوثة تجعل زوجاتنا جميلات» وتعمل لحسابها أيضا، وقفت - فجأة - في ندوة أقامها اتيليه القاهرة منذ سنوات لمناقشة مجموعة قصص من تأليفي عنوانها «بيروط الشريف» وقالت هذه الناقدة في حدة: أنا رأيي أن الكاتب - الذي هو أنا - اقتبس مجموعته القصصية من جوجول «أمسيات قرب قرية ديكانكا» وبعد ذلك جلست هذه الناقدة دون أن تضيف ما تراه شارحة لوجهة نظرها، وحط الصمت على الجميع، نعم هكذا تمت المسألة. إذ ان ناقدتنا قامت في هدوء وخرجت من الندوة تاركة بيروط الشريف معلقة في رقبة جوجول، دون أن تفصح عن مناطق التأثير والتأثر، ودون أن تكشف عن لب الموضوع، وهل يتصل الأمر بالأسلوب أو الجو العام أو مجرد العنوان، لكن الأمر وصل ببساطة شديدة الى درجة من الآراء الصايعة الضايعة غير المسئولة لا يمكن السكوت عليها، وأصبح سهلا أن تتم عوجة اللسان ناطقة باسم هيمنجواي أو فوكنر أو شتاينبك أو تشيكوف أو جوجول أو موباسان أو السادة مبدعي أمريكا اللاتينية من كولومبيا الى كوبا الى فنزويلا، ويكفي تطويق رقبة النص الأدبي العربي ومحاصرته بهذه الاسماء، وترك الاتهام الصارخ معلنا، وهو أمر ترفضه العقول السليمة أو شبه السليمة، والذوق شبه السليم، والذي يساعد في تفشي هذه الاتهامات أن الضوابط غير محكمة، والعتاب غير وارد، وبالتالي لا يصبح لك - كمبدع - سلاح أو وسيلة إلا إمساك النبوت والعصا الغليظة الصالحة لتهشيم هذه الجماجم ذات الأمخاخ الواقعة في قشور الثقافة دون الثقافة ذاتها، وما يؤدي ذلك أن واحدا من فيلق هؤلاء النقاد ظل في عصر استعمار كازنتزاكي اليوناني وعميله زوربا مرجعا لا يمكن لأحد يكتب نصا «من البلاد العربية في منتصف الستينيات حتى بوادر عصر أمريكا اللاتينية» إلا وهذا الناقد ينتق كالضفادع باسم كازنتزاكي، حتى جاء وقت سلبناه اسمه الحقيقي وأطلقنا عليه زوربا، والبعض أطلق عليه «الاخوة الأعداء».

بالتأكيد ترجع هذه المسألة الى التعلق بما يبدو انه ثقافة حديثة، والى الاحساس الظالم بدونية ثقافتنا العربية، وقد لمس وتعمق كثير من كبار النقاد الجادين هذه النقطة، حيث نأمل أن يقوم نقادنا الأفاضل بالنظرة العربية للنصوص الأدبية العربية، وأن يتم توصيل ما يرونه ذا جدوى وذا معنى بثقافتنا وأصولها، دون أن نحجر عليهم في ربط هذه النصوص ببعض الوافد إذا ما كانت طبيعة تكوينها تستدعي ذلك، ودون الاحساس المدمر بالرعب من أصولنا، وهي نفس الأصول التي جاءت منها أجمل المخلوقات العربية على الاطلاق، نقاد الأدب الذين يفهمون أصول الأدب، الله يسترها علينا وعليكم كي نرتاح من الجزء ظاهر الثقافة منكم، ذي العنق الملتوي غربا وهو عنق لا يريد أن ينكسر.

١٨ الغباء العائلي والقدرة الفائقة على ألا يحدث أي شيء

كان عبدالحليم حافظ قد اشتعل غراما باخت ماجدة، وبعد أن شدا بأغنيتين حبا في أخت ماجدة، اتضح له انه يحب ماجدة ذاتها، وقبل أن يصلح الأمر ويقوم بتعديل الحكاية - مع قليل من النكد الميلودرامي، همس

صديقي في أذني:

ـ قررنا قتل عمي...!!

انتفض عبدالحليم حافظ ونفض ملابسه من غبار الفيلم، ودفعتني المفاجأة أن اسحب يد صديقي ونخرج من السينما، تاركين ماجدة تشهق بما تنتظره من قلق الاحتمالات مع عبدالحليم حافظ

■ ١ ■

كان عم صديقي - المشار الى قرار قتله - تكوينا خارقا، سراج منير في عنفوانه غرامه بصفته عنترا عاشقا لبنت عمه عبلة، لا أقصد حكاية الغرام بل تماثل الجسد العملاق، وكنا أيامها مجرد تلاميذ نحبو في مطالع الشباب، نتغذى بالحكايات والآمال والأوهام، وخمسة كيلومترات طويلة بين الشجر تفصل قريتنا عن المدرسة الأميرية، تتيح لعقولنا أكبر فرصة للتوهم والتخيل وحل المعضلات، لكن عم صديقي كان أكبر من كل أنواع الأمنيات، له قصر وحديقة وبنت، وكانت البنت تذهب الى إحدى مدارس التبشير المسيحي «وهي مسلمة» تلك المدارس التي انتشرت في صعيد مصر في العصر السابق على عبدالناصر، وتستقطب بنات «الذوات والأعيان» أي السراة والأثرياء، ليتطعمن لغة غير عربية «فرنسية» في معظم الأحيان، ويتعرفن على الآلات الموسيقية وكيفية قراءة نوتتها، ويحققن تميزا، في نمط تعليمي لا يشاركهن فيه أبناء الناس العاديين، الذين هم نحن، والذين كانوا ينظرون من خصاص السور على

الحديقة، ومن فتحات الحديقة الساحرة، فيرون البنت الجميلة التى تتعلق فى لسانها الحلو كلمات ذات نغمة غير مصرية، فرنسية بالتأكيد، وكان المشهد نفسه رومانسيا يثير خيال الفقراء، ويدفعنا للاشتعال غراما بها وبزهور حديقتها وباعوجاج لسانها، بل وكنا نتحين الفرص لنراها وهى تتجه لتستقل سيارة والد إحدى زميلاتها فى طريقهن لمدرسة الراهبات البعيدة، والتى تضيف رونقا اخر للوجاهة الاجتماعية لهذه العائلة.

أما ابن عمها - زميلى فى المدرسة - فقد كان صعلوكا ابن صعلوك، افسد ابوه الوجاهة الاجتماعية الموروثة بتبديد الثروة ومعظم ملكيتهم من الأرض فى السفر الى العاصمة، حيث كانت ترد إلينا الأخبار المتناثرة عن علاقته بالممثلات الثانويات «الكومبارس» فاقدات الحظ فى الشهرة، فيجتمع اهله عليه ليعيدوه إلى الطريق الصحيح، ولا يلبث أن يجمع نقودا أو يبيع ارضا ليسافر للعاصمة من جديد، وفى كل مرة يجتمعون عليه ليرضخ لهم، ثم يعاود الكرة من جديد، وكان أخوه صاحب القصر قد ضاق به وبتصرفاته، فقام بمقاطعته، ثم طور المقاطعة الشخصية الى قطع تام بينه وبينهم، لا سؤال ولا زيارة، واغلق باب قصره دونهم، حتى التحية العابرة لم تعد بينهم، واصبح لكل واحد - ولكل بيت - مناسباته وأفراحه التى تجرى دون أى وصل او اتصال، بل قطيعة حاسمة.

علاقتى بزميل المدرسة كانت تتيح له أن يسرب أخبار احتدام العلاقة بين البيتين، وقد فكر والد زميلى أن أمورا محتمة ومؤكدة سوف تحدث، ذلك أن اخاه شديد الحرص على ثروته، وشديد الحرص على أسرته، وعماد أسرته هو هذه البنت التى غزت خيال كل الجيل، وبالتأكيد فإن والدها سوف يزوجها من شخص يليق بها، واحد من اقاربها البعيدين او اقارب أمها المتطمين، أى أن البنت سوف تنقل ثروتها كلها - بمرور الزمن وبقانونه ايضا - الى أسرة أخرى غير أسرة زميلى، وهم - شرعا وقانونا - مشاركون فى هذا الميراث بصفة قاطعة مادامت ابنته انثى وحيدة بلا اخ ذكر، وعليه فقد ناقش أبو زميلى الأمر مع أولاده، دعنى أوضح لك ماذا يفعل أولاده، الأكبر لا يحفل بشىء بالمرة، يدور طول النهار متنقلا بين جلسات المقاهى والمصاطب حتى يعود أخر الليل الى البيت وإلى فراشه صامتا، والثانى لا يفعل شيئا بالمرة، وقد لا يعود الى البيت أو إلى فراشه اياما، والثالث هو زميلى والذى تنم تصرفاته عن استعداد ضاغط بأنه لن يكمل سنة أخرى فى المدرسة، وفى الاجتماع الذى عقده أبوهم معهم قرروا أن يتوجهوا الى عمهم ليخطبوا ابنته - الوحيدة - ذات اللكنة الأجنبية - الى الابن الأكبر الجاهل الذى لا يعمل شيئا ولا يحفل بشىء بالمرة، وبالتالى فقد استأنسوا بعض اعمدة الأسرة،

الذين يحافظون على قيم الأسرة، والذين يرون العار كل العار أن تهرب ثروة قريبهم الى عائلة أخرى، ومن يدرى: قد تكون عائلة من عائلات الأعداء، وانتخبوا افرادا اشتهروا بالقدرة على التأثير والمواجهة، حيث توجه الوفد فى مساء يوم تاريخى الى القصر الجميل ذى الحديقة الجميلة لمقابلة العم الجميل.

■٣■

وحدثت الواقعة، فبعد أن جلس الجميع وتبادلوا التحيات وتدخين السجائر وأخبار القرية والقرى المجاورة، فتح كبير الوفد للموضوع، أى موضوع؟؟ أن يتزوج ابن أخيه الأكبر من ابنته الوحيدة، وظل الرجل صامتا، كان العم متمرسا قوى الأعصاب، ولم يكن وصول الوفد اليه بعيدا عن تصوراته، ولذا فقد ظل صامتا، ينقل عيونه فى الرجال الجالسين على المقاعد وبينهم أخوه، واعتقد الجميع ان صمته - الذى طال - يخزن رغبته فى المناقشة، وهم يتوقعون ان يثور عتاب بين الشقيقين حول تصرفاتهما التى ادت الى القطيعة، لكن الرجل طلب منهم ان يحضروا العريس، نعم أن يأتوا لكى يشارك، وكانت هذه اشارة للجانب اللين فى الرجل، فارسلوا بسرعة لاستحضار الأخ الاكبر للمرشح زوجا، هذا الذى جاء مهرولا ومضطربا، لم تكن ملابسه رثة أو ممزقة لكنها ايضا لم تكن نظيفة، ولا تنم عن فرد ينتمى لمثل هذه العائلة ذات الشأن فى المنطقة كلها، وكان العم قد نادى بأعلى صوته على ابنته، وجاءت من داخل البيت، واشار لها ان تتحرك وتسلم على اهلها، كانت البنت تبتسم فى رقة وترتدى ملابس بسيطة غير مزخرفة لكنها بالغة البهاء، حينئذ أمسكها أبوها من ذراعها، وامسك ابن اخيه من ذراعه وشدهما فى جذب قوى، وأوقفهما كل بجوار الآخر!! ثم صرخ امرا: انظروا..

ونظر الجميع إليهما، التخلف والبلاهة والخواء والجهل بجانب الرقة والجمال والتألق.

كان الرجل مسيطرا تماما على الموقف، وظل أفراد الوفد ينظرون فى الواقفين أمامهما، حينئذ طلب منهم الرجل أن يسمع موافقتهم بصوت واضح على زواجهما، وسوف يلبى طلبهم.. وظل الصمت ضاغطا على الجميع، حينئذ امرهم الرجل أن يتكلموا فى أى موضوع عدا هذا الموضوع، وأشار لابنته أن تدخل، وبدأ الجميع ينصرفون صامتين.

■٤■

وانتشر الموضوع فى القرية، وبدأ الناس يقصون الحكاية، كل واحد حسبما يحرف أو يضيف أو يحذف، لقد لقن الرجل أهله درسا فريدا، ومسح بهم الأرض دون أن ينطق حرفا واحدا نابيا، وانتشرت فى التجمعات رغبة الناس فى المتعة بالمشهد الفريد، فيمثلون الدور:

اثنان يقف أحدهما كالبنت والثانى يقف متهدل الملابس، ويقوم ثالث بإلقاء الأمر على الشاهدين: انظروا، أريد أن أسمع صوتكم بالموافقة، فإن وافقتم فسوف أزوجهما، حينئذ أصبح من الواجب والملائم والمناسب أن يقتلوا هذا الرجل، والمقدمات واضحة ولا تؤدى إلا لكارثة، لكن الرجل لم يهتم، تاركا أبناء أخيه يمضغون المرارة والكمد، وبدأ الناس يتكلمون عن سلاح اشتروه للانتقام، وعن وسائل استحضار قاتل أجير يقوم نيابة عنهم بالدور، وعن محاولات لتسوية الموضوع دون جدوى، وعاد والد البنت إلى جلسته المفضلة، كرسى أمام سور الحديقة، وقد استرخى فى هدوء، الكل يلقى عليه السلام، إلا أخاه وأولاده والذين - حتى لو ألقوا عليه السلام، فإنه لا يرد عليهم.

■■■

غير أن أمرا لم يتوقعه أحد داهم الحكاية لتنقلب - كطفل صغير - على ظهرها، فقد جاء النبأ الكاسح: أبوالبنت.. واجه أزمة قلبية ونقلته الإسعاف فجرا إلى المستشفى..

وما كاد والد زميلى يسمع الخبر حتى جرى فى الشوارع مضطربا ملتاثا، وهرع إلى المستشفى ليرى أخاه، وأولاده - الرجال يجرون يمينا وشمالا، يصرخون بكاء وانتحابا لما لحق بعمهم، وكأنهم لم يكونوا يضمرون له القتل، ويسعون جاهدين كى يقتلوه، وكأنهم ما كرهوه أبدا، وما سخر بهم أبدا، الولد الأكبر الجاهل جرى ليكون تحت أمر أسرة عمه النائم مريضا فى المستشفى، يراعى الحقول ويقابل أصحاب المصالح، انتبه لنفسه فارتدى ملابس نظيفة، وإلى سلوكه فبدأ يتصرف بشكل مريح، والثانى - جاهد أيضا - ظل فى خدمة عمه بالمستشفى، يقعد كالكلب الأمين ورهن إشارته، والولد الذى فى مثل عمرى تركز عمله الأساسى فى إحضار أسرة عمه من القرية إلى المستشفى، يصحب ابنة عمه وزوجة عمه كى يحضرا لزيارة عمه ثم يعود بهما إلى القرية، أما أبوهم المفلس دائما المتقافز فى مربعات المدن بحثا عن اللذة، فقد جلس أمام غرفة أخيه المريض يستقبل الزوار ويجيب على أسئلة الضيوف..

وأحب صديقى ابنة عمه، أحبها حبا جارفا، حبا مروعا ناجما عن الاقتراب منها دون حواجز، وهى فى نفس عمره، وهو لم يكن أميا جاهلا، بل ابن مدارس يستحق - دون أخوته - أن يصلح الأمور العوجاء بينهم وبين عمهم، والتى جاء المرض ليثبت للجميع أن الأهل أهل وأن الخصومة مؤقتة، وأن الظفر لا يخرج من اللحم.

وباركت أمه هذا الحب، بل وناصرته، وطلبت منه أن يكتمه حتى يخرج عمه من المستشفى معافى وسليما بإذن الله بل وباركت هذا الحب القرية كلها، كان أول حب تراه القرية مشهودا

واضحا، جاء بعد تطورات جعلته حديث كل الأفواه.

وخرج العم من المستشفى، وعاد إلى قصره، حيث بدأت الزيارات تتقلص، وأبواب سور القصر تنغلق..

وتم تكوين وفد جديد لطلب يد ابنة العم لصديقى.

- ٦ -

الدبلوماسية المقنعة التى مارسها عم صديقى منذ شهور عندما طلبوا يد البنت لابن عمها الجاهل، لم تكن متوفرة هذه المرة حينما طلبوها مرة أخرى للابن المتعلم..

ذلك أن عمه الخارج من أيام من المستشفى، والذى كان الجميع يرعون صحته، وقف فجأة، وبصوت متحشرج، لعن الوفد - مهما كانت أقدار أعضائه ولعن يومهم الأسود، ثم لعن أخاه وأبناء أخيه، وطلب من ابنته أن تناوله البندقية كى يقتلهم جميعا ويرتاح..

وخرج الوفد غاضبا..

وانتشرت الحكاية الجديدة فى القرية حيث عاد العم للجلوس أمام سور حديقة قصره، والبنت إلى الجلوس فى حديقة القصر تطالع كتابا ملونا، ويمر عليه أولاد أخيه فلا يلقون السلام، وإن ألقوا السلام فلا يرد عليهم..

واجتمع أخوة صديقى مع أبيهم، وقرروا قتل عمهم الكثير من جديد..

وخشى من يكون لديهم مواصفات الزواج من البنت - من شباب العائلات الأخرى - أن يدخلوا اللعبة فيصبحوا طرفا دمويا فيها..

فظلت البنت فى الحديقة حتى أصبحت عانسا لتتزوى فى أركان القصر، وقد تعلقت بشفتيها رطانة فرنسية وظل أبوها يسحب مقعده ويجلس فى هزال الكهول أمام سور القصر..

ولايزال أخوة صديقى يقسمون بأنهم سوف يقتلونهما، والتهديد يخرج محطما من بين أفواههم المتهدمة الخالية من الأسنان.. دون أن يموت أو يرحل أى عنصر من عناصر الكارثة.

١٩ سارق الكحل من العيون

اللصوصية عملية ذهنية نشطة تشارك فيها الأيدى أحيانا للاستئثار بما يملكه الآخرون، وكل الأسباب التى تؤدى للصوصية نسبية لا حدود لها ولا تحديد، وبسبب القدرات الفذة للصوص تربعوا فى صفحات الجرائد اليومية يوميا فى حين أن نقابات الأدباء لم تستطع الاستحواذ بعد كفاح إلا على صفحة أسبوعية، يستولى عليها الاعلان فى بعض الحالات، دون أن يضاغط صفحات اللصوصية أبدا، وتسرى اللصوصية فى كل المجالات المعاصرة تقريبا: الاكل والشراب والملابس والأفكار والنساء والسياسة والماشية والأقوال الحكيمة، وأبسط عمليات اللصوصية فى النشل، أى هو التعبير المباشر للاستيلاء على أشياء الآخرين من الجيوب مباشرة، وأكثرها تعقيدا السمسرة وما تثمره الوساطة فى السلاح والحبوب وتقسيم الدول وصياغة المعاهدات، ونادرا ما يكون اللص قاتلا، وكثيرا ما يكون ذا دم خفيف سريع اللماحية والادراك، وأشهر اعلام اللصوص تاريخيا: على الزيبق وروبين هود وخط الصعيد وأرسين لوبين ويلفور وموشى ديان، وعلى بابا أيضا لص حيث انه استولى على كنوز المغارة ولا يشفع له انها ملك للصوص آخرين كما انه لا يشفع للص سرقة الأثرياء لحساب الفقراء وأشهر لص فى منطقتنا - أى فى ديروط - كان الحاج عبدالحميد، أى، انه أوقف نشاطه وتاب الى الله وسعى لنيل الرضا الطوى استغفارا بالذهاب الى الأراضى المقدسة، ولم يكن عبدالحميد - قبل أن يتطهر - يتكلم كثيرا مع الناس، لكنه فى واحدة من عملياته - كاد يضرب الأرض برأسه غيظا..

وكان ذلك فى أوائل الخمسينيات، ولم يكن الراديو قد انتشر فى المنطقة، جهازان فى بيوت العائلات الثرية، وواحد عند بقال هو أنور الشريف، وواحد عند المكوجى أبوحسيبة، ثم كان الراديو الذى اقتناه صاحب دكان اسمه «شحوت» والذى قرر عبدالحميد أن يسرق دكانته دون أن يضع فى خطته الاستيلاء على الراديو، ذلك لأن عبدالحميد استطاع أن

يفك الباب قبل الفجر، وكان قد جهز جوالا كبيرا مما يستخدم فى كبس قنطار قطن، وبدأ يملأ الجوال بعلب السجائر والبسكويت والسكر والشاى والصابون، ثم وجد الراديو على الرف فألقاه فى الجوال سعيدا، وحمل الجوال على كتفيه القويتين - وقيل انه استخدم عربية يد مما يتركه أصحاب مثل هذه العربيات أمام البيوت وسلك الطريق الزراعى حتى وصل الى كوم ضخم من البوص، والذى أعد خطته كى يخفى الجوال بما فيه تحته، وهناك - والفجر على الأبواب - فتح بطن كوم البوص وحشاه بهذا الجوال، على أساس انه سوف يعود بعد أيام، أى بعد أن تخفت الضجة التى سوف تثار بالطبع حول سرقة الدكان، يتصرف فى المسروقات.

لكن الأمر اختلف قليلا، فبدلا من أن تبدأ الضجة باكتشاف صاحب الدكان كسر الباب وسرقة البضاعة، ظهرت مشكلة غطت على كل التنظيمات المشحون بها مخ عبدالحميد، إذ ان الناس فى خروجهم مبكرين الى الحقول، لاحظوا ان صوتا منبعثا من مكان ما، أعوذ بالله من الشيطان الرجيم، كان الناس ينظرون حولهم، وينظرون الى أعلى والى أسفل، ولم تكن هذه المنطقة مشهورة بظهور الشياطين كمناطق دفن الأموات أو هويس الترعة أو كوبرى البغيلى، غير انهم بدأوا يدركون انه لا شيء بعيد على الشياطين، فانزعجوا وارتجفوا، بعضهم مضى فى طريقه والبعض ظل فى مكانه، غير ان الانزعاج الغالب انتشر بسرعة، وهل يمكن أن يأتى كلام من غير فم البشر؟ أعوذ بالله، وبدأت القرية تمتص الانزعاج من الحقول وتلقيه داخل البيوت، وتقلصت القرية وبدأت تخرج أهلها من جوفها، لم يكن أحد قد استطاع أن يحدد مصدر الصوت، فقد كانت أكوام البوص تتناثر على سطح الحقول، وظل الكلام الواضح الصادر من الأماكن الغامضة يجذب الناس أكثر ويزعجهم أكثر، ومع انتشار الخبر: عفاريت فى الحقول انتشرت رغبة جامحة من جميع الناس أو يروا الشياطين أو يسمعوها مرة فى حياتهم، ومع كثرة التجمع وازدياد الانزعاج، بدأت مشاكل الاحتكاك بين الناس تظهر، أى تأويل لهذه الأصوات يواجه بمناقشات ممن يفهم أكثر، وبدأت بعض المشاجرات تظهر فى الأفق مع ظهور الشمس، وتعصب أهل كل متشاجر ضد أهل متشاجر آخر، ثم لا يلبث صوت المشاجرات أن ينخفض ليفسح الفرصة للآذان أن تسمع، أصواتا وموسيقا ثم غناء وطبلا وزمرا، ثم كلمات تأتى محملة من الآفاق بالوعظ والارشاد، واستشرت الفتنة بين الناس حتى جاء العمدة ونائبه وثلاثة من مشايخ البلد، ثم لم يلبث أن جاء مأمور

المنطقة وحوله الجنود وقد ركبوا خيولهم العسكرية لكن الناس كانوا قد وطئوا الزراعات وداسوا على النباتات وازداد صراخ الناس، ووقعت الواقعة التى لابد منها إزاء ضغط العساكر على الخلق لكي يخلوا المنطقة، حينئذ جاء الخبر من القرية: دكانة شحوت انسرقت، ولكن احدا فى هذا الظرف لم يهتم بهذا الخبر، حتى جاء شحوت نفسه والذى استطاع أن يدرك أن الصوت صوت الراديو، وانه انفتح خلال احتكاك تخزين البضاعة داخل كوم البوص، وحتى عندما وصل الى المأمور ليشرح له، لم يفهم الضابط مقصده فاعتدى عليه بعيدا عن المنطقة، وظل الرجل يبكي ويصرخ، حتى انتبهوا اليه ليضع بين يدى السلطات راكبة الخيول مفاتيح اللغز الشيطاني الغامض، هذا الذى أدى الى أن يطلق الناس على هذا المريع عفريت شحوت.

اما أكثر عمليات عبدالحميد دهاء فهى التى قام بها مع واحد من تجار البهائم، فقد كان هذا اللص مطمحا لبعض الصالحين كى يتوب عن السرقة، وكان يطمئنهم على ذلك ثم لا يلبث ان يعود لنشاطه وذات مرة أخذه هذا التاجر معه الى السوق، وكان معروفا ان عبدالحميد لا يمكنه أن يمارس شيئا مع مثل هذا التاجر لقوته وقوة عائلته، وهم لن يتورعوا عن سفك دمه دون أدنى تراجع، واشترى التاجر بقرة من السوق وترك قيادتها لعبدالحميد ليعود إلى البيت، وانشغل التاجر فيما ينشغل فيه التجار وعاد التاجر إلى البيت اخر النهار فسأل أول ما سأل عن البقرة، فأجابوه بأنها وصلت مع عبدالحميد «اكثر الله من امثاله» ومربوطة في الحوش بالداخل.

بعد يومين او ثلاثة او اكثر نجح التاجر فى جذب احد المشترين ليبيعه البقرة، وما كاد التاجر يرى بقرته حتى أصابه هلع، بقرة عجوز عجفاء ضمر ضرعها وظهرت عروق رقبتها وتساقطت كل أسنانها، دار حول البقرة محاولا أن يفهم وأن يدرك، فلا علاقة لهذه البقرة ببقرته الحامل الضخمة التى اشتراها منذ ايام، وخرج التاجر ملتاعا غاضبا صارخا، هاتوا عبدالحميد، وبحثوا عن عبدالحميد فلم يجدوه: فص ملح وذاب، وظلوا أياما يسعون خلفه، كانت مسألة البقرة قد أصبحت نادرة تروى، فكيف يتسنى لبقرة وارفة أن تتحول الى بقرية عجفاء، ولم يكن فى ذهن هذا التاجر سوى الحصول من عبدالحميد على اجابة السؤال: ما الذى فعله بالضبط؟

ودارت دورة الأسابيع وعاد عبدالحميد باكيا بين يدى التاجر، ولم يعد ممكنا وسط كل هذا البكاء والتوسل أن ينتقم منه، بل طلب منه اجابة السؤال المحير، وفك عبدلحميد اللغز الواضح: انه لم يخرج أصلا بالبقرة من السوق الواسعة المكتظة بكل أنواع الحيوانات

ولكنه باعها لأول من تعرض له بالشراء، والسوق ذاتها تجمع كل اسبوع كل تجار المناطق المجاورة، وليس للجميع معرفة بلصوصية عبدالحميد، وعليه فقد قبض ثمن البقرة وتوجه الى ركن آخر فى السوق حيث انتقى هذه البقرة العجفاء، التى أثارت من المرح والمزاح أكثر مما أثارت من الغيظ والرغبة فى العدوان عليه، وكان الفرق فى الثمن يكفي لشراء بقرتين عجفاوين.

فما الذى أدى بعبدالحميد الى التوبة؟ كان عبدالحميد ذا مهارة فى فتح الأبواب وتسلق الحوائط والوصول إلى ما يريده من أوان أيام ان كانت نحاسية قبل عصر الالومنيوم الرخيص، كما انه نجح مرات فى الوصول إلى مصاغ ذوات الثروات الذهبية.

وفى اخر مرة تسلق ليلا حائط ارملة وارثة تعيش بمفردها إلى باحة البيت، وظل يتسلل حتى وصل إلى حجرتها، وراعه ان المرأة جالسة فى فراشها تبكي وتنتحب، وتصرخ لكن صراخها كان ممزقا لا يسمعه أحد، وذراعها مرفوعة إلى أعلى فى ألم شديد، وقد اعتقدت الأرملة أن اللص جاء بناء على صراخها، وفهم انها لدغت بعقرب أو ثعبان، فأسرع وأحضر قطعة ولفها على ذراعها، وبدأ بمص الدم من مكان العض حتى هدأت المرأة واستكانت، وقام بعمل كوب شاى لها وهى لا تتوانى أن تشكره بالامتنان لأن الله ارسله إليها، فأحس الرجل بنوع من الهدوء يهيمن على فؤاده ونوع من السلام يغمر جوانحه وسألته ان يحضر لها واحدة من اقاربها القريبين لتكون معها فى هذا الظرف، فخرج عبدالحميد ليخبر بقية أهلها بما فيه قريبتهم لكنه لم يعد معهم، دعك من انزعاجهم لاحتمال ان يكون هذا اللص قد سرق شيئا، ذلك أن الأمر تطور مع عبدالحميد بسرعة، فذهب إلى شاطىء النهر فاغتسل وتوضأ، ثم صلى عدة ركعات، ولم يلبث أن أحس برغبة عارمة فى النوم، فنام.

ولم يعد إلى ذلك مرة أخرى، تاركا أمر اللصوصية إلى آخرين، حيث استعذب أن يتوب وأن يصلى، وأن يؤدى فريضة الحج، وأن يصبح بعد ذلك صديقا شخصيا لى يحكي لى فى سعادة شيئا من ماضيه الجميل، والذى كان يصفه فى اختصار بأنه يستطيع أن يسرق الكحل من العيون وكانت عيونه الواسعة تشع بالذكاء، ذكاء يعلو على كل اللصوص المثقفين الذين نطلق عليهم : السياسيون .

٢٠ ذلك اليوم الرهيب أين سيذهب به هؤلاء المؤرخون

من بين أغلى أمنياتى: أن اكتب رواية عن السد العالى لسبب واحد أصلى، ومائة سبب ثانوى.. أما السبب الأصلى فيرجع الى اننى عملت فى مشروع السد العالى ولعدة سنوات، وفى عدة مواقع منه، من أدنى الأعمال إلى أعلى المراتب (صيغة فرضيتها العلاقة المتعاكسة بين الأدنى والأعلى!) وكدت أفصل من عملى لأنى رفضت النقل من أسوان الى القاهرة حتى أوقفوا راتبى، لقد همت حبا وأغرقت عشقا بمنطقة أسوان الملتهبة صيفا والجميلة شتاء، كل هذا هو السبب الأصلى..

أما الأسباب الثانوية فهى كثيرة، من بينها ان كل القصص والروايات التى كتبت فى تلك الفترة كانت لهؤلاء الذين مروا فى زيارة منظمة على السد العالى وأقاموا فى الفنادق المكيفة مع العبور «السياحى» على المشروع، ومنها ان البعض كتب دون زيارة المنطقة أصلا قياسا على ما كتبوه عن حفر قناة السويس قبل ذلك بأكثر من مائة عام! والبعض وقع فى خندق السد العالى دفاعا عن أمجاد عبدالناصر.. فقام المناوئون والكارهون بتدمير السد العالى فى مقالاتهم وبحوثهم ودراساتهم، وأثبتوا بما لايدع مجالا للشك ان السد وراء انهيار الأخلاق وظهور الجماعات المتطرفة!! مع إفساد التربة وبيع الوطن للروس (دون الأميركان)!!

ومنها ان البعض اعتبر السد العالى مجرد مشروع لمجد القائد الذى يوازى فى نهمه وديكتاتوريته رمسيس الثانى المشهور بالاستيلاء على تماثيل ومعابد من سبقوه من حكام، وإزالة أسمائهم عنها مع تدبيج اسمه عليها.. (ولعل «نجمة أغسطس» لصنع الله ابراهيم هى المثال)، مع ان ذلك وارد فى حياتنا المعاصرة حينما نزعت أسماء مشروعات ومدن تحمل أسماء حكام، أو إنشاء مدن لصالح الحكام الحاليين، ولم يكن الأمر يحتاج الى مشروع خطير مثل السد العالى، أخذ حقه المكثف أيامها فى الاعلام والطنطنة

والشعارات والأغانى الوطنية الزاعقة، دون تأن وتريث وإمعان ودراسة، لا تقف عند حدوده كمشروع هندسى نقل البلاد من عصر إلى عصر: الكهرباء ومشروعات الأسمدة والحديد والصلب والسكر وإصلاح الأراضى، ثم هذه المساحة الشاسعة من أراضى الصعيد التى كانت تزرع لمرة واحدة فى العام بسبب فيضان النيل الذى كان يغطيها شهور الصيف.. فأصبحت تزرع طوال العام.. وحتى عندما أراد المعنيون التعرض للموضوع، ضاعت جهودهم فى الضجيج الذى يغطى على أية حقائق!

كل هذا جعلنى أتبرم من الكتابة الروائية عن المشروع.. عشرات القصص التى نشرتها منذ خروجى «١٩٧٠» من السد العالى ونزوحى الى العاصمة، لم تقترب أبدا من هذا المشروع، حيث انى أعتبره خميرتى الخاصة وتجربتى الخاصة وكيانى الخاص، لا يصلح معه أن يطلب رئيس التحرير قصة أو مقالا عنه، فانعزل جانبا كى أحقق لرئيس التحرير المراد، انما هو يحتاج الى نوع آخر من العزلة الطويلة التى يتم التخطيط لها، دون أن تقطعها تلك العوائق والمناوشات اليومية المرتبطة بالعمل والأسرة والكتابة والأصدقاء، ولهذا فقد ظلت هذه الكتابة المنشودة المأمولة حلما مؤجلا، لا أريد ألمس جلده أو أفسد خميرته، إلى متى؟ الله وحده يعلم!!

غير ان أمورا تحدث للواحد منا، أمورا غير مرئية لكنها مؤثرة، تجعله غير قادر على الهروب أو التأجيل أو المراوغة تحاصره وتضع أحاسيسه ومناطق تفكيره ورؤاه فى مربع مضغوط قد يكون حلما أو ذكرى أو مقالا متقن الانشاء لكاتب مغرض، فيجد هذا الواحد - وهو أنا فى هذه المرة - نفسه لا يفكر ولا يأكل ولا يشرب إلا تحت سطوة وهالة مثل هذا اليوم، يوم غريب لم يره أصحاب التدوينات التاريخية باسم التصحيح، ولم يدركه كل ذوى القدرة فى الانشاء التاريخى الحديث، ولم ينتبه إليه من شاهدوه أو لمسوه أو حكى لهم عنه، يوم يخرج على كل وجهات النظر المطروحة لحساب التعصب لعبدالناصر أو المناوئة المعادية لعبدالناصر!

::::

كان ٥ يونيو ١٩٦٧ الشهير، قد مضى بطائراته وقصفه وادعاءات الاعلام المصرى بتحقيق الانتصار المطلوب - أورد الهجوم الغادر - للقوات الاسرائيلية، وأول من انتبه الى خطورة ما يحدث، هو المهندس محمد حافظ فى الساعة الحادية عشرة صباحا، والذى كان رئيسى فى منطقة (عملية الطمية) وكنت مرافقه فى سيارته من العملية فى

الصحراء الغربية إلى المكاتب الادارية بجوار مشروع السد العالى ، وكان آخر بيان منفعل بالوطنية والانتصار قد جاء من الراديو محملا بإسقاط عدد مهول من الطائرات وصل إلى مائتين وستين، فأوقف السيارة جانبا ونظر إلى الأفق - حيث كان السد العالى قد وصل إلى مرحلة عالية من التنفيذ - وقال بوضوح: أنا غير مطمئن، ثم صمت قليلا وهمس: كم طائرة هاجمتنا لنسقط منها هذا العدد؟ وأضاف: ربنا يجعل العواقب سليمة!

ولم يبارحنى هذا القلق الذى تسرب واضحا من المهندس حافظ، إذ انى أعرف عنه - من خبرة طويلة فى العمل والتعامل والمعايشة - انه ذكى قادر على تحليل الظواهر للوصول من غلافها المراوغ إلى البواطن غير المرئية!!

ومر يوم الاثنين الشهير هذا ببياناته وانتصاراته وأناشيده.. يليه يوم الثلاثاء، فازددنا قلقا على قلق، وكانت الانباء المروعة قد تسربت من الاذاعات الخارجية الى الناس فى بوتقة العمل فى السد العالى، هذه البوتقة الواسعة التى تكاد تغطى مستطيلا أطواله ٤٠×١٠ كيلومترا بما يساوى مساحة قدرها ٤٠٠ كيلومتر مربع (لكى لا يتهمها أحد بأنها مسافة طولية وليست مساحة مربعة) وبدا واضحا مدى التناقض بين الذى وقع والذى يذاع ويعلن، فاضطرب العمل فى المشروع اضطرابا واضحا، ولم يستطع يوم الثلاثاء الاجابة على اى استفسار أو وضع اى نقط على اى حروف، بل زاد الأمر سوءا ان الكثيرين تحولوا إلى أصحاب رؤى وتحليلات واستنتاجات، البعض ينتظر من الجيش الروسى أن يتدخل، والبعض استعان بالجيش الصينى، وآخرون استعانوا بالجيوش اليابانية او الألمانية او أية جيوش لامم ودول ليست لها جيوش مقاتلة اصلا!! لكن المؤكد ان يوم الاربعاء ٧ يونيو١٩٦٧ قد جاء محملا بالنذر والشرور والعذاب، ذلك ان صباحه قد اتى بخبر اذاعته محطة اسرائيل لمن يسمع محطة اسرائيل، وتناقلته الاذاعات الاخرى بسرعة معروفة: فقد طلبت اسرائيل من العاملين فى مشروع السد العالى إخلاء الموقع كله تمهيدا لضرب محطة كهرباء السد العالى بالقنابل!!

لم تكن محطة الكهرباء قد استكملت أركان وعناصر كونها محطة كهرباء، هى مجرد انشاءات فى الصخور حول قناة التحويل وداخلها، وهى القناة التى تم شقها فى نفق تحت الجبل فى جانب لكى تصبح مساقط مياه داخلية تستخدم فى تشغيل توربينات توليد الكهرباء!

ولم يكن تم تركيب اى توربين او أية أدوات وآلات وتوصيلات فنية!

كانت مجرد إنشاء بنائى صخرى معظمه فى باطن الجبل، ولا يوجد بها إلا معدات

البناء والتخريم وتحريك الصخور، وكلها سهلة الاخفاء والتحريك كما انها لا تتعرض للضرب بأية حال لأنها ليست فى منطقة مكشوفة!

وكان من المتوقع أن يلجأ العاملون فى المنطقة كلها إلى الهرب بعيدا ولو بالسير على الأقدام، منذ ترديد الانذار الاسرائيلى صباح ذلك اليوم، حتى أن بعض العاملين أصابته عصبية كاسحة فاعترض على الذين يسمعون الراديو، بل وحدثت مشاجرات أدت إلى تحطيم راديو النادى وراديو مطعم الشركة!

فى مثل هذه الحالات تنتابنى حالة من الانشقاق النفسى لازلت ادركها وافهمها، إذ - دائما - أفاجأ بنفسى وقد انقسمت قسمين: واحد ينفعل ويصرخ ويؤكد وينفى، وواحد ينزوى داخلى يرقب ويمعن ويرصد فى يقظة جادة وحادة وبالغة الحساسية، ذلك ان الناس الذين اعتقدت انهم تجاوبوا مع الانذار الاسرائيلى، والذين تحركوا من المواقع البعيدة مستخدمين سيارات اللورى أو حتى على أقدامهم، وبدون واعظين من التنظيمات السياسية ولا مؤثرين من الاتحاد الاشتراكى، وبدون أى فرد يقود أية جماعة من الخمسة والثلاثين الفا الذين يعملون فى الموقع.. الأميون والجهال والذين يفكون الخط والذين يعملون فى مختلف الأعمال الفنية أو الترابية أو الهندسية.. المظلومون والظالمون وعمال الرمل والزلط والمتخصصون فى التفجير وفى قيادة الكراكات والبلدوزرات والسيارات، الذين يعملون فى أنفاق الأرض أو على سطحها، الذين فى ورديات العمل والذين خارج الورديات، القادرون والعاجزون.. الكل تحرك، كل واحد بنفسه وبدون دعوة تحرك.. إلى أين؟!

إلى مشروع محطة الكهرباء، تلك الواقعة فى نفق التحويل، وفى عز حرارة ولهيب يونيو المشتعلة فى منطقة أسوان حيث الشمس عمودية على مدار السرطان الذى تقع المنطقة فيه» الكل يتحرك يزأر ويصرخ ويبكى ويلعن! ثم يجلس على فتحة محطة الكهرباء، حول الفتحة الواسعة وعلى شفتيها وعلى أصداغها وتحت أنفها وفوق هامتها، كل منطقة محطة كهرباء السد العالى سواء ما كان منها داخل النفق أو خارجه أصبح محتميا بأجساد كل العاملين فى السد العالى، منذ التهاب الظهيرة فى الصخور والرمال والزلط والحديد المسلح، وبدون أن يمر أحد بين كل هذا الحشد الذى يعلو على اى مشهد، ليبيع الشاى والمعسل والطعام والماء.. أجساد فقط تتحرك فى حدود أن يجد كل جسد المساحة التى تصلح مستقرا ساخنا، وبدون اعتبار لما قد يدور فى الذهن - وقد دار

بالفعل فى الجزء المنشق منى: ماذا يمكن ان تفعل هذه الأجسام العزلاء إزاء قنابل الفانتوم والميراج؟!

يدور هذا فى العقول دون ان يتجرا احد ويعلنه جهرا.. يكفى هذا الشعور الجمعى الذى هيمن على الناس بمختلف قدراتهم ووعيهم وإدراكهم، ان هذا المشروع هو ملك للناس، وليس لأحد اخر حتى ولو كان عبدالناصر، لم يقولوا ذلك لكنهم فعلوه!!

وقد ظللنا ننظر إلى السماء طوال ذلك النهار الملتهب، ثم عندما حل الليل، حيث لم يغادر احد مكانه، حتى اخر الليل، ودون اضطراب لظهور طائرات اقتربت أو ابتعدت، لقد ظل هذا المشهد الرهيب رهيبا!

دعنا الآن مما حدث فى اليوم التالى، او الذى تلاه اى يوم تنحى عبدالناصر وما كتبه المحللون والقوالون والخباصون والزاعمون انه حدث - بتأثير من قيادة التنظيم السياسى - ودعنا أيضا مما حدث بعد ذلك بثلاث سنوات فى ٢٨ سبتمبر ١٩٧٠ يوم رحيل عبدالناصر نفسه، إذ ان العاطفة قد لعبت دورا فيه قبل اى تنظيم سياسى بالتاكيد.

اما ما حدث يوم الانذار بتدمير محطة كهرباء السد العالى فقد كان خارج قدرات العاطفة والانفعال واية تنظيمات معروفة فى التاريخ!

لقد كان يوما رهيبا وعظيما، واعظم ما فيه ان كافة الكتاب لم يدركوه، ولم يتنبهوا له، لأنه خارج قدراتهم المحدودة أيضا!!

٢١ الأساليب ملتوية والمسائل شائكة

بعض القراء يعتقد ان كاتبا - مثلى - يملك جوابا لكل سؤال ولأى سؤال وهذه فكرة ورثناها عن عصر كان فيه لكل سؤال وجوابان، بل وثمة اسئلة حصلت على ثلاثة اجوبة دون ان يكون هناك سؤال اصلا، اما العصر القائم فقد تم تحديد جواب واحد لسؤال واحد، وذلك بناء على ما توصلت إليه لجنة الاسئلة والاجوبة التى انعقدت - فيما اتذكر - فى مدريد بإسبانيا، ثم فى نيويورك، ثم فى اوسلو بالنرويج، ثم فى وكالة البلح فى القاهرة، ولاتزال هذه اللجنة تعمل بنشاط، نظرا للكمية المذهلة من انصاف الأسئلة وارباع الاجابات، التى بقيت دون تحديد، حيث تم تخزينها مؤقتا فى منطقتين : انصاف الأسئلة فى غزة، وارباع الاجابات فى اريحا، اما الأسئلة الكاملة فقد اتضح انها التهمت الاجابات اثناء المباحثات وتضخمت وبدات تنفق - اى تموت من الاجهاد - فى الطرق العامة ويرى المدركون ان احسن حل هو إقامة ضريح ضخم وتكويمها فيه على ان يقام هذا الضريح فى البحر الأبيض المتوسط لكى تستفيد منه - وتتعظ - ثلاث قارات ضخمة لحين تدبير ضريح مناسب فى البحر الكاريبى يخدم قارات أخرى لاأتذكر اسمها الآن .

وبناء على ذلك ارجو ان يتفهم القراء هذه القاعدة الجديدة، والتى تقول كل سؤال تعجيزى هو فى الحقيقة إجابة عن السؤال نفسه ، كيف؟؟ لااعرف ، فماذا افعل لقارئة من ميناء عبدالله بالكويت تسألنى - لماذا لا يكون اسمى - لماذا كان اسمك « مستجاب » ؟ والاجابة : لماذا لايكون اسمى « مستجاب » وما العيب فى ذلك ؟ اسم صاف رائق لا اثر لحيوان او شيطان او عصافير او مائدة او خشب او شجر او غيوم او اوحال او اية الوان اخرى ، اسم جميل لشخص جميل ذى سريرة جميلة واسارير جميلة ، قارىء اخر جعلنى الف وادور حول سؤاله ، ثم حول الشخص نفسه حتى كدت اخلع هدومى واخرج له عاريا مناجزا منتويا ان

أفتح بطنه، وكله موسيقى ـ والسؤال: أين تصرف نقودك؟ واضح أيضا ان السؤال لا غبار عليه، لكنه يحتاج إلى تعديل، ذلك ان لفظ « النقود» ينسحب لكمية أقل مما ينسحب عليها لفظ « أموال ». انظر للسؤال مرة أخرى: أين تصرف أموالك؟ حينئذ يدخل السؤال في مجال التعجيز، فأتوقف عن الاجابة دون الغيظ والكمد لدرجة حرق الدم.

عليك ـ ياصديقي ـ ان تراعي المسافة القائمة بيني وبينك، فمن القطيف، جاءت رسالة صغيرة في حجم كف طفل وليد، يسألني صاحبها: ممن تخاف أكثر: أبوك أو أمك؟ أخي عبدالعزيز السالم الحامدي: أنا لا أخاف من أبي أو أمي، ولا حتى من رئيس التحرير أو الجيران أو الدائنين ولا من الأصدقاء أو الأعداء أو ذوي الدم الثقيل ولا من الماضي أو الحاضر أو المستقبل ـ فكل هذا في علم الله جل وعلا أنا أخاف فقط من الغباء، لاتكن غبيا وتسألني كيف؟ لأني لا أعرف.

لماذا لاتحب المطربة نجاة؟ والسؤال قادم من باكوس بالاسكندرية، صاحبته تريزا بولس تعمل في صيدلية وقد انفردت بنفسي محاولا ان كنت قد الحقت أذى بالمطربة نجاة أو الأخت تريزا أو أي صيدلية بالاسكندرية دون جدوى، صحيح انه طرأ في بالي ان أكره المطربة نجاة بعد ان كتب عنها الصحفي المعروف مصطفى أمين انها اذاقت الشاعر الكبير كامل الشناوي صنوف العذاب، لكن قراري هذا لم يستمر طويلا فقد نسيت الموضوع من أصله، ولا أنكر أبدا ان اسم نجاة جاء في مقال أو على لساني في أي مكان وتحت أي ظروف، أنا أحب شادية.

رسالة موقعة من ثلاثة.. عصابة؟ هم: أمينة وتريزة، وفاطمة، والسؤال هو أن أصف بدقة المعادن التي تتحلى بها زوجتي، ولو وصل إلى علم زوجتي ان هناك من يمكنه أن يطلب مثل هذا الطلب مني لذبحت خروفا ووزعته صدقة على رواد ضريح السيدة زينب ـ رضي الله عنك يا أم هاشم ـ لأن كل المعادن التي تحلت بها زوجتي عصفت بها ريح اقتصادية ذات يوم مكفهر ومن يومها تتحلى هي بالستر وأتحلى أنا بالصبر، أما الخطاب الاعجوبة فهو الوارد من « عادل » بالكويت يقول فيه انه يستشيرني في المواصفات الخاصة بمزرعة ينتوي انشاءها ليربي فيها الحيوانات النادرة مثل المها، وغزال جوردون، والدواجن الغينية، والفيل ووحيد القرن، وقد تحدثت في شأن رسالته هذه مع أصدقاء خبراء في هذه الأمور، فأشاروا جميعا أن الزراعة ليست منشأة معقدة، مجرد مساحة الأرض وسور يحوطها، وفي آخر السور من ناحية الغرب شواية بالفحم وعدة أطباق وثلاثة أو أربعة من الأصدقاء الأوفياء.

الرسائل التي تزج لي في السياسة عديدة، وأنا كائن يتعالى على هذه الشئون مفضلا المغامرة في مجال أقل بؤسا، مثل الاقتصاد، أو العواطف، أو صيد السباع، أو تحليل الغيوم والضباب والشعر الحديث جدا، أو مسك سيرة الآخرين، أو سماع الموسيقى، أو مصارعة الزواحف، أو الامعان في تصرفات الزمان، أو المرور على بيوت الفقراء كي أمنحهم جزءا من ثروتي، أو وضع دماغي تحت الماء حتى أصل إلى حالة من الاختناق تنسيني هذا السؤال الوارد من عبدالحكيم قيسون من الدوحة: من هو السياسي العربي أو العالمي الذي يستحق منك الاحترام والاعجاب؟ أخونا أبوالغصن الشهير بـ « جحا » وبدون أسباب، غير أن شاعرة من الكويت ـ ويبدو أنها مصرية، اشم ذلك في تركيبة اسمها: شافية محمود علي، تتحداني أن أوضح لها الفرق بين الجبن والشجاعة ـ ياست الكل ـ الجبن نوع واحد معروف، أما الشجاعة فهي أنواع، شجاعة بالفطر ـ روكفور، وكان المفروض لمن يفهم أو يدرك أن يكون السؤال عن الفرق بين الجبن والحكمة، لكي يكون الجواب: الحكمة مثل الزبدة، يطلع عليها القمر: تغنى، تطلع عليها الشمس: تسيح، ثم هناك خطاب عاتب من ناظر مدرسة هو الأستاذ: عبدالله أحمد الناصري « ولا أعرف إلى ماذا ينتمي: الناصري نسبة إلى الناصرية الخاصة بجمال عبدالناصر، أو الناصري، نسبة إلى الناصرة التي ولد فيها السيد المسيح « عليه السلام » أو الناصري نسبة إلى الناصرية ـ تلك البقعة الشعبية في القاهرة والتي منها زوجتي ـ رعاها الله، أو الناصري نسبة إلى عائلة الشاعر المصري نصار عبدالله وعمه السياسي قطب المعارضة الشهير ممتاز نصار ـ رحمه الله ـ والذين يسمون انفسهم بعائلة النواصر على وزن الفوارس والكواسر والكوارث، وعتاب الأستاذ عبدالله الناصري انه أرسل لي قصائد فلم انشرها، وبصفة أساسية: لم تصلني قصائدك أبدا، وبصفة احتياطية: أنا كاتب ولست رئيسا للتحرير أو حتى مشرفا على صفحة أدبية في أي جريدة أو مطبوعة، كما أن لي عددا لابأس له من الأصدقاء الشعراء ولا أنتوي أن أزيد من الجرعة الشعرية حاليا.

يبقى بعد ذلك رسائل يود أصحابها أن يستعرضوا قدراتهم في نقد الشئون العربية، وكأني أنا الفاهم الوحيد لهذه الشئون، أجملها على الاطلاق رسالة من السالمية بالكويت تضمنت سطرا واحدا: « حكمة الزمن: أمة اليمن »، وبدون توقيع أو اسم بالمرة.

وإلى لقاء في مجموعة أخرى من رسائلكم ذات الأساليب الملتوية والمسائل الشائكة.

ريم على القاع ٢٢

كان خالى قد وقف ضد خالى فى حرب ضروس، وقرر كل واحد منهما أن يحارب بى، أن يستخدمنى لاثبات أن أيا منهما هو خلاصة الأخلاق الفاسدة والاغراض الشيطانية والمنافع الابليسية، ولما كان خالى الأصغر شاعرا يشار إليه بالقوافى، فقد نظم قصيدة يقول فيها:

إذا رايت نيوب الجحش بارزة
فلا تظنن أن الجحش يبتسم

الأم غارقة فى الفقر باركة
فى الجهل عائمة كاللحم فى الدسم

(شرح المفردات: الجحش هو الموجهة إليه القصيدة، والنيوب: الأنياب، والأم الغارقة فى باقى البيت الثانى هى والدة خالى الثانى - ملاحظات: ١ - واضح أن لكل خال منهما والدة مختلفة فهما ليسا شقيقين ٢ - هناك عدم اتساق فى ضم القافية الأولى وجر القافية الثانية: يبتسم - و - فى الدسم، وهو ما يعيب شعر خالى الأولى ويحول دون فخامة القصيدة).

ويغض النظر عن أنى اكتشفت - بعد ذلك بسنوات - ان هذه القصيدة منسوجة على منوال اخرى شهيرة للزميل أبى الطيب المتنبى - عميد الشعراء العرب قبل ظهور اتحاد الكتاب بأحقاب طويلة فقد شاقنى أن احملها إلى الخال الكبير فى براءة مقصودة، وأن القيها بين يديه ضاغطا - أن امكن - على الجحش الذى تردد فى باقى القصيدة التى ضاعت من الذاكرة الآن.

ولم ينفعل خالى الكبير الذى كان خياطا افرانجيا (ترزى) لأنه قضى سنواته الأولى - الخطيرة - يعمل صبيا فى محلات الاقمشة وتفصيل البدل التى كان يهيمن عليها الأوروبيون واليهود فى مصر قبل قيام ثورة يوليو ١٩٥٢، أى انه اكتسب من عشرة هؤلاء صلادة وبرودة ومتانة وذكاء ومكرا، لكنه لم يكن غارقا فى الشعر مثل الأول، وعليه فقد قرر أن يرفع درجة استخدامى، فأجزل لى العطاء بما ساعدنى على دخول السينما، ولكى أكتب - بدلا عنه بالطبع - قصيدة هجاء لأخيه، والتى كان مطلعها

قد كان عندى نعجة
فى قفص من خشب
وأمه شرشوحة
قمامة فى المقلب.

كانت القصيدة

القصيدة قد قامت على انقاض ابيات شعرية شهيرة كنا ندرسها فى المدرسة الابتدائية فى ذلك الحين (قد كان عندى بلبل فى قفص من ذهب)، واننى اعدت استعمالها لصالح خالى الترزى ضد خالى الشاعر، هذا الخال الذى تصف القصيدة امه بالشرشروحة. أى بقية الحذاء المتهالك - والذى ما كاد يستقبلها حتى اجتاه. غضب كاسر، ليس ضد أخيه، بل ضدى، ذلك ان انهماكى فى إنشاء القصيدة العملية المدفوعة مقدما، لم انتبه الانتباه الكافى لما فيها ضدى فالنعجة التى فى القفص ليست والدة لخالى فقط بل هى ام والدتى أيضا، فقد كان خالى المطعون خالا شقيقا، - ولابد - أن انتبه لابيولوجية المعركة التى بدأت تلتف حولى دون أن ادرى، فما يصيبه يصيبنى بشكل أو بآخر، وهو أمر ليس من السهل انكاره، والا فسوف اضيع بين خالين فى عالم لا يرحم، وقد انكرت انكارا تاما باكيا اننى الذى صُغت هذه القصيدة، والدليل على ذلك انها مكتوبة بخط الخياط البليد المخالف لخطى المدرسى ذى الجمال الواضح، وقد ايدتنى أمى، وازرتنى فى انكارى، ولطمت خدودها رافضة أن تسمح لأحد أن يتهمنى بما يتهمنى شقيقها به.

وبناء على ذلك بدأت اعيد النظر فى علاقاتى الادبية، وان اتلمس لقدمى قبل الخطو موضعها، ولاسيما وان أمور الأدب كما ثبت بعد ذلك - لاتنفع فيها ام أو خال، وبالتالى فقد انعزلت عن كل الأطراف كى اجود ادواتى، واتزود بالثقافة لكن الاثنين: الخال والخال - ارسلا فى طلبى، فتخليت عن تجويد ادواتى، وذهبت إلى الأول، ولما اراد تحميلى قصيدته الجديدة لالقيها نيابة عنه بين يدى أخيه رفضت، رفضت فى تصميم، ولما صمم أن يعرف سبب رفضى، صارحته بأن القصيدة الأولى لم تكن متسقة فى تشكيل نهاية قافيتها، حينئذ صرخ فى وجهى دون اهتمام بعمرى الصغير: اتحدى..!!

بعد ذلك، أى بعد مرور الربع قرن الأول على هذه الصيحة: اتحدى، اكتشفت إنها سمات الابناء الشبان الاساسية، وانها صفة اصيلة فى ابناء الاقاليم خارج القاهرة.

ـــ اتحدى..!!

يتحدى من!! لا أعرفه خالى الخياط الموجهة إليه القصيدة الأولى غير موجود معنا، فهل يتحدانى أنا؟؟

ارتعبت من صيحة خالى، وهدأت من روعه اتقاء غضبه وتناول القصيدة الجديدة وكان مطلعها :

إذا الشعب يوما اراد الحياة
فلابد أن يستجيب القدر..!!

وسألت خالي في هدوء التلاميذ: ما دخل خالي بهذه الابيات (وقد اكتشفت بعد ذلك أن شاعرا تونسيا شهيرا كان قد سمع بها فاختارها لنفسه) وما الخالي الثاني والشعب الذي - يوما - أراد الحياة؟؟ فنبهني صاحب القصيدة مزمجرا: اذهب بها اليه لأرى ماذا سيفعل، ولم يكن خالي الشقيق كريما بشكل يجعلني أسرع، لكن القصيدة رغم ذلك وصلت بعد أيام لأخيه غير الشقيق، فأجزل لي العطاء لأقوم بالرد:

وللحرية الحمراء

باب بكل يد مضرجة يدق

وعندما سمع الخال الخياط هذا الضجيج الشعري الناجم عن اصطدام الحاءات في الشطرة الأولى، والضجيج الذي يفوقه عند انفعال اصطدام مقطع: مضرجة يدق، وافقني وسعدني سعادة لم يحصل عليها أبو الطيب المتنبي في قصائده لكافور الاخشيدي، وحلمت القصيدة إلى خالي الشقيق، وكان جالسا يستمتع بهجوم ضار من السيدة والدته - جدتي - على ضرتها أم خالي الثاني، تتهمها بأشياء لا تقل ضراوة مما يتهم به التاريخ دول العالم الثالث، وكانت أمي تناصره، وأبي يناصره، وأكواب الشاي في أيديهم تنبيء عن احتمال اشتعال الموقف إن ألقيت القصيدة أمامهم.

لكني ألقيتها وجلجل صوتي في هذا المدخل المروع: وللحرية الحمراء باب بكل يد مضرجة يدق!!

حينئذ هب خالي من مجلسه وصرخ في الجميع: أليس هذا الرجل «ريم على القاع»؟؟ نعم، وأخذ خالي ينشد:

ريم على القاع بين البان والعلم

أحل سفك دمي في الأشهر الحرم

نعم، إنه ريم على القاع، إن خالي الثاني رغوة على القعر، وذهل الجميع من فرط انقلابة الشعر، هذا الذهول الذي اكتسح أم كلثوم سيدة الغناء العربي فاختارت القصيدة لتغنيها ولكي يشدو خالي معها كلما رأى أخاه:

وانما الأمم الأخلاق ما بقيت

فإن همو ذهبت أخلاقهم ذهبوا

دون أن يهتموا بهذا الاندفاع الأحمق الذي عاملني به خالي غير الشقيق عندما سمع أنه مجرد ريم على القاع. حيث كاد يصفعني لولا أني هربت من أمامه غاضبا على الشعر العمودي، منتظرا في الأفق ظهور شعر آخر لا يمكن لأحد من أخوالي أن يستعمله، ولم أكن أعرف أنني بدأت - دون أن أدري - أنضم إلى بقية شعوب عالمنا العربي، هذا الذي أنجب شعرا حديثا لا يصلح لهذه المهام، ولا يستطيع - كذلك - أن يبقى في الذاكرة.

٢٣

من كل بلاهة زهرة

بالنسبة لنجيب محفوظ كل كتبه تبدأ مباشرة بالقصص والروايات يعني إنه لا يتحنجل ولا يتراقص ولا يصمم على أن يعزمك على مجموعة من الجمل والأكليشيهات ذات النبرة الحكيمة، أي إنه يتقدم إليك بالنص الأدبي مباشرة دون الخروج عن القضبان، وهكذا كان أيضا يوسف إدريس مع أن اغراءات رش مدخل الكتاب بقليل من ماء الحكمة، أو الإهداءات الطيبة، تثير الشهية للكثيرين، كان إحسان عبدالقدوس نادرا ما يبدأ نصا دون أن يستنزفه في حكمة متألقة: في حياة كل منا وهم كبير إسمه الحب الأول، ونقرأ «الوسادة الخالية» أيامها ثم نكتب هذه الحكمة لحبيباتنا القائمات دون اعتبار لموضوع الحب الأول، وطغيان أسلوب إحسان - في ذلك الزمان - جعلنا نفكر في الحكمة دون النص ذاته، ثم جاءت حكمة باسكال في مدخل الأحمر والأسود لاستندال بالغة ومرهقة «هذه الأماد البعيدة تروعني» لكن كاتبا من الاسكندرية محدود القيمة كان مصمما أن يبدأ كل كتاب بإهدائه إلى أمه التي حملته تسعة أشهر، وكان من المفروض أن تحمله أمه مدة مختلفة كي يغير الإهداء ولعل كاتبا آخر - من الاسكندرية أيضا كان أكثر وسعا في المخ وكرما في الإهداء فأهدى روايته الرديئة جدا إلى أبويه «الذين رحلوا دون أن ترى هذه الرواية النور» ولا أعرف سبب صيغة الجمع هنا، هل لتفخيم الوالدين أم لعدم الانتباه لصيغة المثنى، أو لعدم قدرته - أصلا - على ملاحظة الفرق بين الجمع والمثنى، ولابد أن نعترف أن حظ أبويه أفضل بكثير منا نحن الذين شاءت ظروفهم أن يشهدوا روايته وهي ترى النور.

وهناك صديق - كان صديقا حميما - ترجم كتابا عن رحلات المستشرقين إلى أقطارنا، وفي المدخل: الإهداء إلى زوجتي العزيزة التي وقفت خلفي كي أنجز هذا العمل، «إن لم تقف خلفه: أين كان يعتقد أنها سوف تقف؟» لكن الأدهى منه - وأكثر إحساسا بالأسرة - كان هذا الذي أهدى روايته إلى زوجته ياسمين وأبنائه حامد وعلي وحسنية، ويبدو أن شيئا حدث بينه وبين أسرته أثناء طبع الرواية، فقد رأيت نسخا منها تخلو من الإهداء بغض النظر عن

ضرورة التفريق بين ما تشمله البطاقات العائلية وجوازات السفر وبين ما تشمله كتب الأدب.

الأذكى من كل هؤلاء هذا الأستاذ الجامعي الشاب الذى أهدى مجموعته القصصية إلى أستاذه فلان الفلانى، لما يتسم به من أخلاق وعلم وفضل، ولا أعرف ماذا فعل بعد أن نشرت الصحف قضية أستاذه بالاسم الكامل بصفته قد نقل صفحات قليلة لاتزيد عن مائتى صفحة من كتاب لمؤلف آخر لم تزد صفحاته عن مائتى صفحة، وقد حكمت المحكمة على الأستاذ بالتعويض المناسب لكن أجمل إهداء لمجموعة قصصية كانت للصديق صبرى موسى : إلى لا أحد ليكون للكل، فأراح واستراح، لكنه لم يستطع أن يرقى إلى هذا المستوى بعد ذلك، حيث لا أذكر إنه عاد للإهداء مرة أخرى.

والتمحك فى الإهداء للوطن - ولاسيما خلال فوران القومية العربية - كان منتشرا من كافة المؤلفين ولاسيما هؤلاء الذين لم يقعوا بشكل جاد فى غرام الوطن: إلى مصر: أمى - التى أفديها بعمرى، أهدى هذه الرواية، وكانت أمه - مصر - تنظر إليه وإلى أمثاله بنصف عين وهم يتقافزون بعد ذلك فى المواقع المؤثرة التى تسبب لها ألما مروعا.. إلى أرض الكنانة التى علمتنى مواجهة الشدائد، ولم نكن نعرف أن الشدائد التى واجهت هذا المؤلف المسرحى هى ضبطه مرتين متتاليتين فى عمليات معقدة ذات صفة جمالية، وقد ظهرت بجواره آلة تزييف الأوراق المالية، ومن باب التنبيه فإن صاحبنا المؤلف للسرحى هذا كتب مسرحية مبكرة عنوانها «المزيفون» عرضت على المسارح الحكومية، ثم إلى وطنى العظيم مصر من الاسكندرية وبورسعيد إلى أسوان وواضح أن المؤلف شديد الدقة فى تحديد المساحة المصرية الطولية «وليست العرضية» التى تستحق أن يهديها أشعاره، ولو أخذت لجنة دولية بمقولته لأصبحت المساحة من جنوب أسوان منطقة السد العالى وأبى سنبل ووادى حلفا - أى منطقة النوبة موضع نزاع جديد بين مصروالسودان لا تحلها إهداءاته أبدا، وانظر إلى هذا الإهداء إلى مصر التى تربيت وسط نخيلها ونباتاتها وتشممت نسيمها وعشت على نهرها العظيم وواضح إنه يسبغ على نفسه أكليل الكسل الذى حال بينه وبين رؤية الواحات ومناطق شواطيء البحرين الأبيض والأحمر، فماذا نفعل إذن فى الذين لم يجدوا الفرصة أن يتربوا وسط نخيلها ونباتاتها ولم تساعدهم الظروف على تشمم نسيمها والعيش على نهرها العظيم، لأسباب هزيلة جدا: إنهم رحلوا بعيدا عنها ليحصلوا على أعلى الشهادات فى الكيمياء والصخور والمعادن وجيولوجيا القمر والمريخ من جامعات هارفارد والسربون وكمبريدج واستوكهولم؟؟

وهناك أحد الأقارب الذى أهدى كتابه عن القانون الدولى إلى الذين لا يعملون ولا يتركون الآخرين يعملون دفاع حار وهجوم ضار على الذين لا يحبهم فوضعهم فى خانة

الذين لا يعملون، لكن الجملة لامعة ومثيرة للتعاطف، بغض النظر عن أنه فى خانة الذين لا يعملون رغم كتابه القانونى الغليظ أما الشعراء الرومانسيون فلا يقعون فى هذه الشدائد الناجمة عن انشائية الإهداء واحد منهم أهدى ديوانه إلى «س» التى أنام فى دفء عيونها، ولأنى أعرف شاعرنا هذا، وأعرف تفاصيل حياته، فإن الايحاءات التى تضمنها إهداؤه لنعتقد إنه مفعم بالتجارب العاطفية، لا تصلح معى، لأن أقرب «س» إليه هى سكينة بائعة البطاطا، والتى تفترش بدفء بطاطتها مدخل البيت الذى يسكن فيه، إلى الماضى الذى انبثق فجأة فى الحاضر، انظر إلى «انبثق» هذه ومدى اشعاعها وشاعريتها، وهو فعل يختص بواحدة عرفناها مبكرا - خمسة أو ستة منا - فى عصور الانحراف العظيم، وكانت تغسل ملابسنا فى الصباح وتظل تطالبنا بمستحقات مالية لا تخص الغسيل بالذات لآخر اليوم.. كل قصائدى نغمات على شفا الحبيبة، والصحيح لغويا شفة وليست شفا، لكن الواقع - قد يكون فى مثل هذه الحالات ضد اللغة - يميل إلى شفا - أى حافة الحبيبة التى تشبه الجرف بالتأكيد.. إلى حبى الكبير: عذابى وسعادتى، أى أن ثمة احتمالات أن يكون فى الأمر حب صغير وحب متوسط مع أن التعدد بالنسبة لطريقته فى الشعر غير وارد.

الأخطر - والأجمل - من الإهداءات والحكم فى مداخل مؤلفاتنا، هى قضية الغلاف الأخير والذى لا يستطيع المؤلفون «والناشرون أحيانا» أن يتحملوه أبيض رقيقا وخاليا، إذ دأب الزملاء على تضميخه بجلائل الأعمال فى الحياة والسفر والسجن والأدب. فلان الفلانى واحد من أهم كتاب القصة فى مصر - أن لم يكن فى العالم العربى ليسانس آداب من جامعة القاهرة، دبلوم فى التربية سافر إلى روما ومدريد وباريس، عضو اتحاد الكتاب، عضو جماعة السينما الجديدة، عضو جمعية كتاب السيناريو، يكتب القصص منذ عام ١٩٥٥، تطوع للدفاع عن مصر فى العدوان الثلاثى عام ١٩٥٦، قال عنه يحيى حقى: إنه يذكرنى بشبابى، قال عنه يوسف السباعى: إنه يذكرنى ببداياتى، ترقى فى وظائف التدريس حتى أصبح ناظرا لمدرسة خليل أغا الثانوية، ويلى ذلك كشف بالمؤلفات ما بين قصص وروايات يصل إلى ثلاثة وعشرين مؤلفا ثلاثة منها حصلت على جوائز نادى القصة وخمسة على جوائز المرحومين القبانى والصحن «زجال بالاسكندرية» والحمامصى «روائى مصرى» ثم يضيف: متدين ومتزوج ويكره الشيوعية، ولعل المؤلفات التالية سوف توضح أسماء أصهاره وجيرانه واسم النادى الرياضى الذى يتعصب له، فماذا يفعل الذين لم تتح لهم فرصة المرور فى الأحقاب الدراسية المتوالية، أو الذين لم يحصلوا على رضاء يحيى حقى ويوسف السباعى؟؟ هؤلاء أيضا لهم كوارث فى أغلفتهم الخلفية: واحد كتب عن نفسه بالنص: يحيا حياة بوهيمية، ربما يقصد حياة منفتحة لا مسؤولية ولا أخلاق فيها، أو ربما هى صفة مجازية لحياة التسول والتسكع التى عرفناه بها قبل أن يسافر للحصول على الستر المناسب، لكنه يضيف: معروف بشهامته لأنه من الصعيد، يعنى الشهامة صفة لنا

نحن ابناء الصعيد من حقنا ان نستولى عليها دون أن تمس ابناء الدلتا والقناة والبحر الاحمر والصحراء الغربية وبدو مرسى مطروح وسيوة وسيناء؟؟ لكن البعض من الأدباء يقوم الآن بعمل طريف، عندما يود أن ينشر خبرا فى إحدى الصحف عن كتابه يطلب منه محرر الصحيفة ان يكتب الخبر مختصرا وتكون الصياغة النهائية التى قام بها والمنشورة بعد ذلك: (صدرت رواية «ابناء الافاعى» للكاتب الكبير فلان الفلانى، وهى تعالج فى روعة واسلوب جميل قضية الاباء والابناء وتطرح قضايا اجتماعية لم يتناولها احد من قبل، وتكشف روح العصر من زيف وسطحية)، وبعد النشر يقوم الكاتب الكبير بالتعامل مع الخبر على اساس انه راى الصحيفة، وراى صفحتها الأدبية، وخلاصة راى رئيس تحريرها وكبار كتابها، حيث يقوم فى أول فرصة بوضع الخبر مجسما على ظهر أول كتاب، وتحتج: الصحافة العربية ترحب بمؤلفات الكاتب.

ومن حقى الآن ان اكشف امرا اجمل فقد جرت العادة ان يهدى المؤلف بضع نسخ من مؤلفاته لذوى الشهرة من رجال الفكر والأدب، ولأن فى مجمع اللغة العربية الذى لبعض اعضائه شهرة واسعة سواء فى مجال تخصصهم او فى مجال الفكر واللغة، ولم يكن سهلا عليهم قراءة هذا السيل من المطبوعات، لكن البعض كان يرى - من واجب اللياقة - أن يشكر صاحب الكتاب على هديته، فيكتب إليه رسالة - نمطية محفوظة: الأستاذ فلان الفلانى، تحية طيبة وبعد، فقد اطلعت على كتابكم «جبر الخواطر على الله» وأمتعنى ما فيه من فن ولغة، وقدرة فائقة على حسن التعبير، أعز الله بكم لغة الضاد وجعلكم ذخرا للأمة العربية والسلام عليكم، دكتور فلان الفلانى، صيغة يضاف إليها او يختصر منها لكن هكذا يكون لبابها، وتمر الشهور فإذا بصديقنا الكاتب يجمع هذه الرسائل المغلفة بالمجاملة وينشرها فى كتاب لتمجيد شخصه وتاكيد قدراته، مع إنه لا يصلح - فى معظم الأحيان - لأن يكون كاتبا او مساعد كاتب.

لكن ناشر كتبى صمم ذات مرة أن أقوم بتدشين مدخل الجزء الأول من كتاب «حرق دم» ولما كنت نافرا من تسجيل اعترافى بفضل الأب والأم والزوجة والأنجال والأساتذة والأصدقاء والذين علمونى حرفا فأصبحت لهم عبدا، فقد كان إهدائى بالنص: إلى قطتنا الجميلة، التى فى كل موسم تلد، وفى كل موسم تسعدنا بالتهام أولادها، وقد نجح الإهداء نجاحا باهرا، وها أنذا أسعى كى أقتنص إهداء جديدا للجزء الثانى، والذى لابد أن يكون لكلب أو شرطى أو غراب أو زوجين من الحمام المحشو بتوابل الفن والأدب، جعلك الله ذخرا للأمة العربية وثقافتها.

٢٤ علم المستقبل

علم مسك السيرة

هذا الاهتمام العاصف الذى استقبلت به الجماهير الكتاب الذى صدر عن اينشتين، يدفعنا إلى اهتمام أكثر عصفا بالجماهير ذاتها، ذلك لأن الناس - شرقا وغربا - وطوال احقاب التاريخ، لا يزالون يودون حرمان الاعلام من علماء وأدباء وفنانين من الحياة، معتقدين أن متعة واحد مثل اينشتين تتوقف عند حدود اكتشافه البعد الرابع فى قوانين الوجود المتمثل فى الزمن بعد الطول والعرض والارتفاع، أن فرحة اينشتين الوحيدة كانت فى حصوله على جائزة نوبل، او فى تطبيق نظريته الخاصة بالطاقة المساوية للكتلة مضروبة فى مربع سرعة الضوء والتى اودت بمدينتى هيروشيما ونجازاكى اليابانيتين، وهو افتراء على الرجل الذى من حقه - بين كل نظرية وأخرى - أن يتشاجر مع زوجته، وبين كل تحليل رياضى وتدليل فلسفى أن يلقى فى وجهها بصحن طبيخ بايت ثم يلقى عليها يمين الطلاق، ثم يقضى وقتا - بين كل تجربة عملية وتأمل فى الكون - مع الوسطاء الساعين فى الخير المكلفين باحضار زوجته من بيت ابيها، وعليه - بعد الرد على ورقة الاستفسار العلمى الواردة إليه من أساتذة الطبيعة بجامعة هارفارد أن يقوم إلى ابنه فيأخذه قلمين على وجهه الغض لأنه يسمع مايكل جاكسون او احمد عدوية، أو يتعمد ألا يسمع زوجته وهى تبدأ الحوار التمهيدى الرقيق المعروف - والذى بموجبه سوف تطلب زيادة مصروف البيت .

وحتى المساجلات البالغة العلمية التى يقوم بها اينشتين مع أصدقائه المقربين، والتى يستمتع فيها باسترخاء انسانى ممتع وهو يمسك سيرة زملائه علماء تفتيت الذرة وانهيار قدراتهم الخاصة مع نسائهم ولجوئهم إلى البرشام الخاص بذلك - تود الجماهير حرمانه منها، ليتحول العالم الشهير كما يتصورونه - إلى رجل يرتدى ملابسه الرسمية الكاملة التى يظهر بها فى صور المؤتمرات، فينام بها، ويتناول طعامه بها، انظر إلى اينشتين وهو يرفع طبق الشوربة بحريق البقدونس وفتافيت كبدة البط مع الفلفل الأسود وقليل من الخل، يرفع

هذا الطبق الدافيء إلى فمه لأن الملعقة لم تسعفه فى اشباع غليله منها، وانظر إلى عدم اتقانه احتساء هذا الحساء فيسيل على صدره ممتزجا بموسيقى الدانواب الأزرق، وعليك أيضا أن تنظر إلى احتمال أن يأخذ رشفة مبكرة من هذا الحشاء الذى يكون فى هذا الوقت بالذات بالغ السخونة فيترجرج وينسكب كله على صدره الانيق، فهل تحرمه بعد ذلك من أن يلعن اليوم الذى أودى به بين احضان صانعة الشوربة هذه ؟؟

فإذا تركنا اينشتين جانبا، يداعب قططه وقد ارتدى جاكتة بيجاما مخالفة ومناقضة للون بنطلونه (انا لا امسك قططا وارتدى جلبابى على اللحم) فسوف نضطر فى سعادة بالغة إلى تلمس الطريق إلى الحياة اليومية العادية لنجوم السياسة والعلم والفن والاقتصاد والتليفزيون والأدب، وعلى الجماهير أن تخفى انزعاجها الرومانسى الدافق، فقد كنت أعمل ذات كفاح فى معمل تحميض افلام سينمائية فى أوائل الستينيات ، وكان كثير من هؤلاء النجوم يهوى التصوير السينمائى بكاميرات أفلام الريفرسال ، وهو نوع من الأفلام التى يتم تحميضها وعرضها مباشرة دون أن يكون لها نيجاتيف . (وقد قضى عليها تصوير الفيديو فيما بعد)، ومن بين هواة التصوير نجمة سينمائية. اعتزلت منذ سنوات - كانت تحضر فيلما بين الحين والحين قد صورته لابنتها الوحيدة، ولأنى ريفى قروى فلاح مغرم بنجمات السينما المتعلقات فى الأجواء الحالمة فقد راعنى أن نجمتى المحبوبة كانت تأتى إلى معمل التحميض وقد ارتدت نوعا من الشباشب المنزلية جدا والتى لا تصلح للخروج بها (ولا حتى ركوب السيارة)، وبنوع من السلوك المتبسط (والفرق بين البساطة والجليطة - دقيق جدا) كانت تختلط بالعاملين فى المعمل وتشاركهم الاكل والمشروبات، ثم حدث أن أحد افلامها الريفرسال اصابه التلف نتيجة سوء التصوير او سوء التحميض او سوء خامة الفيلم نفسها، فإذا بهذه الفنانة الجميلة البسيطة تتحول إلى بنت شوارع وقعت فى خلاف مع بائع الفجل - أو مع جيرانها، انفعال أحمق وألفاظ سوقية وحركات (سينمائية) لا تتناسب مع صورتها، ولا مع السيارة الفارهة التى تنتظرها، بل وكادت أن تمسك مدير المعمل من ياقة معطفه المعملى، انا أخذت اجازة عارضة فى اليوم التالى كى أرتب - فى ذهنى بعض الصور - وكان واضحا ان المشكلة ليست فى نجمة السينما، بل فى أفكارى القروية التى أطل منها وأتعامل بها - مثل بقية الشعوب - إلى النجوم، وعندما كبرت أصبح ذلك عاديا، عاديا لدرجة انى تمنيت أن نتخلى عن مفاهيمنا (الرومانسية) التى تربطنا بهؤلاء النجوم، وخصوصا العلماء وذوى الحظوة لدينا من المفكرين الذين نتعامل معهم بموجب

الموروث من علم السيرة، إلى علم مسك السيرة.

نعلم السيرة شائع وراسخ ومنتشر، تراه فى الكتب وعلى السبورات وعلى ظهور الكراسات وفى تعليمات طوابير الصباح المدرسية وأوامر الآباء والمدرسات، علم مهذب مؤدب يرى فى السيرة الشخصية للأديب او العالم او اى نجم محبوب ما يحب لك أن تراه من تهذيب وتأديب وأخلاق فاضلة، وهو الجزء الذى يسمح به المحيط من جبل الثلج، وتسمح به المجتمعات وتقاليدها من أخلاق ابطالها فى كافة المجالات.

أما علم مسك السيرة - الذى ظهر فى العصر الحديث - فهو علم هادىء مسترخ واقعى، وبموجبه يتم فرش سيرة هؤلاء الأبطال والنجوم على المصاطب وفى الديوانيات وفى السطور الخبيثة المختفية فى كتابات الصحف، ومع انه علم لم يستقر بعد وبشكل رسمى فى مجتمعاتنا الشرقية، إلا اننا نمارسه بكافة تخصصاته بعيدا عن الكتب والأفلام، أما فى أوربا فلم يعودوا يندهشون ولا يفتحون أفواههم فزعا بعد أن استقر علم مسك السيرة عندهم، حيث ظهرت صياغات واقعية لحياة البارزين من ابطالهم قديما وحديثا، صياغات من واقع حياتهم، ومن استنتجات وتحليلات واضعى ومحققى (مسك السيرة) وليست من الصياغة الرسمية الشائعة البارزة من حياتهم، وبهذه الطريقة كتبوا عن بودلير وشكسبير وديكنز وبلزاك وموباسان وتشرشل وكنيدى وديجول وموسولينى - ونوبل نفسه صاحب الجائزة الشهيرة، كتبوا ما لا يمكن لك تصوره، لا يضعون قيدا على سرد الحقائق إلا قيمة الحقائق ذاتها، فهو - العالم أو الأديب - الذى يصوغ نظرية ارتباط الكون يمكنه بنجاح موثوق به أن يسرق بائعة بصل فى عدة قروش، وهو القادر على أن يدخل فى مشاجرة مع بائع جيلاتى، وهو الذى قد يقوده مصيره إلى المحكمة لأنه بدد أثاث الزوجية وامتنع عن الاتفاق على عياله دون اهتمام بأن فى مدخل جمجمته براءة شهادة جائزة نوبل معلقة فى الطاقة التى تساوى الكتلة فى مربع سرعة الضوء.

وعندما ندرك اهمية علم مسك السيرة، سوف نجد كثيرين يتخصصون فيه، وحينئذ سوف يصبح مهولا أن تعود لقراءة حياة العقاد وأم كلثوم وطه حسين والمازنى وعبد الصبور ومارى منيب وشكرى القوتلى وبورقيبة وشادية والخمينى وعبدالكريم قاسم وصلاح أبو سيف والمتنبى وعنترة بن شداد.

وحتى يأتى ذاك اليوم سنظل نبرز ما نود ابرازه فقط من حياتنا البلهاء المتخفية وراء أصغر جزء من جبل الثلج الذى ثلاثة ارباعه فى الماء.

وستمتلىء محاكمنا بالقضاء.

٢٥ طه حسين عبدالعزيز

كنت فى سن مبكرة حينما قطع طه حسين طريقى، لم اكن اعرف عنه شيئا أكثر من اسمه الذى يتردد بين مجالس عموم مدرسى (الالزامى) او المدارس الأولية التى كانت شائعة فى ذلك العصر، وكنت قد صادفت «ارسين لوبين» هذا اللص الظريف المتقافز على الحوائط وداخل القصور وحانات الليل، ومواسير نقل مياه الصرف، وبيده أو فى وسطه أو فى جيب بنطلونه لابد أن يكون قد احتفظ بالمسدس، الذى يخرجه فى أكثر الأوقات انغلاقا وحساسية وحرجا، وكان لوبين ينجح - مهما كانت العوائق أو الكمائن - فى الحصول على المال والجواهر (وفى مرة نقل خزينة بنك)، فى طبعات الترجمات الملخصة الرخيصة المنتشرة الشهيرة بكتاب الجيب، وفى هذه الظروف لم اكن مهيا ان اتخلى عن أرسين لوبين او جعله يتخلى عنى، حتى والأستاذ عبدالله ملك يعطينى روايات جورجى زيدان (التى شرحت لنا تاريخ الاسلام اكثر مما شرحته كتب التاريخ ذاتها) او تلك الروايات التى عرفت فيما بعد قيمتها: الاخوة كرامازوف، والحرب والسلام، وداعا للسلاح.. ثم قصص احسان عبدالقدوس التى كان يتيه بها الأقران، كل ذلك لم يجذبنى بعيدا عن هذا اللص الظريف، حتى داهمنى طه حسين!!

كان الكاتب صغيرا، التهمته فى ساعات قليلة، وكان عنوانه بالغ الموسيقية والتأثير: المعذبون فى الأرض، ورأيت فيه لأول مرة فقراء أكثر فقرا من كل ما يحيطنى، واسلوبا أشد جاذبية وشجنا من كل عناوين الكتب المحيطة بى ومن كل الأساليب الجانبة، وأكرمنى الله بكتابين لنفس هذا المؤلف المؤلم الساحر الجميل: الوعد الحق، الأيام، لكن استقبالى لهما كان مضطربا، غير أن الضجيج حولى والذى يلهج باسم طه حسين دفعنى إلى أن احاول وأن اصبر، ذلك اننى فوجئت أن الرجل نجم يعلو فوق كل النجوم، يتكلم عنه الفائزون والمدرسون والموغلون فى التعاطف مع الاحزاب ايامها. كنت اعتقد ان طه حسين مجرد كتب

مكتوبة، لكنى رأيته ممتزجا بحكايات لا أول لها ولا اخر عن ذلك النابغة الضرير، والذى يأتى اسمه فى الصفحات الأولى للصحف، ليس ممتزجا فى الحكايات والكتب فقط، بل فى هذه الدفعة القوية التى ادخلت جيلى كله فى المدرسة دونما نظر للفقر او الغنى، ثم كانت تلك اللحظات المتأججة بالسعادة حينما رأيت طه حسين وهو يتكلم مفتتحا الفيلم الذى أخرجه له مخرج لم يخرج فيلما اخر بعده أو قبله، ولم يعد يعرف أحد عنه شيئا: ابراهيم عزالدين، كانت السينما غاصة بالناس تحت سطوة الاحساس الدينى العارم ليشاهدوا: ظهور الاسلام، المأخوذ عن كتابه «الوعد الحق»، كان جالسا فى كبرياء ليتكلم لأقل من دقيقتين، حينئذ سقط أرسين لوبين وشرلوك هولمز والفرسان الثلاثة، ومغامرات طرزان، تحت أقدام الوعى، ولم اترك - دون قراءة - سطرا لطه حسين استطعت الوصول إليه، وعرفت ممن فى بيوتهم راديو أنه يتكلم أحيانا فيه، والذين بلا راديو ولا صحف منتظمة أمثالنا كان هذا الساحر قد امتزج فى بيوتهم فى الخبز والكراسات والحقول ومستنقعات البلهارسيا، الهتافات ضد الانجليز والأسواق والمصاطب واستدعاء العيال للمدارس، كان الرجل قد أصبح وزيرا، وارتفعت كلماته عن حقنا فى التعليم مثل حقنا فى الماء والهواء، الى الذروة، وازعم أن طه حسين شارك ثلاثة فى الوصول إلى عمق أعماق الناس: قبله سعد زغلول، وبعده جمال عبدالناصر، دون اهتمام بالمسئوليات الثقافية والعقلية التى ينتمى إليها هؤلاء الناس.

ومرت الأحقاب الطويلة فى المدارس والتعطل والبحث عن عمل، ثم الانشغال فى أعمال متعددة، ورأيت خلال ذلك معظم جيل طه حسين وبالذات العقاد، الذى شاهدته فى أسوان مهيمنا على الناس هناك. حيث كان ماردا عملاقا، يزور أسوان شهرا كل شتاء، فيجتمع تلاميذه ومريدوه وحافظو أشعاره ومواقع صراعاته الأدبية والفكرية، والذين كانوا لا يتكلمون فى حضرة الأستاذ المارد إلا اذا سمح لهم بالاشارة او بايماءة الراس، او بنظرة العين!!

لكن طه حسين ظل بمنأى عنى، حتى وأنا أتعصب له فى مشاجراتنا المبكرة غير المدروسة، وحتى وأنا أتزثر باسمه - بالفهم وبالجهل - بصفته وُلِدَ فى منطقة لا تبعد مسافة لا تتعدى القروش القليلة، والمجاورة لنا، فى قرية بمركز ابو قرقاص، وحتى وأنا ازداد ابحارا فى الفتنة الكبرى وأديب وأوديب ملكا وحديث الأربعاء وشجرة البؤس ودعاء الكروان وكتابه الخطير (الأدب الجاهلى) والذى كان اسمه: «فى الشعر الجاهلى» حتى وأنا أسافر من

أسوان للقاهرة لأشاهد مسرحيات سعدالدين وهبة وميخائيل رومان وموليير فى المسرح القومى، ظل طه حسين بمنأى عنى!

وفجأة تغيرت أمورى، انتقلت من شركة المقاولات التى كنت أعمل بها فى أسوان، لأصبح موظفا وأين؟ فى مجمع اللغة العربية بالجيزة، والذى يرأسه طه حسين شخصيا!

كان ذلك أوائل عام ١٩٧٠م، حينما رأيت طه حسين رأى العين، كانت ظروفه الصحية بدأت تدخل مراحل مؤلمة، وأصابنى حزن وشجن حينما جاءت سيارته ذات الطراز القديم، والعادة جرت أن مراقب المجمع - محمد حامد - رحمه الله يعرف فى الوقت المناسب لحظة وصول (الباشا)، كانت الألقاب (بك - باشا) قد اندثرت ولم أعد أسمع منها شيئا طوال السنوات الثورية الماضية، لكن العاملين فى المجمع لم يكونوا يتفوهون باسم طه حسين أبدا، فقط: سعادة الباشا، وعندما أصدر مراقب المجمع أمره بتوقيع وصول الباشا، رأيت أربعة من العمال يقفون بالباب الخارجى للمجمع، وظللت واقفا مستطلعا ومضطربا، (ولازلت أعانى من الاضطراب كلما واجهت موقفا يحتاج إلى هذه الطاقة من حب الاستطلاع)، وبمجرد وصول السيارة، أحضر العمال مقعدا، وحملوا فى رفق سعادة الباشا من السيارة ذات الطراز القديم، ووضعوه على المقعد فى رفق أكثر، وحملوه صاعدين به سلالم المدخل الرخامية الواسعة حتى أراحوه وراء المكتب فى حجرته الواسعة!

وعندما عدت الى نفسى ساحبا خيالى المتخبط وسط الاف الذكريات والمؤثرات فى الكتب والكلام والدروس والامتحانات وكل ما يعتلج به التاريخ، كان أساطين المجمع من دكاترة وأساتذة وأعضاء وخبراء، قد جاءوا جميعا لتحية سعادة الباشا.

ووضعتنى ظروف عملى قريبا منه حينما يأتى إلينا فى هذه الزيارة الاسبوعية المرهقة، اذ كان لابد أن اطلعه على ما تم من اجراءات حول مشروع المبنى الجديد لمجمع اللغة العربية، وفى الدقائق التى كنت أحظى فيها بالمثول مع أوراقى أمامه، كان يسألنى فى هدوء بالغ التأثير الممزوج بالسخرية.

لماذا يدعونك بالمستجاب...؟!

وكنت أوضح له دائما - وفى اختصار شديد - أن هذا الاسم لجدى وليس اسم العائلة، وأن الاسم يخلو من أداة التعريف، مستجاب فقط وتكون مهمتى قد انتهت!

أربع سنوات ظللت فيها تحت رئاسة سعادة الباشا، ولكن السنة الأخيرة - وقبلها بفترة أيضا - كان قد أصبح صعبا أن يأتى لدار المجمع، وفى الحالات التى لابد لادارة المجمع أن تأخذ رأيه فيها، كانوا يتوجهون اليه فى بيته، ثم تلاشى ذلك بعد صعوبة التعامل معه فى

حالته هذه، والتى كانت تدعو الجميع إلى عدم إرهاقه بالمرة!

وفى الاسبوع الأخير من أكتوبر ١٩٧٣، وبعد أن حقق الجيش المصرى العربى انجازه العظيم بالعبور ومداهمة الجيش الاسرائيلى فى سيناء، ومع المضاعفات والوقائع الغامضة أو الواضحة التى أدت إلى اختراق الجيش الاسرائيلى لمنطقة قناة السويس، وفى صباح مبكر ليوم لا أنسى تفاصيله، جاء صوت فى سماعة التليفون يحمل الخبر المؤلم:

- الباشا، تعيش أنت!!!

كان الذى يحدثنى صوت نسائى، أعتقد أنه صوت أمينة ابنته حيث لم تكن به اللكنة الفرنسية كالتى فى كلام سوزان زوجته.. وكنا فى الساعة السابعة صباحا، حيث كنت متواجدا بدار المجمع بسبب ظروف الحرب والطوارئ، التى جعلتنى أمر.. بصفتى مسئول الأمن أيامها - على المجمع ليلا وصباحا، وعندما سمعت الخبر اضطربت اضطرابا شديدا، فإن عمرى أنا وعمر كل الناس ارتبط بهذا الذى نقلت سماعة التليفون خبر رحيله عن الدنيا!

واستعدت هدوئى، وكان أول ما فكرت فيه هو الاتصال بمراقب المجمع لأنى لا أعرف ماذا افعل بالضبط، ثم بعد دقائق اتصلت بالصحفى الذكى النشيط «كمال الملاخ» الذى قام بدوره بالتأكد من صحة الخبر عن طريق الاتصال ببيت طه حسين نفسه!

كل شىء جرى بعد ذلك بسرعة.. فقد أصدر محافظ القاهرة قرارا بتخصيص مقبرة لائقة هدية من الحكومة للراحل العظيم، دعك من طوفان السائلين والمعزين، ثم عرفت أن الجنازة لن تخرج اليوم وربما غدا حتى يتم ترتيب طقوس ملائمة مع انتظار الوفود المشاركة، وفى الظهيرة تم تكليفى بأن أتوجه الى المبنى المختص لأنهى اجراءات قرار تخصيص مقبرة لائقة بهذا الرجل الكبير.. وأعطانى مراقب المجمع نقودا، حيث سأحتاج إلى رسوم نقدية قليلة لأوراق تخصيص المقبرة المجانية..

عندما استقبلنى موظف كبير أحسست بالمعنى الأكبر لقيمة طه حسين، أخذنى من يدى واستصدر المذكرات المرافقة والضرورية لقرار السيد المحافظ ثم ربت على ظهرى مشاركا، وأشار لى أن أذهب إلى المبنى الآخر فى عابدين المواجه لهذا المبنى كى أدفع الرسوم وقيمة الدمغات!

كنت فى حالة غريبة وأنا أسعى فى اجراءات تخصيص المقبرة التى سوف يرتاح فيها طه حسين العظيم، نوع من السعادة والأسى والفخر ممزوجة بآلاف الذكريات والقرارات، وكلما تحركت نحو أحد يهب لمساعدتى: طه حسين، ونعم الرجل، فليرحمه الله، ويحكى

حكاية تخصه مرتبطة بطه حسين، مصاريف مدارس وأكل فى المدارس وشكاوى ضد من يقف ضد آمال الفقراء فى التعليم والتثقيف، حتى وقفت فى طابور طويل أمام الخزينة!

كان أمين الخزينة طويلا حتى أن الخزينة كانت تصبح قريبة من بطنه يمسك الورق ويأخذ النقود، ويكتب الايصال المطبوع ذا الصور الكربونية ثم يختمه ويعيد الأوراق لصاحبها.. وبعد دهر من الانتظار أصبحت أمامه، أخذ الورق ونظر فيه، ورفع الأوراق العليا وأمعن فى قرار المحافظ، ثم قال وهو ضيق الصدر:

- الاسم ثلاثى لو سمحت!!

ومد الموظف يده بالورق الى.. فقلت فى ارهاق:

- ده ورق المرحوم طه حسين..

نظر الموظف إلىّ فى ضيق وسألنى:

- طه حسين مين!!

احسست بأن الطابور الذى خلفى ارتبك، وتسربت كلمة طه حسين مع الأفواه، لكن موظف الخزينة عقد يديه أمامه فى رفض وقال فى حسم ساخر:

- والله لو كان محمود المليجى، ادينى الاسم ثلاثى انا تحت أمرك.. اللى بعده..

(الله يخرب بيتك.. ألم تسمع باسم طه حسين من قبل؟)!!

ووقفت حائرا، معنى ذلك أن أخرج من هذا الطابور الطويل وأن ألجأ للتليفون أو أذهب بنفسى إلى الجيزة.. وياترى سأسأل مين! أو أجد مين؟

وقال الذى يقف خلفى وقد مصمص شفتيه:

- الله يرحمه كان راجل عظيم!

وضاغطنى من الخلف كى أخرج من الطابور، حينئذ تناولت قلما وكتبت - مستخدما الاستناد على ركبتى - طه حسين عبدالعزيز.. وبدأت أضيف عبدالعزيز الذى هو جد طه حسين على كل الأوراق حتى قرار السيد المحافظ!

ولم أسأل حتى اليوم، من هو جد طه حسين الذى بالتأكيد ليس (عبدالعزيز!) بالمرة..

٣٦
الهروب

ظللت العام الأخير عاملا ميكانيكيا ينام تحت سيارة، ظهره إلى الأرض وعيونه وكفوفه وأصابعه تتشبث بالمفاتيح المشدودة فى بطن السيارة، هذه السيارة المكتظة بالأسرة والأصدقاء والورق والأقلام وقلق النوم والقصص والمناوشات.. والثرثرة والأكاذيب والضجيج والمدارس وكسوة الشتاء.. القاهرة كلها تجثم فوق صدرى المكدود.. وعندما اتصل بى مندوب وزارة الثقافة يخبرنى بدعوة ابراهيم الخليل بصفته المهيمن العام على ثقافة الوادى الجديد، لزيارة المنطقة، سعدت سعادة قصوى وبدأت أثابر للخروج من تحت السيارة، ولما أخبرنى انه قد تم حجز تذكرة بالطائرة كدت أعود تحت بطن السيارة مرة أخرى، ولماذا الطائرة؟.. الجميع سوف يسافرون بالطائرة.. لا.. سوف أسافر بالقطار، وهكذا بدا الأمر وكأننى أخشى ركوب الطائرة تلك التى سوف تنقلنى إلى الواحات فى آخر الطرف الغربى الجنوبى من مصر فى أقل من ساعة، وكان واضحا أن المندوب الثقافى ينتظر أن أقنعه بسبب تفضيلى القطار على الطائرة.. وكطفل مدلل أحمق طلبت منه محتدا أن يتركنى كى أتصرف وأرتب مسائلى بعيدا عن الطائرة، وهكذا أرسلت أصغر الورثة من أسرتى ليحجز لى مقعدا فى القطار المبكر المتجه إلى أسيوط. كان باقيا على الرحيل إلى الوادى الجديد خمسة أيام..

ولما كنت قد نظفت يدى ووجهى وجسدى وملابسى وفؤادى من شحوم وزيوت السيارة بالقاهرة، فقد استعصى علىّ أن أعود تحتها، ولذا اتصلت بالصديق القديم دكتور ياسر العدل ذى السيارة الصغيرة، والذى يعمل فى منصب أستاذ بجامعة المنصورة شمال شرقى دلتا النيل، الذى جاء ملبيا رغبتى، حيث قمنا مبكرين لنخترق الدلتا شمالا، بلدة الشاعر عبدالله السيد شرف فى صنانيد فأكلنا الحمام (كل واحد حمامة واحدة فقط نموذج للتقتير)، لكن زوجته الطيبة منحتنى كيسا ضخما به كمية من الفطير المشلتت الجميل الذى

لا احبه ابدا، وكان الفطير - رغم ذلك - جديرا بأن نمتلكه وليكمل معنا الرحلة، قرص منه كنا نهديه لجار النبي الحلو بصفته اديبا متميزا بالمحلة الكبرى، لكنى أمسكت واستخسرته فيه بعد ان امتنع عن الكلام فى تجربته مع مجلة اطفال القاهرة.. (ولم ندخل طنطا لأن الذاكرة لم تسعفنا بشاعر يصلح للمجالسة).. نفس قرص الفطير للشاعر رضا البهات بالمنصورة الذى حازت روايته (بشاير اليوسفى) قبولا، والتى لم أقرأها حتى الآن.. وظللت طوال الليل فى بيته ارجوه أن يقرأ لى قصة جديدة، فيوافق ويراوغ فى الصباح.. (هل لم يكتب سوى بشاير اليوسفى؟).. ثم أكلة سمك بورى مشوى عند الأستاذة فوقية عيد زوجة الدكتور ياسر مرافقى، والعودة - بعد كل هذا التسكع - إلى القاهرة، دون الولوج إلى طنطا، حيث لم تسعفنى الذاكرة بمن يستحق الزيارة.. ولكن المنصورة قدمت لى هدية لا تنسى: فقد تعرفت على الدكتور ناجى خشبة الواقع فى أسر فؤاد قاعود واحمد فؤاد نجم، والذى - والحمد لله - وقع فى أسرى أيضا، حيث قضينا ساعات تجول فى بيداء الأدب وواحاته حتى منتصف الليل، لأعود - بعد تلك الليالى - إلى اسرتى بالقاهرة سليم الفطائر!

كل ذلك. كان المقدمة الهادئة كى أركب قطار الصعيد فى الصباح المبكر، ذلك أنك لو كنت فنانا حساسا وذكيا لما استخدمت تلك الطائرة التى تقدم لك فى سرعة مجموعة من الغيوم والضباب تنام تحتها أشباح من خطوط الوادى، دون متعة الفرجة والامعان.. لكن الطائرة تظل حلم الذين يودون الشعور بالأهمية القصوى، مع انهم لا يملكون إلا الوقت الذى يهدرونه على المقاهى، فلماذا لا استمتع بخضرة وجبال وبيوت وانماط وأزياء ونخيل هذا الوادى؟

وعليه، فقد امتطيت القطار المبكر مخترقا الصعيد، سلمت نفسى للاسترخاء دون قلق الترقب والوصول، فهل انا ذاهب كى اترافع داخل محكمة فى موعد محدد لكى يفكوا المشنقة عن القاتل؟

وتوقفت عن التدخين بناء على تعليمات جدران القطار، ورفضت أن ألجأ لما بين العربات كى ادخن - متلصصا - كما يفعل باقى المسافرين!

وبعد ساعات من الامعان والمتعة ومداورة ضوء الشمس واستثارة ذكريات هذه البقع الممتدة على ترعة الابراهيمية، وصلت اسيوط ليستقبلنى الصديقان المتميزان: سعد عبدالرحمن ودرويش الأسيوطى.. وبين الوصول وقيام الباص (الاوتوبيس) إلى الواحات لازالت بعض ساعات أهدرتها على مائدة مكتظة وسريعة فى بيت سعد عبدالرحمن، والذى

اثبت بابنته الجميلة الصغيرة (سمر) انه احسن الأدباء المصريين، ويكرمه الصعيدى انه احسن الشعراء العرب.. هل تعرف شاعرا بخيلا؟ أنا أعرف، لكنى هرعت مع سعد إلى حيث أوتوبيس المرحلة التالية الذى بدأ التحرك وفى آخر دقيقة، حتى كدت أعيد النظر فى تقييمى السابق لصديقى الشاعر الذى كان سببا فى التأخير!

عندما اتجهت السيارة غربا، مخلّفة وراءها ضجيج وعقد وادى النيل، اى عندما استوت السيارة على خط الطريق المنساب على وجنة الصحراء، احسست بأننى أخرج من كهف ضيق مخنوق، واننى اتنفس لأول مرة فى عمق، هذا الامتداد الأصفر اللانهائى يسحبنى إلى اماد موغلة فى الأفق، مشهد يختلف فى مساحته واتساعه وارتياحه عن هذا التجهم المكفهر الذى يحاصرنا بين جبال سيناء او جبال الصحراء الشرقية، حينئذ يصبح من المناسب ان ترتد إلى طفولتك وإلى ذكرياتك وإلى انتصاراتك المتوالية. حيث الجو الممتع لا يسمح لك أن تتذكر الهزائم، والاكثر متعة أن تخترق - مع كل هذا الأصفر الممتد - أعماق التاريخ، شجرة الدر المقتولة فى الحمام بقبقاب سميك.. اخناتون وهو يداهم كهنة أمون فى بؤرة معتقداتهم.

رمسيس وهو يشطب اسماء وأمجاد اجداده ليحل مكانها اسمه ومجده فوق كثير من المعابد والمسلات والتماثيل (ليورثنا مرض صياغة الماضى لحساب القائم)، القلق المستشرى فى الوادى نتيجة الغلاء والاحساس باللاجدوى، الجماعات المتطرفة وهى تصطاد كل يوم فريسة لها من الذين ترى أن اغتيالهم سوف يدفع السلطات إلى الاضطراب أكثر.. قريبتى خريجة المعهد العالى للتربية الرياضية (كانت أولى تجاربى العاطفية) وهى تتزوج من أحد الضباط وتنجب، ثم تسافر إلى أمريكا تحصيلا لأعلى الشهادات والتخصصات، فتتزوج أمريكيا من سلالة فحول رعاة البقر، ولا تعود من هناك حتى اليوم! و أبوها قادر على فلسفة الكوارث بشكل يرضى جميع الأمم، المقالات التافهة التى تستر الأوضاع التافهة وكأن الناس لا يستطيعون التمييز.. مذيعة التليفزيون التى يشر فمها بالكلام دون تحكم واتقان، والتى تعطيك احساسا بأنها خارجة لتوها من الحمام!! لماذا يارب أتذكر كل هذه المسائل الواخزة؟ وظل الأصفر يتمدد، ويمتد، فى هدوئه الخلاب، لكن العين الفاحصة - مثل عينى - يمكنها أن ترى الأخطار تحت كل هذا الهدوء، اذ لا يلبث الطريق المرصوف أن يخرج من تحته طريق مرصوف آخر لكنه مهجور، حيث يبرك جبل ضخم من الرمل قاطعا الطريق، فلا يبقى ظاهرا سوى أعناق عواميد الكهرباء أو البرق أو التليفونات، انه الغرود - وهذا اسم الجبل المتحرك - الذى ترفعه الريح والعواصف والأعاصير من موقع بعيد ليحط على الطرق

المرصوفة، فيلجأ الناس إلى استحداث طريق اخر لاستحالة إزالة كل هذه الرمال، غير أن كل ذلك يعطى للمتعة لونا مأساويا مقبولا، حتى المآسى فى الصحراء أكثر جانبية من مآسى الوادى الأخضر المزدحم الملوث الكابى المكفهر، وحينئذ تذكرت صديقا - له فى القلب مقام وموقع - اقام بيتا فوق القمة المرتفعة لهضبة المقطم القاهرى فى منتصف الستينات، وكنا نتهامس ضده بسبب هذا السلوك البرجوازى الذى يجعله يصعد كل هذا الارتفاع المنعزل، مع أن القاهرة أيامها كانت نظيفة ناصعة قليلة الضجيج، ومتألقة أيضا، غير أن الأيام سارت فى صالحه وهاهو الآن يرمق من بيته الجميل العالى - اللهم لا حسد - الغيوم السوداء الكثيفة فوق وجه المدينة العابس، والتى تنام تحت أقدامه فى ضجيج واضطراب، عند ذاك احسست بأضواء متهافتة تشير إلى ظهور العمران، بدأ الأخضر كالسراب من بعيد وقد احتضن ضوء الشمس، ضوء أجمل شمس يمكن لك أن تراها، ولم نخترق الليل طويلا، اذ لم تلبث السيارة أن تهادت فى الشوارع الواسعة لعاصمة الوادى الجديد (واحة الخارجة)، وبيوتها التى لاتعلو عن طابقين إلا فيما ندر، ونظافتها التى تعطيك احساسا بأن الزمن لا عمل له فيها سوى مسح الغبار عن وجهها، تمنيت أن أعود عيلا صغيرا شيطانا يلعب وسط هذا البراح الأخضر الجميل المحفوف بالاطار الأصفر اللامع!

دعك من الشعر والقصة فى الوادى الجديد، فقد ثارت المشكلة بسرعة لم أكن أتوقعها، ذلك أن سيد خميس - الناقد القادم بالطائرة - رأى أن ما قدمه أدباء المنطقة، وأدباء المناطق المجاورة ليس فيه التميز المأمول.. وعند تعليقى أوضحت أن الواحات أكثر كرما فى واقعها من كتّابها، تصور أن الغرود - الجبل المتحرك المشار إليه - يقطع الطريق، ومع ذلك يظل شاعر الواحات يتغزل فى عيون حبيبته بطريقة قاهرية! اى بالطريقة التى ينسج على منوالها شعراء العاصمة قصائدهم، وتصور أن الافا من الأفدنة المهيأة للزراعة ظلت مجدورة من أثر المحاريث لكن المياه الجوفية انخفضت مما استحال معه سقيها، ومع ذلك لايزال كاتب القصة هناك يجمع نثار افكار الغربة والحرمان والاضطراب الذى يشقى به كاتب العاصمة، وكل العلاقات الاجتماعية والمداهمات الحضارية الحديثة لسكان الوادى، وما يتحكم فيهم من ثقافة بدأت تنزاح تحت مداهمة التليفزيون، كل هذا لا يصنع قصة خاصة بهم، وانقلبت الدنيا فوق رؤوسنا، فقد كنا نتكلم بطريقة لا محاباة فيها لأحد أو لوضع ونحن نعلم أن غيرنا من الأدباء جاء إلى هذا المكان النائى، وأظهر اعجابا بكتاباتهم - ليختصر وجع الدماغ - أدى إلى حبهم العميق له، ولذا فقد أصبحنا متحررين - أنا وسيد خميس - من أية

مجاملات، وفى حالة من المصارحة التى لا يطبقها الكثيرون، إلا أن ابراهيم الخليل، مدير ثقافة الواحات - أبدى ارتياحا واضحا.. فشعرنا بالسعادة..

ثم دع جانبا هذا الأكل المقدم إلينا فى تلك الاستراحة الوزارية، ملعقة من الطبيخ، وملعقتان من الأرز، وأثر من دجاجة هى بطبيعتها لم تصل لأن تكون دجاجة، أو قطعتان واهنتان من اللحم، هما رمز للحوم وليستا تعبيرا عن حقيقة، فاضطررت فى آخر يوم أن أعلن غضبى، متجاوزا حدود المنطقة الحرجة التى تضعنا فيها حساسية الكلام عن الأكل، بصفتنا عربا مصريين نعتبر ذلك أمرا غير لائق، مع أن الأكل ليس فى المستوى المناسب، ليس فى كميته أو حجمه بل وفى أنواعه فكيف بالله تسافر ٧٠٠ كيلو متر ذهابا فقط وتخترق كل هذه الصحراوات، ثم يكون غذاؤك مما يوصف للمرضى من الأطفال؟! وأين مأكولات الوادى الجديد أليس فى الواحات بط ووز وحملان وجديان أم أن الذى أصاب النصوص الأدبية أصاب فى نفس الوقت المائدة المأمولة؟ وأصاب أيضا فرش الحجرات بالموكيت بدلا من الكليم الجميل المشهور؟!

لكن الأمر لا يخلو من طرافة، ففى اليوم الثالث زرنا واحة (بشندى) حيث استقبلنا أهم شخصية فيها، وما كاد يعلم أننا نعمل فى الصحافة (هل يفرق بين الصحافة والأدب؟) حتى فتح لنا الرجل مضيفته التى بدا أنه يستقبل كبار القوم فيها.. وبعد شاى الضيافة، رفضنا أن نستجيب لإلحاحه بالغداء شاكرين، وقادنا الرجل لمركز تنمية المجتمع الذى يشرف عليه ويعطيه كل وقته وجهده.. كان عبدالسلام سنوسى شديد الاحتفاء بنا، وكان مركز تنمية المجتمع قد اختصر تاريخنا وسلوك دول العالم الثالث أيضا، فبعد سور صغير قصير مساحة ممتدة وقد أخذت المزروعات الخضراء شريطا طويلا تحفها عوائق من الطوب الذى انسكب الجير عليه بقصد طلائه، فبدت واضحا البدائية وعدم الاتقان، غير أن هذه المساحة تنتهى بشاخص من تلك الشواخص التى تقيمها الشعوب لأبطالها، وعلى اليمين صف من الحجرات والغرف الصغيرة: الأمن، السكرتارية، الادارة.. الخ، وبين أبواب هذه الغرف لافتات ضخمة احتلت الحوائط واحدة منها شملت بيانا بأسماء المحافظين الذين توافدوا على الاقليم منذ عام ١٩٥٨، مع بيان الفترة التى قضاها فى المنطقة، والاهتمام بكتابة أسمائهم بشكل يرونه لائقا وفاخرا، ثم لافتة بها أسماء الزائرين من صحفيين وكتاب وممثلين وذوى الشأن، ثم أخرى تحمل رسوما بيانية عن الانتاج، كل هذا جميل يا أستاذ عبدالسلام، وعندما ندور حول كل هذه المنشآت الاحتفالية نجد فى الخلف مجموعة من

الغرف الصغيرة التى تقوم بتنمية المجتمع، أى تلك التى يعمل فيها مجموعة من قرية بشندى فى نسيج الكليم والمنسوجات اليدوية الصغيرة، وكان اليوم يوم جمعة - أى العمل معطل - وطلبت من الصحفية الصغيرة الجميلة المثابرة «سناء القصر» أن تصور كل هذا، لكنها كانت بلا آلة تصوير.. (هل رأيت صحفيا يسافر لزيارة موقع كهذا دون آلة تصوير؟!.. ماذا لو حدث ذلك منذ ثلاثين عاما ويكون رئيسها مصطفى أمين أو على أمين؟)!!

كان المكان خاويا هادئا، والمنشآت الاحتفالية الشامخة تستولى على ثلاثة أرباع المكان، فلم نجد بدا من توبيخ عبدالسلام سنوسى، ونتركه فى نشاطه المذهل فى هذا الموقع البعيد الجميل ذى العيون المصرية نحو العواصم البعيدة أيضا..

فى موط - الواحة الداخلة - فى آخر جنوب غرب الدنيا المصرية استدرجتنا عين الماء الساخن، والشاى الردىء، إلى قضاء وقت ممتع فى الماء وعلى حافة الماء وبين الاحساس اللذيذ ببكارة الماء، وربما كانت هى العنصر الوحيد الذى لايزال محتفظا ببداوته فى الوادى الجديد، بعد أن غزت أشياء العصر كل البقاع، وكان لابد لى أن أعود إلى الواحات الخارجة بعد زيارة واحة القصر (اذا فاتك الزواج من بنات مصر - أى القاهرة - فعليك بالزواج من بنات القصر)، بعدها بدأت الواحات تنساب من تحتى بخضرتها الرائقة، ولأدخل من جديد فى الأصفر الممتد الأصفر الهادىء، الأصفر الأصفر، ذلك الذى - وفى هدوء - بدأ يسلمنى إلى وادى النيل، والذى كان يبتسم فى شراسة، وقد فتح فمه الواسع، وبدأ يلتهمنى ويخلفنى شرايين طولها الفان من الكيلومترات المرهقة السعيدة، لأعود عاملا ميكانيكيا ينام تحت سيارة وظهره على الأرض، وعيونه وكفوفه مشدودة فى بطنها المحشو بالقصص والقصائد والواجبات الأسرية والأصدقاء!!

٢٧ آه.. يا ليلة الجوائز

فى مكان ما - غامض وسرى جدا - وبالتحديد فى صوان ملابسى، يقبع وسام الفنون والعلوم من الطبقة الأولى، الممنوح لى بقرار جمهورى مقابل انجازى الرائع فى عالم الرواية، وقريبا من هذا الوسام الذهبى، أى فى الحجرة المجاورة التى استقبل فيها أصدقائى، تقف صورة جميلة على صدر الحائط وقد تألقت فى إطار من مادة ثمينة لا أذكر لها اسما، هذه الصورة تضمنى مع السيد رئيس البلاد، وكلانا يضحك مسرورا، وقد حاولت الا انحنى أمامه كما فعل جميع أساتذتى ليلتها - الذين حازوا الرضا الكامل المتمثل فى جوائز الدولة - تقديرية للكبار جدا - وتشجيعية للأشبال الذين كنت واحدا من أهمهم.

ليلتها - أى ليلة نوال الرضا واللقاء مع السيد الرئيس - كانت فى منتصف ابريل ١٩٨٦، مع انى حاصل على الجائزة المشار إليها، والوحيدة فى حياتى منذ عام ١٩٨٤، وكان معنا للمجموعة التى حصلت على الجائزة عام ١٩٨٣، والسبب فى ذلك أن العام الذى اغتيل فيه السادات ١٩٨١ تم ترحيل الاحتفالات أو الغائها مما جعل الكثير منها يتراكم فى سنوات تالية.

قبل ليلتها - تلك الموعودة - لم اكن أعرف ماذا افعل بالضبط، كانت الاحتفالات سوف تقام بالمسرح القومى وسط القاهرة، وهى منطقة طاردة لا يحب أصحاب السيارات وسائقوها أن يمروا بها، وظروفى لا تساعد على استئجار سيارة خاصة طوال ذلك المساء والليل، وحاولت أن استأنس المعونة من ذوى الخبرة فى التعامل مع الرؤساء، ذلك لاننى ياسادة فشلت فشلا ذريعا فى إدراك الفرق الشاسع بين لقاء الرؤساء وبين لقاء الشخصيات اللامعة الأخرى من أدباء وفنانين، وفى مرة كنت مع أول وفد من اتحاد الكتاب

سوف يلتقى بالرئيس انور السادات فى الاسكندرية وقامت الجهات المعنية من ثقافة واتحاد كتاب ومباحث ومخابرات بترتيب نقلنا من القاهرة إلى الاسكندرية، مع محاولة تدريبنا على ما يقال وما لا يقال، فى حضرة الرئيس، وكان الرئيس أيامها قد ذهب إلى اسرائيل وعاد فاشتعلت البلاد ـ كل البلاد مصرية أو عربية ـ بالصراخ والاعتراض والموافقة والتحليل والتنقيب والاستشعار عن قرب وعن بعد، وكان قد تم تفريغ مصر من أجمل كتّابها، حيث انسلوا أو هربوا أو قفزوا فوق الأسوار إلى دول الخليج والشام وأوروبا ولم يبق فى مصر إلا الذين ابرزوا كل قدرات التأييد والتعبير والتضمين والهتاف ليحلوا محل هيكل وبهاء الدين والسعدنى. على أية حال هذا موضوع كتب فيه أبونا الحاج محمود السعدنى كثيرا حيث كان يعمل فى قاموس الكتابة، وليس مثلى أعمل من وراء مكتب لا علاقة له بالكتابة، لكنى كنت ضمن الوفد المشار إليه، والمتجه للاسكندرية للقاء فكرى مع الرئيس «مع ضرورة ابراز أكبر قدر من التأييد»، ونزلنا فندق سيسيل، وبدأت الاتصالات، كنا فى الظهيرة، وتحدد لنا الساعة الرابعة بعد الظهر للقاء السيد الرئيس فى حديقة قصر التين، والذى أتفاءل أنا به لأنه أخر مشهد رآه الملك المخلوع فاروق الأول وطاف فى بالى سؤال ريفى يناسب كاتبا قرويا مثلى، رفضت كل المطبوعات أن يكتب فيها: ومن الآن حتى الساعة الرابعة: ماذا أفعل؟ الكبار والعواجيز ركنوا فى موقع جميل بالفندق وبدأوا يحتسون ما يحبون احتساءه «مع ضرورة عدم الافراط بسبب الظروف اياها» فارتديت جلبابى، وخرجت للترويض واستنشاق هواء الاسكندرية على الشاطىء، واجتذبنى الشاطىء فظللت أسير على الكورنيش، ثم طريق يؤدى إلى شاطىء أخر أجمل، ثم طريق ثالث يؤدى.. وعندما عدت إلى الفندق وأنا مستعد نفسيا أن التقى بالرئيس، فوجئت بأن الجميع قد رحل إلى القاهرة، لماذا؟؟ لأن السيد الرئيس توجه إلى الاسماعيلية، أو إلى القناطر الخيرية، لا أعرف، وبالطبع عدت أنا مكسور الجناح مهيض النفس إلى القاهرة بوسائلى الخاصة.

المهم أن تلك ثليلة ـ أرجو ألا تكون قد نسيت ـ الخاصة بالمسرح القومى وتوزيع جوائز الدولة وأوسمة ونياشين العلوم والآداب ـ كانت ليلة غامضة بالنسبة لى، حتى وقعت بالصدفة بزميل يكبرنى بسنوات طويلة ـ سوف يتوجه إلى نفس الموقع لنفس السبب، وتذكرت حينذاك أن زميلى هذا حاز تلك الجائزة قبلى بعام واحد، وسعدت سعادة قصوى

انه سيحضر لمرافقتى، أو لمرافقته، وقد جاء بسيارة مرسيدس ذات اشعاع ذهبى، الساعة الخامسة أخر النهار بالضبط، ولما كنت أعرف واثق أيضا أن زميلى هذا فقير جدا لا علاقة له بأى نوع من أنواع العجلات والموتورات، فقد سبب لى المشهد «مشهد السيارة المرسيدس الذهبية الفاخرة» دوخة واضطرابا فى الجهاز العصبى، وحين أفقت وجدت غادة جميلة ذات شعر ذهبى تجلس وراء عجلة القيادة، وأخذت وقتا أخر لأفيق مرة أخرى من الدوخة الجديدة، وفتح لى صديقى الباب ـ بعد أن قبلنى ـ وعرفنى بأن هذه الغادة هى ابنته، ونحن فى سيارتها، ولو انك ذهبت معى مرة إلى شقته القريبة ورأيت زهد الصديق وزهد الشقة لظللت انت دائخا حتى الآن!

وانجعصت فى المرسيدس وتحركت السيارة ذات الغادة الهيفاء من العمرانية ـ حيث أقيم ـ إلى المسرح القومى، وما كدنا نقترب من مبنى المسرح، حتى اندفع هؤلاء الممسكون فى أيديهم بأجهزة اللاسلكى، ولما عرفوا بغيتنا طلبوا تصاريح الدول، وأخرج زميلى وابنته تصاريحهما، أما أنا فكانت المرة الأولى التى أسمع فيها بتصاريح دخول وهى غير تذاكر دخول الأسواق ودور السينما والمسرح، فأمرونا بالوقوف جانبا، حيث ظلت الاتصالات دقائق، ثم أشاروا لنا بالحركة، وأشاروا لنا بالدخول فى فناء بناء المسرح القومى، لننزل ثلاثتنا وعندما تحركنا نحو الأبواب الداخلية، أشاروا للسيارة بالخروج من الفناء، حيث لم أرها اطلاقا حتى الآن، لا السيارة ولا ابنة صديقى.

عند باب الدخول سلمونا ميداليتين على كل واحدة الاسم ـ مع الصورة ـ ومعتمدة من أمن رئاسة الجمهورية وعلقناها على ياقة الجاكتات، وبعد خطوات مر أمامى صديقى، ثم وأنا خلفه بجانب جهاز اعتقدت انه مبرد مياه، لكن شاشته الالكترونية أعادتنى إلى التوجس، وما كدت أمر بجانب هذا المبرد للمياه ذى الشاشة التى بها ألوان حمراء وخضراء، أطلق المبرد أصواتا من تلك التى تسميها «الحركات القرعة»، أى تلك التى تصنع اضطرابا دون أن يكون هناك خطر حقيقى، ذلك لأن هذه الأصوات، جعلت الأمن يستعيد صديقى الذى عبر، أعادته بطريقة صامتة لكنها حازمة، وبهدوء «مع عدد مهول من التكشيرات» فتشونا: ضع المفاتيح هنا، ضع بخاخة الفانتولين التى استخدمها حين أختنق فى مكان خانق، ثم سمحوا لنا بالدخول فى صمت، حيث مررنا فى دهليز طويل أدى بنا إلى قاعة المسرح القومى، حيث فوجئت بصفين أماميين فاضيين وفارغين من أى واحد، ثم

ابتداء من الصف الثالث وجدت الدكتور عبدالقادر القط والدكتور أحمد هيكل «وكان أيامها وزير ثقافة»، وسميحة أيوب وشادى عبدالسلام وعددا لا بأس به من الذين يعملون فى صنف الأدب والفن، وجاء رجل غامض ليقودنى إلى مقعد فوجئت بأنه مكتوب عليه اسمى، كيف عرف هذا الرجل اسمى؟؟ أم ان هذا نابع من شهرتى؟ كان كل مقعد مكتوب عليه اسم الذى سوف يجلس فيه، وجلست ففوجئت بأن شادى عبدالسلام وحسين جنيد على يمنى ومحمد ابراهيم أبو سنة وفاروق شوشة على شمالى، لكنى كنت مصمما أن أعرف كيف يعرف المستقبلون أسماء الضيوف ويجلسونهم على مقاعدهم؟ فظللت أتابع الحركة، وحولنا حركات أخرى تصنع ضجيجا، كاميرات التليفزيون، والاذاعة والناس الضيوف من علماء وأدباء وفنانين قد ملأوا الشرفات، حيث ظلت القاعة مخصصة للحاصلين على جائزة الدولة فقط.

بعدها اكتشفت اننى لاأزال صعيديا مهما سافرت وتجولت وقابلت وكتبت، فقد اكتشفت - بعد عدة حالات - أن الرجل المستقبل يرمق الاشارة التى رشقوها فى صدورنا قبل دخولنا، ويبدو أننى تعودت أن يكون كل شىء صعبا معقدا، فظللت جالسا دون أن أقتنع أن يكون الأمر بهذه البساطة.

كانت القاعة مكيفة، وبها مراوح أيضا، ومع ذلك، وبسبب ملل الانتظار، ولعدم ارتياحى فى ارتداء البدلة الكاملة، ورباط عنق أيضا، بسبب كل ذلك بدأت أضيق بالمكان، كانت ساعة كاملة قد مضت، ثم بدأت حركة وصول الرئيس تتسلل للقاعة قبل وصول الرئيس، وبعد التصفيق المناسب والوقوف المناسب، ومحاولة البعض منا أن يهتف الهتاف المناسب، وبعد أن حيّا السيد الرئيس مستقبليه بذراعيه وباشارات متعددة تعنى الحب الذى يربط كل واحد بكل واحد، بدأ الهدوء يحط على المكان حيث استمعنا إلى آيات من القرآن الكريم، ثم كلمة طويلة من الأستاذ الشاعر أحمد هيكل وزير الثقافة، خاطب السيد الرئيس فيها بصفته راعى الفنون والعلوم والآداب من الطبقة الأولى حتى الطبقة الأخيرة، وناجاه باسلوب مفعم بالحب والانشاء ذى الجماليات العالية، والتى افتقدها الاسلوب الحديث تحت سطوة السرعة وروح العصر، وأنهى الدكتور الشاعر كلمته الرحبة بالدعاء الأمثل المعروف أن يطيل الله حياة الرئيس لتأخذ الآداب والفنون فرصتها - معه - كاملة.

مضت ساعتان ونحن فى القاعة وسيادة الرئيس - بعد تصفيق غامر هادر - ألقى كلمة جميلة عن اعتراف الوطن بالجمائل التى يصنعها الأدباء الذين هم نحن، ولأن المقعد يحتوى الأسفنج الصناعى فى بطنه، فقد بدأت حساسيتى من المواد الصناعية تفعل فعلها فى جلدى، وأنا - ياسيادة الرئيس - أحبك، وأحب الوطن، لكن أمر الحساسية لا يخضع كثيرا للعواطف، قلت فى نفسى: على أن أتحرك من مقعدى نحو الدهاليز المجاورة كى أصنع نوعا من الابتعاد عن ملامسة الأسفنج الردىء، وما كدت أقف مرة أخرى حتى أشارت لى أكثر من يد أن أجلس، ملت على الدكتور عبدالقادر القط - وكان يجلس أمامى أشرح له مشكلتى، فابتسم دون أن ينظر لى، وظل أديبا مفكرا يمعن النظر والآذن فيما يقوله السيد الرئيس باهتمام كامل.

كان النشع الصادر من جلدى فى المساحات التى تحتوى منطقة جلوسى قد ازداد، وظللت أتلوى فى المقعد، حتى أنهى السيد الرئيس كلمته، وخلال التصفيق، ووقوف بعضنا أثناء التصفيق ليبدى اعجابه المشتعل بالسيد الرئيس، قمت أنا من مقعدى، وخرجت إلى الصف، لكن يدا قوية سحبتنى من ذراعى لأجلس فى أول مقعد خال، فإذا به بجوار سيد حسب الله.

واللواء سيد حسب الله صديق طيب، كان فى أمن التليفزيون، ثم اختير من شهور رئيسا لمجلس ادارة شركة مصر للصوت والضوء، ملت عليه وقصصت عليه مشكلتى، فضحك، ثم أخفى ضحكته ذات الملامح البوليسية، وعاد يبدى اعجابه من جديد. ثم مال على وينبهنى أنه من قواعد الأمن الا يتحرك أحد فى حضور السيد الرئيس وانشغلت فترة فى متابعة تسليم الأوسمة، محاولا أن أبحث عن فرصة، ثم انهمكت فى الامعان فيما يحدث: ينادون على الفارس الفائز، حيث يصعد إلى خشبة المسرح، ويتقدم للسيد الرئيس، وكثيرا ما يخرج الفارس الفائز ورقة من جيبه، هى شكوى أو طلب تركيب تليفون، أو مساعدة فى شراء طقم أسنان، ويتناول الوسام بعلبته الزرقاء، ثم ينزل من الناحية الأخرى بعد أن يصافح الرئيس من جديد ثم وزير الثقافة، ثم أى أحد آخر.

حتى جاء دورى، وصعدت الدرجات، ثم مددت يدا صلبة لرجل صعيدى، كان الجو مهيأ كى أخذ الرئيس بين أحضانى، لكن الذين قبلى أخذوه مرتين، السيد بدير - الممثل والمخرج

المعروف - أخذه بين أحضانه عدة مرات، لذا فقد مددت يدى بذراع متصلبة، وأنا طويل القامة، فانفتح المثلث ليصنع مسافة معقولة بينى وبين السيد الرئيس، الذى شد على ذراعى مرتين وهو يقول: ألف مبروك.

كنت فى هذه اللحظة قد سعدت بأن الأمر سار فيما أرضى، وصافحت - بنفس الصلابة - وزير الأدب والثقافة وكل من كان على المنصة..

وعدت - ليس إلى مكانى المكتوب عليه اسمى - بل إلى مكانى الذى انتقلت إليه أخيرا، حيث نبهنى اللواء سيد حسب الله انه ممنوع الحركة او الخروج فى حضور الرئيس، وقرصنى وكأنه يهددنى. قلت له: اننى لا استطيع الاستمرار، ومستعد أن أتنازل عن وسام الفنون والآداب من الطبقة الأولى، وعن الشيك ذى المبلغ الضخم فى مظروف، وأن أتنازل عن بدلتى الجديدة، وأن يتركونى أخرج من جهنم.. قال دون ان ينطق: مستحيل ثم لم يلبث صديقى ذو الرتبة البوليسية العالية أن قام وتحرك للخلف ومرق من بين كاميرات التليفزيون، وتركنى أتلوى على المقعد، اجلس تارة على طرفه، وتارة اغوص فيه، مالى انا والجوائز، ولماذا هذا الاسفنج؟؟ والقاعة كلها منهمكة فى التصفيق كلما جاء دور نجم من النجوم، ثم لم يلبث صديقنا ذو الرتبة العالية، أن جاء ووقف بجوارى ولمسنى بيده كى أتبعه، قمت وسرت خلفه، ظل يسير بين صعود سلالم ودخول سراديب حتى فتح بابا صغيرا، وقال مع السلامة لقد أصبحت فى الميدان حرا، فانطلقت أسرع الخطى، وما كدت أخرج من الميدان حتى نجحت فى استئجار سيارة ذهبت بى مباشرة إلى البيت، حيث وجدت الأسرة كلها لاتزال تتفرج مستمتعة بحفل الجوائز..

لكنى انهمكت انا فى تغيير ملابسى والتقاط انفاسى، حيث أصبحت مهيأ كى أحكى لأسرتى، الاهتمام الخاص بى منذ نزولى من السيارة المرسيدس، وجلوسى فى المقعد، ثم الاهتمام الخاص بى من السيد الرئيس، وفى يقينى أن أحسن حل أن ألقى بجسدى كله مفرودا على الفراش.. أى فراش..

بعد ذلك، ومنذ ذلك اليوم استيقظت كى يرى ضيوفى صورتى مع السيد الرئيس فأبدا بكلام كثير فاخر عن الفخر، لكنى لم أذكر حكاية المقعد لأحد أبدا.

٢٨ ثلاث حركات بين النينجا وقصر بكنجهام وقرطفة الملوخية

أولا:

كل شىء بيد الله، ومهما كان للمخلوق من قوة أو بأس أو بطش فلا قيمة له أمام ارادة الله، وهكذا ترى اننى ممتثل امام الخالق جل وعلا، لكنى ابدا لن اكون ممتثلا خانعا أمام المخلوق، حتى لو كان هذا المخلوق هو زوجتى، الهادئة الطيعة المطيعة والتى زانتها الأيام هدوءا وطاعة.. وجمالا، وأصالة أيضا، تلك الأصالة التى اراها - بعد أن أزيح جانبا فتوى الشيخ الغزالى حول قتل امام الأمة وآخر كلمات جان جاك روسو فى فراشه - وقد تألقت على أطراف أصابعها، أصالة ناعمة انسابت عندما انهمكت زوجتى فى قرطفة أوراق الملوخية وهى لا تمارس هذه الأصالة إلا وقد تركت المطبخ وجميع المقاعد والموائد ثم جلست على الأرض، وقرطفة الملوخية هى الحركة الأولى فى قطف أوراقها من الأعناق فى هدوء وانسجام، ثم فترة صمت لازمة لاعداد مخرطة الملوخية على الطبلية، حينئذ تكون الحركة الثانية قد بدأت فى تأرجح للمخرطة لتحيل أوراق الملوخية الغضة إلى دقائق عجيبة كأنها رومانسى داهمه الواقع الأحمق ومع أن الحركة الثانية - كما عهدنا من شارحى فن الموسيقى - تكون هادئة فى تلك تمهيدا للحركة الثالثة ذات الانفعال والتفاعل، إلا أن مخرطة الملوخية فقدت توافقها مع ما فى القلب، وبدأت تنفعل أكثر، ثم توقفت، فازداد وجيب القلب، ذلك أن زوجتى - وهى تخلص حد المخرطة من عوالق عجينة الملوخية - قالت فى حكمتها الأليفة: سوف أنزل آخر النهار، فظللت ممعنا فى الطبلية وعجينة الملوخية وحد المخرطة، وانتبهت إلى تعليق ناشف من الاذاعة البريطانية حول المباحثات العربية الاسرائيلية بعد دك جنوب لبنان لمدة أسبوع، ثم تعلقت عيونى المتقلة فى عيون زوجتى الحكيمة، نعم، فزوجتى سوف تقوم بمهمة انسانية نادرا ما قامت بها مثيلاتها من الزوجات، اذ أن جارنا الحاج عبدالله - رعاه الله ورعاه لمدة أسبوع على الأكثر - تشاجر مع أولاده وزوجته منذ ليلتين (أنا لم أسمع بذلك

سوى الآن)، وترتب عن ذلك انه طرد زوجته من البيت، ومهمة زوجتى ان تأتى بها من بيت أهلها كى تصالحها مع زوجها، كانت حنان عشراوى قد توجهت فى هذه اللحظة إلى تونس وبرفقتها فيصل الحسينى وحيدر عبدالشافى، وقال الراديو ان الخبر لم يتأكد بعد، وأضاف أن الوفد الفلسطينى قد يستقيل من المباحثات الفلسطينية الاسرائيلية وكانت زوجتى قد عادت إلى فرش عجينة الملوخية تحت المخرطة بعد ان تركتنى أقلب النظر فى كعوب كتب جان جاك روسو وحمار الحكيم وسلاحف النينجا، سألتها فى ضيق: هل هناك كتاب عن سلاحف النينجا؟ قالت: لا اعرف، هذا ليس كتابا بل كاسيت فيديو، آه، قلت فى حكمة معروفة: المفروض ان الزوجة لا تترك بيتها وأولادها لمجرد الشجار، وسألت زوجتى: لماذا لا تذهبين انت لقضاء أيام جميلة عند السيدة والدتك، رمقتنى زوجتى ونادت على ابنتنا الصغرى تأمرها بتقشير الثوم، ثم قالت موضحة: والمفروض ان الرجل ذا الرجولة لا يضرب زوجته. اضطررت ان أغلق الراديو، وأن أقف، وأن أقول لزوجتى فى رجولة صارمة: لا تتأخرى، قالت: حاضر، ليتك تقدمين استقالتك..

ثانيا:

بعد الاستيقاظ من نوم الظهيرة، وجدت سلاحف النينجا قد افترشت التليفزيون، جلست قليلا أمعن فيها: غباء سعيد وسذاجة براقة، وأسماؤهم حاملة اللهجة والتراث الايطالى تصبغ الغباء والسذاجة بالأريج الأوروبى، رأت ابنتى نوعا من الضيق والاشمئناط والاختناق على وجهى، كان المذيع - على القناة الأخرى - قد أنهى نشرة الأخبار بخبر حول ضغط الين اليابانى على الدولار الأمريكى الذى قام بدوره بالضغط على المارك الألمانى حتى كاد الفرنك الفرنسى يلفظ أنفاسه. جاءت الملوخية المقدوحة وثلاثة أوراك من أرانب النينجا(!!) وعصير الطماطم، سألت عن زوجتى الحبيبة فعرفت أنها متوعكة بالداخل من أثر ارهاق مصالحة جارى على زوجته، اللهم عمل الخير، وظلت حنان عشراوى مع زميليها فى تونس دون حسم للمسألة لكنى - وأثناء التهامى للورك الثالث من أرانب النينجا - أحسست أن فى البيت شيئا غير عادى، سألت ابنتى، قالت ان (أبلة سميحة) فى الداخل، وأبلة سميحة - ياعزيزى - هى زوجة جارى المشار إليهما فى موضوع الصلح، ناديت زوجتى فجاءت من الداخل مرهقة وملكة بريطانيا قد فتحت قصرها ليزوره الجمهور بالفلوس، كانت فكرة وجود زوجة جارنا عندنا لا تعنى شيئا ذا أهمية لولا اعتقادى بأنها يجب فى هذه اللحظات أن تكون عند زوجها ومع أولادها، أمعنت فى وجه زوجتى فأحسست بأن شيئا غامضا يجرى، كنت قضيت ليلة الأمس كلها مع الأصدقاء وسط المدينة وعدت مرهقا ودخلت حجرتى التى لا يشاركنى فيها أحد، دون أن أتابع ما جرى وبعد ان اطمأنت زوجتى إلى حسن استماعى، أو

إلى استعدادى لقبول المفاجآت وتحملها، قالت فى هدوء: زوجها (تقصد زوج سميحة) رفض ادخالها البيت، لماذا؟؟ لأنه لن يسمح لها بالدخول إلا اذا رد اليمين، أى لابد له أن يقوم بإجراءات رد القسم - يمين الطلاق - الذى فرق بينهما، ولما كنت جاهلا لهذه الشئون فقد اندهشت صارخا: خلاص: يرد اليمين، وجاءت البشرى بأن اسرائيل تنظر فى اعادة نصف الفلسطينيين المطرودين خلال الشتاء، وذلك بعد أن دكت جنوب لبنان وارتاحت، وقالت صحيفة أمريكية أن مائدة المفاوضات سوف يعاد نصبها قريبا فى نيويورك، فشعرت بسعادة قصوى، فقالت زوجتى: هل تعرف أحدا يتقن رد اليمين؟؟ فسألتها بدورى: هل لابد لرد اليمين من خبير يتقن ذلك؟ وكان سؤالى واضح الجهالة ذلك أن زوجتى جندت كبار أولادنا وكبار أولاد جارتنا للبحث عن خبير فى رد يمين الطلاق، وسوف تظل جارتنا سميحة فى ضيافتنا حتى ينتهى هذا الأمر بالدقة الواجبة، فتركت ملكة بريطانيا ترتب أمر فتح قصرها للشعب الانجليزى، ونصبت مائدة صغيرة تشبه موائد المفاوضات - فى الشرفة - وجلست أحل الكلمات المتقاطعة.

ثالثا:

تم تسوية مسائل جنوب لبنان أو سلاحف النينجا - لا أنكر، لكنى - وكما ترى فقد أصبحت شديد العصبية - ناديت على زوجتى أن تسمح لى أن أكلم جارى، كانت زوجته بالداخل تنتظر رد اليمين عن طريق خبير رد اليمين، وكانت زوجتى بادية الامتثال لأهمية استضافة جارتنا فى مثل هذه الظروف، وكان القانون المصرى الخاص بتنظيم مثل هذه العلاقات قد أباح للزوجة أن تستخدم سكنها المخصص لها - حتى وهى طالق - مادامت مع عيالها، وجارتنا ليست طالقا أعوذ بالله إنما هى زوبعة فى فنجان فارغ، وجاء عم عبدالله جارى، سوف أصفه لكم: هو غليظ التضاريس لكنه طيب القلب جدا، هو تجاوز سن الفتنة وشبهة الفتنة، هو يعانى من مجموعة أمراض لا تبيح له اتخاذ أى موقف ولو كان أمام الصراف أثناء قبض الفلوس، وظهر (شنخار - تصوروا بطل سلاحف النينجا اسمه شنخار. ؟؟)

على شاشة التليفزيون فنهرت البنت أن تراعى للموقف الدقيق الذى نحن فيه فجمع شنخار مايكل انجلو ورافئيللو ودوناتيللو وليوناردو وانسحبوا إلى الظلام، وحينئذ جاء عم عبدالله نظرت فى وجهه ونظر فى وجهى، ونادى بصوت واهن: سميحة..!!

وخرج من الباب وجارتنا سميحة قد خرجت خلفه وبدأت استعد للتفرج على قصر بكنجهام الذى تم فتحه من أيام أمام الجماهير، وجلست زوجتى تقشر البطاطس، جلست على الأرض، وانسابت الحركة الأولى من الموسيقى الجديدة للرعبة.

٢٩ يوم أن ابتسمت لى السينما داخل ليل دون أن نتقدم خطوة

بدأت حكايتى - مع حرق الدم - مبكرة، منذ ما يقرب من العشرين عاما، حين دبجت ونشرت قصة لها هذا العنوان، عن جماعة يعملون فى مشروع داخل الصحراء المصرية، معظمهم غلابة فقراء، وكان المشروع هو حفر باطن الأرض لاستخراج الطمية - أو الكاولينا - أو الطين الأسوانلى، التى تتميز خامتها بالصلابة والمرونة والقدرة على التحمل، لاستخدامها نواة للسد العالى، والذى كان يهدر بآلاته وماكيناته وأجهزته وروافعه على بعد أكثر من ثلاثين كيلومترا من هذا الموقع، حيث كان معظم العمال يقيمون فى موقع العمل المشار إليه، وكان للمهندسين والموظفين مواصلاتهم التى تعود بهم فى نهاية كل وردية إلى بيوتهم المخدومة بتسهيلات كثيرة، والتى تصل - هذه التسهيلات - إلى هؤلاء الناس، فظلوا يعانون من صعوبة الحصول على المأكل والمشرب والنوم، وكان طعامهم قد توقف عند حدود الأنواع التى تناسب الصحراء وظروفها كالبقول من عدس وفول وفاصوليا، دون اللحوم، والتى كثيرا ما تتعرض فى الجو الحار للفساد عند احضارها من مدينة أسوان بشكل مرهق، ولذا فقد فكر راوى القصة - الذى هو أنا - أن يجمع من جميع العمال «٣٠٠ عامل تقريبا» مبالغ عند صرف رواتبهم المحدودة ويكون هذا المبلغ أساسا لقيام وفد من محجر الطمية - أو عملية الطمية - أو جمهورية الطمية كما كان الساخرون يطلقون عليها، كى يسافر إلى بلدة قريبة ليشترى كل فترة بقرة معقولة، يتم ذبحها فى الموقع، وتوزع على العمال كى يشتعل الموقع بروائح الطبيخ الحقيقى والشواء الحقيقى، ولتنجح التجربة نجاحا منهلا لاسيما وأن شراء الذبيحة من السوق مباشرة جعل تكاليف اللحوم تنخفض إلى أقل من نصف الأسعار التى تباع بها فى المدن.

لم يكن العمال - من سنوات - يرون أحدا من ذوى الشأن فى موقعهم، فلم يكن الموقع يصلح

لاستقطاب الحركة «السياحية» التى يقوم بها كبار المسئولين، والذين يقيمون طبعا فى أفخر فنادق أسوان أو الاستراحات المكيفة، ثم ينزلون إلى جسم السد وسط الكراكات ليتم التقاط الصور لهم، وتنتهى الزيارة الميمونة فى هذه الحدود، فمن الذى سوف يغامر بالدخول فى صحراء حارة قاحلة كى يرى عمالا شديدى المرارة، وقاحلين أيضا.

وعندما انتبه المسئولون القريبون للتجربة بدأوا يرعونها، لابد من الذبح الجيد السليم والسلخ السليم والتقطيع السليم، ثم لابد من صنع حفرة معقولة يجرف إليها الدم والعظام ويتم حرقها ثم ردمها كى لاتتشمم الحيوانات الضارية الرائحة، وتصبح خطرا على الموقع.

ثم انتقلت الرعاية من المسئولين القريبين إلى المسئولين البعيدين، وفى كل مرة يرى القائمون على شئون الذبح والتقطيع أن يمنحوهم بعض قطع اللحم الممتازة ذات السعر المنخفض، بل وظهر أفراد يجب أن يمنحوا قطعا من اللحوم أيضا مع غض البصر عن المطالبة بثمنها، مفتش الصحة، ومفتش مكتب العمل، ونائب مأمور المركز، بل وقام سلاح الحدود بإقامة معسكر بجوار «موقع الذبح» لحمايته من الأشرار، بعدها تكالب على جمهورية الطمية أناس من كافة المراكز المؤثرة رئيس مجلس المدينة ونائب المحافظ وأمين الغرفة التجارية جاءوا بصحبة رئيس مجلس ادارة الشركة ونائب وزير الاسكان، ومندوب حديقة الحيوانات وعضو المحافظة على حقوق الانسان، وصاحب برنامج تليفزيونى ومصور احدى الصحف الكبرى، وفى النهاية يكتشف الموقع بعماله الثلاثمائة أن الأمر قد توقف عند حدود هذا الجهد المبذول فى استحضار البقرة من آخر الدنيا، وذبحها، وتقسيم معظمها وتغليفه فى ورق نظيف، واهدائه لذوى الشأن، ويبقى بعد ذلك مجموعة من المصارين ولحم الرأس والسيقان والأظلاف والجلود، يتم توزيعها، على العمل، مع مراعاة جمع ما تبقى من عظم وما سال من سوائل ودم، واحراقها فى خندق صغير، حفاظا على الموقع من الحيوانات المفترسة والصقور والنسور والغربان، وكان الرجال الذين يشعلون النار فى الدم يتغنون بأصواتهم الخشنة «ذات الشجن» بحكاية عن امرأة وارفة الجمال كانت تخون زوجها مع عشيقها، فلما تخلى عنها زوجها لعشيقها، بدأت تخون عشيقها مع زوجها.

كان واضحا أن قصة «اللؤلؤة» الشهيرة للأمريكى شتاينيك وراء هذه القصة وقد استلهمها كثيرون بعد ذلك فى مسلسلات شهيرة دون أن يشيروا إلى «اللؤلؤة».

وبمجرد نشر قصة «حرق الدم» فى مجلة الثقافة القاهرية، اتصل بى واحد من كبار المخرجين

نوى الشأن فى السينما، أبدى اعجابا خارقا بالقصة حتى انى كنت أطير فى السماوات خيلاء، ثم بعد ابداء الاعجاب ابدى رغبته فى تسخيرها للسينما، وما الذى يريده واحد ريفى مثلى اكثر من ان يتلألأ اسمه على شاشة السينما، التى هى أعرض عشرين الف مرة من التليفزيون، ثم ابدى رغبته ـ ثالثا: ان اقوم باعداد السيناريو السينمائى لها.

وهكذا انفتحت طاقة القدر، وبدأ التاريخ يكتب اسمى بحروف من نور، وكان واضحا أن هذا المخرج اصبح متيما بالقصة حتى انى أحببتها ـ أنا ـ كذلك، وفى الجلسة السابعة همس لى فى هدوء: أليس من الواجب أن نضع فيها قصة حب؟ قصة صغيرة غرامية تخفف من خشونة احداثها، فعلا، الأمر يحتاج إلى قصة حب، لكن كيف؟ قال: انه يقترح ـ مجرد اقتراح قابل للمناقشة ـ أن تجعل رجلا يفتح مطعما ـ كانتين ـ فى الموقع وتأتى ابنته لتزوره لتقع فى حب أحد العمال، قلت وأنا أمعن فى الاقتراح.

قد يناقض هذا بنيان العمل القائم على الحرمان من جميع الوجوه، قال فكر فى الاقتراح ونتناقش، ظللت اسبوعا أحاول ادخال بنت ظريفة جميلة إلى هذا الموقع فلم أستطع، رأيت أن أجعل أحد العمال يقع فى غرام مذيعة تليفزيونية أو موظفة العلاقات العامة بالمحافظة، لكن المخرج الجميل الذى يرى الأمور دائما خيرا منى قال: انه يريد قصة حب فيها قدر من الفطرة والمبادىء، وانه يقترح ـ والأمر متروك لى كما ترى ـ ان تقوم ميرفت أمين بهذا الدور وكانت ميرفت أمين فى بداية تكوينها الفنى المتلألىء اللون الذى يصعب على الواحد أن يمسه بالطمية والوحل والغبار، وأضاف انه يرى أن يقوم حسين فهمى بدور كبير العمال الذى يحبها ويحميها من المهندس المدير، وكانت قصة «حرق الدم» تتراجع للخلف أمام سطوة حسين فهمى الذى سيقف حتما، بصفته بطلا ثوريا بملامحه الشهباء الارستقراطية ضد مفتش السلخانة ومندوب مكتب العمل ورئيس مجلس المدينة، وفى الشهر الرابع ارتأى أن يبدل حسين فهمى بمحمود ياسين، لأن سمرته تتجاوب أصداؤها متلائمة مع رمال الصحراء، ولما نبهته أن ينظر أيضا فى مسألة ميرفت أمين قال: لا هى ميرفت أمين الأمر ليس اخراجا فقط بل ولابد من الاعتماد على عنصر التسويق، وهو لا يقل خطورة عن عنصر التشويق، وفى الشهر التاسع كان التصور لايزال ناقصا، ولاسيما أن المخرج واجه مشكلة الفنيين، وما هى هذه المشكلة؟ فقد اتضح للوسط السينمائى أن الاستقلال بمجموعة من الفنيين مثل الماكير وعمال المكياج والممثلين المساعدين والقانونيين ـ بغض النظر عن المجموعات ككل ـ صعب جدا، بعد أن انتشر التليفزيون كل هذا الانتشار، وأصبح مهيمنا على

الجماعات العاملة أمام الكاميرا ووراء الكاميرا، حتى أن معظم الفنيين يكونون عادة مرتبطين بالعمل فى أكثر من مسلسل تليفزيونى، واذا استطعنا أن نجند بعض الفنيين ليتفرغوا للعمل فى الفيلم، فلابد أن يتم ذلك فى أقل وقت ممكن، اسبوع على الأكثر، وأن يكون معسكر العمل فى الفيلم فى صحراء قريبة من القاهرة يسهل للبعض التسلل منها والعودة إلى المدينة لتنفيذ الارتباطات التى يصعب الفكاك منها، وفى السنة الثانية قال لى المخرج الكبير انه يرى أن نجعل البنت تأخذ الولد «الذى هو العامل» وتتفسح به فى أسوان وسط الآثار وأن أباها يكون جزارا أفضل حتى يصبح أمر الجزارة فى موقع العمل له معنى أكبر، حتى يسهل تصوير الجزار بأنه مستغل، وبالتالى سيدفع الجزار الفيلم كله للحركة، لاسيما وأنه سوف يلتقى المطعم الجزار ـ محمد رضا ـ بابنته وهى تضع ذراعها فى ذراع محمود ياسين نائب العمال فى الفيلم، ولأن هذا ضد التقاليد، فسوف يثور صراع أكبر، وبالطبع ستجد أن مدينة أسوان أكثر جمالا بمناظرها وآثارها من مجرد موقع مدفون فى عمق الصحراء.

وفى السنة الثالثة انتهينا إلى الصيغة التى ترضى كل الأطراف: العامل الذى يحب بنت الجزار ويقف ضد كل العوازل، المشهد الأول ليل داخلى: البنت تقف على السلم والعامل يدخل دون أن يراها، حينئذ تقول له البنت: بخ بقصد لإزعاجه العامل ينزعج وينزل السلم مفزوعا، المشهد الثانى: ليل خارجى: محمود ياسين يجرى فى الشارع وميرفت أمين تقف على باب البيت وهى تضحك مستمتعة، قال لى المخرج الكبير: تصور أن هذا المشهد المرح هو أحسن افتتاح للقصة ولم يسبق للسينما أن قدمته وسألنى متى أستطيع أن أنهى أكبر قدر من المشاهد، قلت ربنا يسهل، ثم مكثت وقتا أتحدث معه عن فيلم «جسر على نهر كواى» الشهير، لكنه لم يكن متحمسا للمناقشة، وتركنى أكتب سيناريو «حرق الدم» حتى اليوم، لا أكتبه فقط بل وأمارسه أيضا، دون أن أتجاوز هذه الرجفة التى قابلت الممثل الأول فى المشهد الأول على السلم المظلم.

ذكريات وقائع ٣٠ الغرام الثورى

قالت فى هدوء، وعيونها تبرق: والدى يريد أن يتعرف عليك، أمعنت فى وجهها غير قادر على الاستيعاب، فأعادت كلامها بطريقة تلقينية بطيئة: الباشا يريد أن يراك، فكدت أقع من طولى فرحا واضطرابا.

-١-

إن فكرة مقابلة والد حبيبتك واحدة من الأفكار النادرة، والتى تشع بالرومانسية والبهاء، فما بالك ووالد حبيبتى يعلم اننى أحب ابنته، حبا غامرا جديرا بأن يكون حبا خالدا أيضا!! ومتى؟؟ فى عز محاصرة عبدالناصر للاقطاع والبهوات والباشوات، وأبوها باشا كبير من هؤلاء الذين رأينا صورهم مرة أو مرات داخل الصحف والمجلات، وأحيانا على الغلاف أو فى الصفحة الأولى، وبعد الثورة نجحنا نجاحا منقطع النظير فى ادانتهم وتقديمهم للمحاكمات مع احتمال تعاونهم مع العدو الخارجى، وكنا نحن - أبناء ثورة عبدالناصر - نموت وتحيا ثورة عبدالناصر، فينا من الطاقة والقدرة والعناد والاستبسال ما يهز أركان الدنيا، لاسيما وأن معظم هؤلاء البهوات والباشوات - بالفعل - كانوا قد أحاقوا بالطبقات الفقيرة ما رأيناه وجربناه وما نعرفه مما رصدته الأقلام والأفلام أيامها، وترتب عن ذلك أن تقلص دور بعضهم حتى انزووا، كما أن بعضهم استطاع أن يصوغ نفسه لحساب الثورة أو أن يصوغ الثورة لحسابه، وكان والد حبيبتى من هؤلاء الذين انزووا بعيدا طالبا السلامة ملتحفا بالنسيان طريقا للسلوان.

كنت أيامها أعمل فى معامل تحميض وطبع الأفلام السينمائية بالجيزة، وكان العمل ثانويا وراتبه الشهرى زهيدا وأقل مما يمكن للقلم أن يكتبه على الورق، لكن الأمل كان كاسحا مع أن الظروف كلها لم تكن لصالحى على مستوى الأمان اليومى، فما بالك حينما أصبح محبا تقع على عاتقه مسئوليات المجازفة الضرورية التى يحتاجها الغرام!! لكنى - حين تعرفت على غادتى هذه فى

حديقة «الأورمان» الوارفة - كنت متأكدا أن الزمن سوف يعوضنى، ولم أسأل نفسى: كيف؟ حتى لا يفسد الأمل وينهار من أساسه.

-٢-

كانت حبيبتى قد استوعبت قصص احسان عبدالقدوس التى تزخر بفتيات ذوات شجاعة فائقة وكنت أنا قد استوعبت قصص احسان وغير احسان مما يؤهلنى أن أحطم الحواجز والموانع والمتاريس والحصون دفاعا عن حبى الخالد بغض النظر عن وظيفتى المتواضعة فى معمل التحميض، وشعرت بزهو وطنى يملأ جسدى المعروق «أيامها» وأنا أرى فى عيون حبيبتى اطمئنانا لترتيبات مع والدها لم تعلن لى عنها، وهاهى المرة الأولى التى تنتقل روايات احسان عبدالقدوس ويوسف السباعى لمستوى التجربة الفعلية، ولم يكن صعبا أن ارتدى الملابس اللائقة وأن أكون لائقا ومتألقا، بل وركبت سيارة أجرة بقروش معقولة أنزلتنى على طرف طريق غير مرصوف وشديد الالتواء هذا الطريق الذى تشعبت على ظهره محاذرا أن يعلق بملابسى أى تراب، حتى وصلت إلى البيت الوحيد، والذى يقف وحيدا ومتوحدا وقد غطى ألوانه غبار كثيف لم يترك حتى الأشجار والنخيل، وعاودنى الاضطراب والقلق، فمنذ أضاءت لى حبيبتى النور الأخضر صباح أمس وأنا لم أنم، كنت أرتب الطريقة التى أتكلم فيها مع الباشا السابق الذى هو والد حبيبتى، وليس سرا أننى رأيت عددا لا بأس به من هؤلاء القوم لكنى لم أتكلم - عينى عينك - مع واحد منهم، وكنت - طول الليل - أرتب وأعدل وأنظم وأغير، هل أبدو فلاحا ابن فلاح كما هو أنا؟؟ هل أعامله معاملة ثورية فأداهمه بمبادئى وحقوقى (أية حقوق) - يراجع فى هذا الشأن الروايات التى أنشئت فى هذا الشأن - هل أضغط عليه بقصص الكفاح المسلح التى استحوذنا عليها دون الباشوات تخليصا لمصر من براثن أعدائها؟ هل أتحول أمامه إلى كتلة ثقافية متينة مضيئة مصنوعة من نثار قراءات عن الوجودية والماركسية والاصلاحية والثورية مع اضافة بعض الرطانات الحبيبة الجميلة بفم معوج عن جان بول سارتر وجان بول بولندو وجان كوكتو وجان دارك وجان جاك روسو وجان جابان؟؟ هل يليق بى أن أداعب مشاعر والد حبيبتى بالتخلى بعض الوقت عن مبادئ الثورة على أن أستعيدها فور انتهاء اللقاء؟؟

- ٣ -

عندما تلمست أصابعى موقع زر الجرس فى شواهد الباب المدفون فى السياج العشبى،

احسست انى على حدود الجنة، كان الصمت اخاذا لكنه يثير التوجس، ولم اعرف ماذا افعل لو اندفعت كلاب جهنمية من خلف هذا الباب القصير، كما انى فشلت فى سماع اصداء جرس بالداخل يعلن عن قدومى، والباب نفسه لا يصلح للخبط عليه ليحدث الأصوات المناسبة للاستدعاء، ومع ذلك فقد انفتح الباب، فتحة رضوان جميل شديد الرصانة ووقف عملاقا امامى، كنت اهم بان اقول: عندى موعد مع سعادة الباشا، لكن الرجل أمعن فى وجهى ثم فى جسدى وتحرك للخلف ساحبا الباب المتارجح، سار أمامى وصعد درجتين من سلم رخامى صغير ثم توقف وهمس طالبا منى ان أختار: اما أن انتظر قدوم سعادة الباشا فى البهو داخل (الحصن) أو انتظر فى الحديقة، واشار بذراعه إلى الدوران لأسير فى الممشى المؤدى للحديقة دون انتظار لسماع رغبتى، وكان اختياره الحديقة مناسبا ومريحا.

لم تكن الحديقة مشذبة، اشجار بعضها كثيف وبعضها عار من الأوراق، والنباتات النجيلية كما فى راس الأقرع: جزر كثيرة النمو ومساحات لا اثر لأى نجيل فيها، مائدة صغيرة حولها اربع مقاعد خشبية ليست حولها بالضبط بل متناثرة دون نظام، مواسير مياه وقطع من قلل وفخار ازيار وحبال من الليف، ملّى انا ومال الامعان فى هذه الأشياء، وانتقيت مقعدا به اقل نسبة من التراب فاكتشفت اننى لابد أن استخدم منديلا افرشه على المقعد كى يحول بين ملابسى وبين كل هذا الغبار، وانا ياسعادة الباشا - كما ترى - أحاول أن ابدو دمثا صبورا، فليست ابنتك الأولى التى تقع فى غرام واحد من الثوار، ولست - ياصهرى العزيز - سوى شاب نبيل سوف يضع ابنتك فى عيونه وعيون أهله جميعا، وجلست على المقعد فى بطء حتى لا افاجأ بالانهيار المباغت، وبدأت أنصت لوشوشة الحديقة المهملة.

ـ ٤ ـ

تكون كارثة لو طلب منى سعادة الباشا ان يسافر معى للتعرف على اهلى: فقراء من الفلاحين والمدرسين وتجار الماعز والخفراء ولصوص البهائم، واين نستقبله؟ فى هذا البيت الضيق الصغير المفتوح الحوائط عشقا فى الريح والحقول؟ لكننى - ياسعادة الباشا - لست شابا عاديا، بل أنا القادر على مغالبة المستحيل وتحطيم المحال، وسوف تجد ابنتك لها موقعا ثوريا مرغم أنى لا امتلك مقعدا ثوريا، ومستقبل فلذة كبدك سيكون معى، وظللت امعن فى البيت الضخم المواجه لى، النوافذ: بعضها مغلق، وبعضها مفتوح، وواضح ان الغلق والفتح قد تم منذ قرون طويلة، وكانت الشمس قد انتصفت الحديقة فحركت المقعد إلى مكان ظليل، اننى يا سعادة الباشا اجيد لعبة البلياردو واهوى السباحة ولا ادخن واحب فاتن حمامة وعمر الشريف - لاداعى لفاتن وعمر حاليا

بسبب فيلم صراع فى الوادى - كما اننى احب اهلى جميعا واقيم الصلاة واتى الزكاة، واحب وطنى اكثر من كل شىء خلقه الله. خشيت ان اشعل سيجارة فيداهمنى سعادة الباشا - لكنى - متوجها إلى الطريق المتوقع ان ياتى منه ومنصتا اشعلت السيجارة بسرعة وامسكتها بين أصابعى بشكل فيه اخفاء ويمكن لى ان اتخلص بسرعة منها، فإذا حضر الآن فلين سيجلس، كل المقاعد تحتاج إلى تقويم لتصلح لاستقبال صهرى المرتقب، حاولت اختبار بعضها فوجدتها تحتاج إلى اعادة ضبط بسبب نتوء المسامير بين القاعدة والسيقان، بماذا ادق هذه المسامير؟ وتناولت حجرا وحاولت لكنه تحطم من اول دقة، المصيبة - ياسعادة الباشا - ان يدى المهيأتين لمصافحتك قد تلوثتا بتراب الاحجار، القيت بالحجر جانبا وتوجهت إلى صنبور به قطعة خرطوم صغيرة فى اخر الحديقة، حاولت فتح الصنبور لكنه استعصى، كان الحذاء قد حمل كمية واضحة من التراب والطين والوحل والنباتات، وانعكس وجهى - المجهد - فى بركة المياه اسفل الصنبور، وظللت أضغط على مقبض الحنفية حتى لانت واستجابت لضغطى، لم تستجب فقط بل انخلعت كلها اندفع الماء اندفاعا قويا يماثل قوة الدفع المعروفة فى مياه اطفاء الحرائق، حيث تراجعت للخلف مضطربا من اثر المفاجأة، مضطربا وفاقد التوازن ايضا، لاقع - فى صوت صارخ - على ظهرى فى أقرب بقعة نجيل مائية.

ـ ٥ ـ

كانت الشمس تضحك فى غباء وهى تداور الاتجاه غروبا، وكنت قد قفزت بسرعة ثورية من الوحل الأخضر الجميل، ولم يكن سهلا ان انظر إلى الحديقة، وإلى الأشجار، وإلى السياج، وإلى ملابسى.

فقط: خلعت جاكتتى والقيتها بطينها ووحلها فوق كتفى، وبدأت أحاول فى السياج لأصنع بيدى كوة وسط نباتاته الغائلة.

لكنى لمحت الباب مفتوحا، فتوجهت فى هدوء نحوه.

حيث لم أر حبيبتى حتى اليوم.

٢١ حبوب بملابس السهرة

كانت ملابس السهرة «الرينجوت» أيامها تصنع من قماش خاص ومتميز، ولم يكن - فى أوائل الخمسينات لاحد - حين يرتدى ملابس السهرة هذه - ان يسير فى الشارع، إنما - فى أقصى الحالات - أن ترى مثل صاحب هذا الزى فى المسافة الفاصلة بين باب البيت والسيارة، والتى كانت دائما - من أحدث طراز، والذين يرتدون مثل هذا الطراز من الطبقة العليا والمهن الراقية كالسفراء وأمناء الدواوين الوزارى أو الملكية والوزراء وكبار أصحاب رؤوس الأموال ورؤساء مجالس الادارة، ونادرا ما يكون منهم كتاب وصحفيون، ربما كان محمد التابعى وعلى أمين ومصطفى أمين ومحمود عزمى من هذه الطبقة صاحبة ملابس السهرة الخاصة، ولو لمرة أو مرتين..

ولم يكن أيضا لأى أحد من الخياطين «الترزية» أن يجيد صناعة وحياكة مثل هذه الطرز من الملابس، ولاسيما أن جزءا منها - الياقة مثلا - يصنع من القطيفة أو الجوخ، ولذا فقد توقفت صناعة «الرينجوت» على اثنين أو ثلاثة من أساطين الخياطين فى القاهرة، وكان خالى - أيامها «وهو فى الحقيقة خال أمى» - واحدا منهم، وله قدرة نكاء خاصة، اذ ما كاد عبدالناصر يقوم بثورته ١٩٥٢، حتى تنبأ بانهيار طبقة «الرينجوت» حينئذ توسع فى تفصيل وخياطة الأنواع العادية الأخرى من طرز البدل والمعاطف، وهى التى نرتديها أنا وأنت وباقى خلق الله البعيدين عن البروتوكولات العليا، وبالفعل وبعد أربع سنوات بالضبط توقف الالحاح على هذا الطراز تحت ضغط لانزواء الطبقة التى كانت تستعملها، ولاسيما أن الضباط الثوار كانوا لا يهتمون كثيرا بمثل هذه البروتوكولات، وكانت القمصان نصف الكم ملمحا واضحا فى عموم ملابسهم العسكرية أو المدنية.

وفى سنة ١٩٥٧ جئت أنا من الريف للقاهرة لأنضم لقافلة الباحثين عن العمل بعيدا عن خشونة الريف وفقره وجفاف حكاياته الرومانسية - وندرتها أيضا، وظللت أتردد على دكان خالى - ليس فقط بحثا عن عمل، بل ولأنه أوكل لى بعض أعمال المحل مثل قيد الحسابات والمقاسات وعناوين العملاء، حينا لاحظت اهتمامه بالأستاذ حبيب، والذى كان يطلق عليه لفظ «حبوب» مع تشديد وضم الباء من باب الود وإلغاء الكلفة.

كان الأستاذ حبيب يعمل موظفا فى واحدة من ادارات وزارة الزراعة طويلا ورفيعا وحافظا لأكبر قدر من النكات والنوادر والمواقف الطريفة، كما كان أيضا يحب الأزجال والأشعار العامية التى كان من فرسانها بيرم التونسى وحسين الغمراوى وامام الصفطاوى، ولا أعرف أن كان ينسج مثل هذه الأشعار أم لا، لكنى أعجبت به وأحببته بتأثير من خالى ومن اشعاع شخصيته الودود.

لم يكن الأستاذ «حبوب» عند خالى عميلا نموذجيا - أى ثريا، إنما هو يقوم بتفصيل بدلة كل سنتين، ومتوسط سعر البدلة كان - فى ذلك الوقت بكل تكاليفها من قماش وخياطة لا يزيد على عشرين جنيها، يدفعها لخالى كل شهر جنيها واحدا، وقبل أن تنتهى الأقساط وتدور الأعوام دورة ونصفا يكون الأستاذ «حبوب» قد فكر فى واحدة أخرى.

لكنه هذه المرة جاء على نفقته بالقماش على غير العادة، وطلب من خالى أن يقوم بتفصيل هذا القماش بدلة سهرة، أى رنجوت، فذهل خالى، وظل صامتا فترة وكأنه يتدبر الأمر، أو يحاول أن يفهمه.

لكن الأستاذ «حبوب» رفض التصريح والبوح بالموضوع مصرا على طلبه، فقال له خالى انه لا يهمه لأن خالى سوف يأخذ نقوده أقساطا، لكن الخطورة فى أن مثل هذا الموديل من الملابس انقرض من المجتمع، حتى اذا كان هناك ما يدعو إليه فسيكون استعماله لمرة واحدة، وتكاليف مثل هذا النموذج غالية، وحرام أن...

لكن الأستاذ «حبوب» صمم على طلبه، وأصبح شخصا جادا لا يريد أن يضحك أو يبتسم، بل وبدأ يحس أن كرامته موضع التجريح اذا ما استمر خالى فى مناقشته.

وبدأ خالى يستخدم دبلوماسيته فى فهم ما يجرى، وافق على كل طلبات الأستاذ «حبوب» وفتح له صفحة للمقاس الجديد حيث لا يصلح المقاس القديم للاستعمال هذه المرة، كما طلب من الأستاذ حبوب أن يشترى قفازا من نوع معين، وبابيون «رباط عنق على شكل فراشة»، وقميصا ذا رقبة خاصة، اذ بغير ذلك تصبح بدلة السهرة مجرد ملابس كالتى يرتديها المهرجون فى الشوارع والسيرك، وكان الأستاذ حبوب يكتب كل هذه المتطلبات فى ورقة بشكل جاد جدا.

كان واضحا أن الأستاذ «حبوب» لا يملك مالا يشترى به قطع الغيار اللازمة لبدلة السهرة، وكان صعبا على الترزى - خالى - أن يقرضه مثل هذا المبلغ، لاسيما أن التوتر ظهر فى علاقتهما

نتيجة عدم ادراك خالى للهدف الغامض من هذه البدلة.

وبعد يومين - جاء الأستاذ «حبوب» وسأل خالى بغطرسة لا مثيل لها عما فعله فى البدلة، وطلب منه أن يسلمها له فى أقرب وقت ممكن، لكن خالى ناوله القماش واعتذر عن خياطتها، لاسيما أن ديونا سابقة على الأستاذ حبيب لم تسدد بعد..

وثار الأستاذ حبيب، وصرخ ولعن ثم استكان وهدأ، حيث لم يقم خالى بالرد عليه أبدا، ثم بدأ يلح بتفصيل قماش بدلة السهرة..

ولم يجد خالى بدا من تنفيذ رغبة الأستاذ حبيب.

ويوم أستلم البدلة - فور الاطمئنان على انضباطها على جسده الطويل، كان يوما بالغ الفرح والسرور والسعادة، وكانت المرة الأولى التى أرى فيها هذا الطراز بعيدا عن شاشة السينما، الجاكيت ذو الذيل الطويل، والياقة المصنوعة من الجوخ اللامع - أو القطيفة - لا أدرى، والدقة الشديدة فى احتواء البدلة للجسد الممشوق..

وغاب الأستاذ «حبيب» طويلا، وكان خالى يسأل عنه الأصدقاء، دون جدوى، حتى عاد آخر الأمر، وقد جاء بلفافة تحت ابطه، وضعها أمام خالى، وهو يلعن الدنيا والناس والحظ العاثر..

لكن خالى لم يهتم بأقواله، وظل منهما فى قص قماش، وكأنه لم يشاهد الأستاذ «حبيب» بالمرة..

وفى آخر الأمر، وبعد أن نظر الأستاذ «حبيب» حوله مرارا للاطمئنان على خلو المكان من الأعداء الذين يحسدونه كى لا يتشفوا فيه أخرج السر من جوفه العميق..

كان الأستاذ «حبوب» فى سهرة لدى بعض المعارف، وكان من بينهم مهندس مناظر أفلام شهير أيامها، وأثناء المرح واللهو سأل مهندس المناظر ان كان الأستاذ «حبيب» يرغب فى الكتابة للسينما، وانهال مهندس المناظر اعجابا وانداهشا من ثقافة الأستاذ «حبوب» وحضوره وعمق ادراكه فى الحكايات، فأثار ذلك مخيلة صاحبنا، وسوف يثير ذلك مخيلة أى فرد آخر مهما كانت مقاومته.

فذهب الأستاذ «حبوب» إلى منزله وظل ساهرا حيث كتب قصة حب جميلة فيها أغان جميلة ومواقف رومانسية جميلة، وهرع إلى بيت ذاك المهندس الذى استكمل اثارة الخيال فى الشيخ «حبوب» فسوف يتم تسليم القصة إلى منتج سينمائى، الذى سوف يكلف بها خبراء السيناريو، كما سوف يطلب من الملحنين تأليف الألحان المناسبة. وبدأت الأسئلة من الذى يقوم بالدور الأول النسائى: شادية أم صباح أم ليلى مراد أم.. حتى أم كلثوم؟ ومن سيقوم بدور الفتى الأول: أنور وجدى أم كمال الشناوى أم عماد حمدى أم محسن سرحان، وأى ستديو هو المناسب فى

التصوير والاخراج والمونتاج والمعمل، ثم وأى سينما سوف يتم فيها عرض الفيلم لأول مرة مع حضور أبطاله هؤلاء الذين رآهم الأستاذ حبيب بخياله جالسين بجواره بصفته المؤلف، والذين سوف ينتقلون إلى حيث حفلة الافتتاح الكبرى فى أحدى القاعات الكبرى فى واحد من الأندية الكبرى، فهل سيحضر الأستاذ «حبوب» هذه الحفلات مع كل هؤلاء النجوم، بالبدلة العادية؟!

والأستاذ «حبيب» رأى جيدا عشرات الحفلات المماثلة فى الأفلام، وكان يتمنى - ويذوب فى التمنى، ومنذ سنوات طويلة - أن يرتدى ملابس السهرة ويحضر مثل هذه السهرة، حتى جاءت هذه المناسبة.

وظل خالى صامتا، حين اندفع الأستاذ «حبوب» فى تغطية حزنه العميق بالتهريج وافتعال المرح: خذ البدلة ياعم وتصرف فيها..

قال خالى فى هدوء وعيونه مصوبة إلى الأستاذ «حبوب»:

- إلى أين أذهب بها؟!

- أنت تستطيع التصرف..

وترك الأستاذ «حبوب» اللفة بعد أن أسرف فى قول أكبر عدد من النكت الشائكة ضد السينما وناس السينما وأهل السينما، ولكن خالى ناداه ليعود فيأخذ لفة البدلة ومتعلقاتها فلم يرجع..

بعد يوم أو يومين طلب منى خالى أن أذهب بهذه اللفافة ومحتوياتها لتسليمها "الأستاذ «حبيب» فى مسكنه الكائن باحدى الضواحى قريبا من القاهرة..

ثم لم ألبث أن نسيت هذا الرجل بالمرة وبعد استقرارى فى أسوان نزلت القاهرة فى اجازة وأقمت فى فندق متواضع وسط المدينة، حينما أدهشنى هذا الرجل الذى يرتدى الرنجوت ويقلد شارلى شابلن، ويتقافز يمينا ويسارا، ويتراقص..

كنت متأكدا أنه الأستاذ «حبيب» فتوقفت قريبا منه وجاءت عيونى فى عيونه حينما لمحت بسرعة، وأصاب حركاته الراقصة بعض الاضطراب.

لكنه لم يتجاوب معى..

وأبعد عيونه عن عيونى وهو يلقى النكت البذيئة على الحاضرين، والدعاء بالخراب على الحاقدين.. ثم بدأ يتراقص دون أن يتخلى عن اضطراب ناعم ومحزن، فظللت ممعنا فى الرنجوت فترة طويلة..

٣٢ كنز لا يفنى

القناعة كنز لا يفنى، القناعة مبتدأ والكنز خبر له أهميته القصوى، إن هذا الكنز يقع مباشرة ملاصقا للقناعة، لا يوجد فاصل من أى نوع، لا حرف جر ولا أدوات توكيد أو استثناء يفصل بين الكنز والقناعة إذ ما تكاد تلتهم بعيونك لفظ القناعة حتى تصطدم بالكنز، فأى سعادة أكثر إسعادا من ذلك؟؟ فإذا كنت أنا مارست هذه السعادة فى أحقاب القناعة الماضية كلها عدة مرات، مارستها وحدى، أى بمفردى، ومع غيرى «دعك من تفكيرك الشرير وإن كانت به بعض الوجاهة، فإن أنواعا من القناعة تحدث لى ولك دون أن تقوم السعادة قائمة وبالتالى يظل خبر الكنز موضع تقليب.

فقد لاحظت - كما تعودت أن ألاحظ - أن ممارستى للقناعة، وما يتفجر عنها من سعادة طاغية، لم ترتبط مرة بأية كنز، دعنى أشرح لك الكنز كما أتصوره، الكنز مبلغ ضخم من النقود الذهبية واللآلىء، والأحجار الثمينة والدرر، والمشغولات البلاتينية، والمنحوتات الماسية، وهو هنا ليس كنزا مادام غير مخبوء ومستور ومحاط بالعوائق، شرط الكنز الأساسى أن يكون فى صندوق صعب تهشيمه والوصول إلى محتوياته، وليس فقط هكذا، بل لابد من إلقائه فى قاع المحيط فيستحسن - كى يصبح الكنز أكثر كنوزه - أن يكون مخبوءا فى موقع مظلم تحت القواطع الضخمة لقاع بارجة غارقة، حينئذ تصبح القناعة أمرا لازما كى تسير الهوينى متريضا على الشاطىء البعيد.

كنزا آخر أتصوره - بنفس التفاصيل الثرية داخل الصندوق المشار إليه - على ألا يكون فى قاع المحيط احتراما لعدم درايتك بالسباحة والغطس، إنما يكون داخل مغارة ضخمة فى بطن جبل ضخم، ولا يمكن الوصول إلى المغارة بسهولة معروفة، إذ أن المنطقة كلها وعرة ومليئة بالثعابين والتماسيح - نعم التماسيح - والعقارب والذئاب ووحيدى القرن والضفادع الضخمة والصقور والكلاب السعرانة والحيتان، ولابد لى - أو لك - أن تجتاز كل هذه العوائق كى تصل إلى منطقة يمكنك أن تتلمس فى جهامة صخورها باب المغارة، وهو أمر بسيط رأيناه مرارا فى أفلام السينما، وتزداد به سعادة حقيقية مبنية على قناعة حقيقية آثارها كنز حقيقى، لكن الواقع السينمائى - كما

تعرف - ليس هو الواقع الذى نعيشه ومعظمنا لم تسنح له فرصة السير وسط الجبال، ولا يجيد مصارعة الثعابين والذئاب والحيتان وسط الجبال، وحتى إذا كان قد صارع شيئا من ذلك فإنما هو - عادة - فى الأحلام، حيث نستيقظ مرعوبين ونهرع إلى كتاب تفسير الأحلام لابن سيرين كى ندرك مغزى الرؤيا ومعنى مصارعة مثل هذه الوحوش.

ولذا فأحسن طريقة للوصول إلى هذه المغارة هى استخدام طيارة والنوع المناسب يكون الهليكوبتر، لماذا؟ لا أعرف وعليك ألا يفوتك التدريب الجيد على السقوط المتقن من طائرة الهليكوبتر على الأرض؟ وأين؟ أمام مدخل المغارة تماما حتى تتفادى معظم الحيوانات المفترسة التى تتطرك بين تضاريسها، وسوف تتشلك هذه الطائرة فور استحواذك على كل أنواع عناصر الكنز، الذى يكون تحت أمرك داخل صندوقه الضخم، والذى سوف ينهار عندما تستخدم بحذق ومهارة شاكوشا أو قدوما أو صخرة فى فتح مغاليقه.

الأمر الآن يصبح سهلا إذا ما أتيحت لك الفرصة الجيدة للوصول إلى تلك المغارة الحاوية فى بطنها الكنز، وليس ثمة مستحيل فى هذا العالم كما ترى، ربما تكون أهم المشاكل الكامنة فى هذه المغامرة تكمن فيك أنت، إذ إن تيسير وصولك إلى باب المغارة ليس بعده تيسير، الخوف أن الخطر لا يكون فى الزواحف والحيوانات المفترسة والهضاب والتضاريس، بل فيك أنت الذى وصل إلى باب المغارة الحاوية الكنز، فإذا به يضرب أخماسا فى أسداس، فقد نسى الجملة السحرية التى ما يكاد ينطق بها حتى يتهاوى باب المغارة للرعب: افتح ياسمسم وتظل مثل معظمنا الذين لا يستذكرون مثل هذه الطوم، تدق باب المغارة وتكاد تسقط من طولك، صارخا: افتح ياقمح، افتح ياشعير، افتح ياحشيش، افتح يا ماراجوانا، افتح ياحمار، دون جدوى.

هنا نعيد النظر فى قراءة الحكمة الراسخة: القناعة كنز لا يفنى، بعد أن استحال علينا تجاوز العراقيل المعطلة للوصول إلى الكنز، ثم بعد أن تجاوزنا العراقيل، ظهرت مصطلحات فتح باب المغارة ذاتها والتى ضاعت أثناء انهماكنا المثابر فى تجاوز العراقيل ذاتها.

إن الكنز - تسهيلا لى ولك - إنما هو تعبير مجازى لا يستقر فى صندوق على قاع محيط أو داخل مغارة فى سراديب الصخور أو حتى فى جزيرة منقطعة عن العالم إنما هو - هذا الكنز - كل هذه الأشياء الأثيرة قد تكون الحلى والمشغولات الثمينة بعضا منها، وتكون الآمال والأمنيات - الوقتية والدائمة - بعضا منها والذى لن تتفتح أبواب مغاراتها إلا باستخدام اللوغاريتم أو المصطلح أو الرمز الذى به تتجاوب معك، فقد كنا ذات سفر إلى مدينة أسوان فى آخر جنوب مصر، وكانت عربات السكك المستخدمة أيامها غير هذه المعروفة الآن، كنا نركب قطارات الدرجة الثانية ذات

الدواوين أى أن بكل عربة عدة دواوين وكل ديوان مكون من أريكتين متقابلتين، وفى العادة يجلس عليهما ستة أفراد، على كل أريكة ثلاثة ولم يكن حجز مقعد معروفا، إنما كان المعروف حجز ديوان كامل لك ولأسرتك على أن تدفع أجر ستة أفراد، وبسبب الزحام كنا نحن ركاب المحطات الوسيطة - أى التى بعد المحطة الأصلية للقيام - القاهرة، نحاول أن نجد مكانا فى هذه الدواوين، وقد اخترقت أحد هذه الدواوين ذات منتصف ليل، وبعد أن أمعن فى الركاب الستة افسح لى واحد رفيع جدا مكانا بجانبه وما كدت أضع حقيبتى على الرف وأجلس حتى فوجئت بسيدة بالغة الجمال جالسة على الطرف الأول للأريكة والتى يصبح بسببها ظهرها يميل إلى الباب، كانت جالسة وانقة هادئة ولم تتحرك ولم ترفع عينها لتستطلع.

وكانت السيدة قد ارتدت الأسود - بوجهها البالغ الملاحة - فأبرز هذا الاطار الأسود جمالها بشكل أكثر تألقا، وما كدت استقر مستطلعا وجوه الرفاق حتى تمعنت فيها قليلا لكن صمود عينيها الجميلة دون أى حركة جعلنى أسحب عيونى بعيدا عنها.

وكان واضحا أنهم تعارفوا قبلى، مهندس مساحة وناظر مدرسة، وناظر عزبة وتاجر أخشاب وواحد كان نائما ثم أنا الذى يعمل فى بناء السد العالى، ثم هذه السيدة الجميلة المتألقة فى اطار أسود.

وظل القطار يخترق وادى النيل، وكلنا نتكلم ونضحك ونتصفح الجرايد ويغالى بعضنا فى معرفة الأماكن التى يخترقها القطار ويروى ذكريات عنها.. وهى لا تتحرك.

وقام تاجر الأخشاب فتناول لفافة ضخمة بها أرغفة خبز وجبن رومى وطماطم، وبدأ يدعو الجميع ليأكلوا، فقمت وتناولت لفافتى - أيضا - التى بها أقراص فطير مثلثات صعيدى وجبن قديم، وبدأ الجميع يأكلون.

قلت لها بوضوح: اتفضلى، رفعت عيونها فى وجهى ثم أسبلت رموشها لتنغلق العينان وفتحت الرموش مرة أخرى علامة الرفض، فنظر أحدهما فى وجهى وفمه ملىء بالفطير المثلثات وكأنى قد ارتكبت معصية، وعندئذ لاذ الجميع بالمرح والملاحظات، وأفضت أنا فى ذكر بطولاتنا المروعة فى السد العالى..

لم أكن أحكى للناس.

كنت أحكى لها.

لكن الملعونة ظلت صامتة حتى النوم لم يغلبها، وحتى أكثر النكات اضحاكا لم تؤثر فيها.

والقينا بالبواقى من النوافذ، حين قام تاجر الأخشاب وكان الصبح قد بدأ يفتح عيونه خارج النوافذ، وخرج من الديوان، ثم عاد بعد قليل، وجلس، كانت بيده كوب من الماء، فنظرنا جميعا إليه

لكنه وفى هدوء مد يده بالكوب إلى السيدة بطريقة لا تجعل للرفض معنى: اتفضلى وهاروح أجيب غيرها. امتدت يدها إلى الكوب وحركته فى أناقة إلى شفتيها.

كنا ننظر إليها لكن تاجر الأخشاب فتح عيونه فينا كى نرفع عيوننا وشربت السيدة الجميلة قطرات من الكوب وأعادت الكوب إلى الرجل هامسة بكلمة لم نسمعها لكنها بالتأكيد كانت شاكرة..

كان باب المغارة قد انفتح أو هكذا بدت الأمور حينما بدأ البعض منا يوجه بعض كلماته إلى السيدة الجميلة.

لكنها عادت إلى صمودها.

فعدنا إلى ضجيجنا المشترك نداري هذا الصد المقاوم.

وبعد أن انفرش بطن الوادى بنور النهار، قام تاجر الأخشاب، وخرج، ثم عاد وسألها فى هدوء مبتسم: دورة المياه فاضية، يمين الباب، تعالى.. فقامت السيدة وراءه، لابد أنه قريبها أو هى معه من الأصل، لكن الرجل حين عاد نفى ذلك تماما وعادت السيدة إلى مكانها هادئة وأكثر جمالا، بعدما وصلنا إلى محطة أسوان، وانشغل كل منا فى شئونه.

وبعد أيام - أو شهور - كنت أسير فى مدينة أسوان حينما وجدت تاجر الأخشاب جالسا أمام محلاته المتعددة المتجاورة، تذكرته بسرعة فمضيت إليه وبعد السلام جلست أثرثر معه لكنه قطع طريق كلامى وقال فى هدوء لا تسألنى عن المرأة التى التقينا بها فى القطار، لماذا؟؟ إنها أصبحت زوجتى، كيف؟ أبدا لقد استخدم المصطلح المناسب فى الوقت المناسب، فانفتح باب المغارة، لكى يصل إلى الكنز فى هدوء شديد وبدون ضجيج وبدون سقوط من طائرة هليكوبتر أو مصارعة الحيوانات المفترسة، أو الاهتمام الشديد بالقناعة التى هى كنز لا يفنى.

وقد جربت بنفسى تقديم الماء الساقع لجارات السفر، لكنهن جميعا كن مرويات، حيث يرفضن أى شراب، لكنهن يظللن شديدات الرغبة فى الثرثرة والمرح، مما يخرجهن عن صمود المغارات الحاوية حيث لا تبقى سوى القناعة المشار إليها لتظل مبتدأ وخبرها هذا الذى لا يفنى دون أن نصل إليه.

رسائل العظماء وأنا منهم ٣٣

تظل فلسفة «المتاحف» تنظر بنصف عين للعظماء والمشهورين الأحياء، في انتظار تلك اللحظة التي يهجرون فيها الحياة الدنيا، لتتأهب هذه الفلسفة كي تنقض على مآثر الراحل الشهير: المكتبة والبيت والأقلام واللوحات، ثم المراسلات وهي - هذه المراسلات - دائما التي تنعم باهتمام المنظرين والنقاد، ذلك أن كل تكوينات المكتبة لا تشي بخصوصية هذا العظيم، إنما هي تعلن عن مدى اختراقه أعماق العالم وأغوار الثقافة. كما أن البيت قد يعني مدى تطور وعصرية وتقدم صاحبه ولا يزيد على هذا المعنى كثيرا ما يكون قد اقتناه من لوحات مشتراه في النادر - وهدايا في معظم الأحيان. كما أن كل المؤلفات قد تقدم لذوي الاهتمام ما يريده العظيم أن يعرفوه فقط.

إلا الرسائل..

إن الرسائل المتبادلة بين المشهورين، وبين أصدقائهم ومعارفهم ومحبيهم، تكشف عن مناطق غائرة - عواطف وسلوك في الوجدان، لا يميلون إلى كشفه للآخرين بسهولة.

ان أي كلام يبوح به صديق الشخصية الشهيرة، أو زوجته أو ناشر كتبه، أو منتج أفلامه لا يساوي الكثير إذا ما قورن بالرسائل العفوية، أو السرية التي صدرت، ولاسيما قبل أن تصبح هذه الشخصية شهيرة.

ولذا فقد حازت رسائل هذه الفئة اهتماما معروفا في دول الغرب، من تحليل وتوضيح وربط وكشف، وعلى سبيل المثال فإن رسائل أوسكار وايلد للآخرين - بعد تصنيفها وتبويبها مع التحليل والتنبيه والتفسير - هذه الرسائل أصبحت لها قيمة أدبية توازي قيمة أوسكار وايلد ذاته. وفي هذا المقام أصبح للشخصيات التاريخية - مثل نابليون ونلسون وأتلي وتشرشل - وهج أكبر وأوسع، بعد نشر رسائلهم، هناك في الغرب لا يخشون - إزاء مثل هذه الأمور - إلا الحقائق ذاتها، ومنطق الواقع الذي عاشته الشخصية وخصوصا - مرة أخرى - قبل أن تحقق هذه الشهرة ثم بعد تحقيقها..

عندنا الأمر يختلف.. فباسم الخصوصية «والتعبير المهذب للحياة الحقيقية» يقوم الأنصار والمريدون وأصحاب المصلحة بإخفاء ما قد يرونه خادشا أو جارحا، ودون اهتمام بأن الشخصية هي إنسانية بالدرجة الأولى، لها ما على الإنسان من سلوك ورغائب ونزوات، والأمر - كما ترى - نسبي، فخطابات أنور المعداوي - الناقد الأدبي المصري الشهير الذي رحل في الستينيات - إلى الشاعرة نازك الملائكة، ورسائل نازك الملائكة إليه والتي قام بجمعها وتمحيصها الأستاذ الراحل الدكتور علي شلش، توقفت عند حدود قضايا النقد والشعر، والآراء المتبادلة في هذه الشئون نادرا ما تطل من ثغراتها لواعج القلب، المراسلات تمت بين ناقد وشاعرة، وليست بين مغرم ومغرمة فماذا لو امسكنا برسائل أنور المعداوي إلى غير نازك الملائكة، فتاة أخرى لا يكون الشعر والتعبير والحداثة قضيتها؟؟ أم أن ثمة رسائل بينهما فاحت وتسربت من بين تعبيراتها اعترافات العاشقين، أبعدها الباحث تنفيذا لدعاوى الأخلاق؟

لذلك نجد أن ما كشف من رسائل المشهورين العرب لم تجد اهتماما يذكر، خلت تماما من عفوية الاعتراف، وتحولت إلى مساحة إبداعية قابلة لأن توضع بجانب مقالاته وبحوثه وأشعاره، فالعقاد الذي ادعت فتاة أنه أبوها في الأسبوع الأول من رحيله في مارس ١٩٦٤، والذي كشف مصطفى أمين عن علاقاته العاطفية المركزة مع سمراء الشاشة مديحة يسري، ظلت خطاباته المعلنة والتي تحدث عنها أصدقاؤه وتلاميذه أيامها لا تخلو تماما من هذا الشطط العاطفي، لا لأن العقاد لم يمارس كتابة مثل هذه الرسائل، أو هذا السلوك بل لأن الشخصية الشامخة يجب ألا تمسها - في رأيهم - مثل هذه الخطابات أو هذا الكشف.

في حين أن رسائل العظماء - قبل أن يصبحوا عظماء - والتي تتناول احساسهم الدافق بالحياة، أفضل مليون مرة من رسائلهم - بعد ذلك - التي تكتنفها قدراتهم الشهيرة، والتي لا نحب أن نطلع عليها، لسبب واحد: الملل..

دعوني أعترف - مع بعدي الواضح عن طائفة العظماء - بأنني واجهت شيئا من ذلك منذ أسابيع..

صديق من قريتي، كنا متقاربين أيام صبيانية القرية هو من طبقة الأثرياء، وأنا من تلك الطبقات الأخرى، والتي يهرب معظمنا من الانتماء إليها.. طبقة الفقراء، وصغار الكادحين.

وعندما أصبح طالبا بكلية الحقوق بالقاهرة، ازددنا قربا، كنت أنا أعمل في مهن غلبانة ولا تؤدي إلى المجد التليد «مساعد خطاط لافتات، صبي تاجر أقمشة، عامل بمعمل تحميض أفلام سينما..

وعندما تخرج صديقى من الحقوق، استطاع ان يلتحق بسلك القضاء، ابتداء من معاون نيابة، حتى اصبح قاضيا، فمستشارا.. وقد تجمدت علاقتنا حينما اصبح معاونا للنيابة وفى بلدة قريبة من بلدنا، اذ أن هذه الوظيفة - معاون النيابة - لها وهج ووجاهة عند الجمهور، وتدعو للفخر، وبالتالى فقد تغيرت امور كثيرة فى صديقى، اولها انه اصبح مقصدا لصداقة الأثرياء من القرية، بل وكثيرا ما كان أهلى الفلاحون يتجهون نحوى حتى يجدوا لهم اهتماما عند صديقى هذا، وهى حياة واضحة التكلف، لا يمكن ان يشوبها النزق او الشطط - حياة صديقى اقصد .

ولم يعد باقيا من علاقتنا إلا السلام والتحية من بعيد فى الحالات التى يتصادف وجودنا معا فى القرية، وبعض الزيارات التى تتسم بالمجاملة فى رحيل الأعزاء، حيث ترى اهتمام الخلق به، ووقوف الجميع احتراما، حينما يهل القاضى - ثم المستشار - على ساحة العزاء.. ثم تقلصت الأمور إلى مكالمة تليفونية مرة كل بضعة شهور.. وفى آخر مرة - وأثناء جذب جمل الذكريات - قال لى الصديق المستشار «فى التليفون أيضا» كلاما به رائحة ساخرة عن حياتى المبكرة معه ثم لم يلبث ان اشار فى خبث إلى رسائل كتبتها ايامها - ولعدة سنوات - يعرف طريقها وتكشف لواعج القلب وتفضح علاقة نكرة لى.

كنت قد كتبت فى مجلة «العربى» من شهور فى صفحة الواحة التى احررها، وتحت العنوان الذى يذيل المقاطع فى آخرها «كلمات لها معنى» «أدفع عمرى لمن يدلنى على خطابات عشقى المبكر، تلك التى أودت بى أن أصبح كاتبا».

لقد اهلكت عددا لا بأس به من المكاتبات المبكرة لعلاقات لا تلبث ان تفور ثم تخمد وتنتهى وتصبح ذكريات نستقبل بها اغانى ام كلثوم اهل الهوى ياعين فاتوا مضاجعهم، وعبدالوهاب: افتركتى يااللى قلبك مش فاكرنى، وعبدالحليم حافظ: فى يوم فى شهر فى سنة تهدا الجراح وتنام وعمر جرحى انا اطول من الأيام، وفريد الأطرش: نجوم الليل - لا انكر باقى المقطع الباكى لأن حبى لفريد كان منخفضا، كنت اتلوى - يا عينى - جائعا محتاجا ملتاعا محترقا، وأى كلام جميل من أى بنت ذات نية حسنة يقودنى فورا إلى قصة حب، ونادرا ما يقابلها خطابات حارقة لها، اللوعة والاحتراق - الخطابات - منى.. إلا فى ثلاث حالات:

الحالة الثانية من فتاة كنت أعمل عند خالها المحامى كاتبا فى مدينة أسوان، ولم أرها، بل تبادلنا المكالمات التليفونية، ثم سافرت هى إلى القاهرة، راسلتنى كمية ضخمة من المراسلات الملتهبة، وعندما سافرت خلفها لأراها بعد طلوع الروح «كانت طالبة فى كلية البنات»، فوجئت - أعوذ بالله - بأنها كانت تراوغ كى لا أراها بسبب عطلها من الجمال، أى جمال، وفى الحقيقة فإنها كانت عاطلا فى كل شىء، لم تكن الخطابات تشى بذلك ابدا، وقد حاولت أن أتجاوز ذلك

لكنى فشلت، فالجمال جمال الروح، لكنها لم تساعدنى، مما احبطنى، وأوقعنى فى اضطراب نفسى كاد يودى بى..

الثالثة: القاهرة فى يناير ١٩٥٢ قريبة لى جاءت مع أبيها من القاهرة إلى القرية، يوم حريق وهى التى فتحت الفؤاد على أولى التجارب، كان عمرها أصغر من عمرى، كنت فى الرابعة عشرة، وعندما عادت إلى القاهرة ارسلت لها رسائل مفعمة بالشوق والحنين، ولكنها لم ترد، وبعد سنوات قليلة - وكانت قد أصبحت طالبة فى معهد تربية بدنية شهير - وجاءت صورتها ذات مرة على غلاف مجلة «الجيل» التى كان يرأس تحريرها انيس منصور، ذهبت إليها - إلى بيت قريبى فى الظاهر - لأستعيد حبى المكنون لكنها راوغتنى، قطعت عليها الطريق حين خروجها من المعهد، فإذا بقريب - أبيها - يتصل بى، وحين اقابله يقول فى هدوء ماكر، هدوء للتشرب بمن عاشرهم من خواجات فى القاهرة: إذا كنت عاوز تقابل بنتى تعال للبيت، بلاش حكاية الشوارع، وبلاش كمان حكاية الجوابات.. وبالطبع لم اذهب لمقابلتها فى بيت ابيها ابدا، ولم اكتب لها خطابا مرة أخرى، ولازلت كلما تذكرت ان خطاباتى كان يستلمها قريبى خطابا تلو الآخر، أحس بمؤامرة بالغة النعومة فكيف يتسنى لى أن أستعيد خطابات مضى عليها اربعون عاما هذا فى حالة كونى مرشحا لأن اصبح عظيما...!!

أما الحالة الأولى التى اجلتها، فقد كانت بعد حضور قريبتى من القاهرة إلى القرية، وقيامها باشعال فرن الولد الريفى وتركته على ناره وسافرت، ولمرور فترة طويلة دون أن ترد على رسائلى، فقد بدأت أبحث عن فتاة فى القرية تصلح حبيبة ذات شأن لى..

كان صديقى - الذى أصبح مستشارا صبيا صغيرا أيامها - ولأنهم أثرياء فقد كان أخوه الأكبر يذهب إلى المدرسة فى سيارة «جيب» وكان الأخ الأكبر صديقى «قتل بعد ذلك بعشرين عاما فى فراشه»، وجاءت ارسالية من الارساليات المسيحية الأوروبية التى انتشرت فى صعيد مصر، لترغيب البنات فى التعليم فى الظاهر، أو هكذا كنا نفهم - دون التعرض للنشاط الحقيقى لهذه الارساليات، وكانت أخت صديقنا - الذى قتل بعد ذلك، وهى أخت الصبى الذى أصبح مستشارا الآن، قد وافق أبوها على الالتحاق بمدرسة لرسالية التبشير فى ديروط المحطة.. وكانت تركب السيارة «الجيب» مع زميلات لها من عائلات أخرى يذهبن لنفس المدرسة.. وأحببتها.. أحببتها حبا يفوق الخيال، وقد قابلتها قبل ذلك مرارا فى بيتهم، لكن - بعد دخولها هذه المرحلة - أصبحت أنا الصبى فتى لا يمكنه الدخول ببساطة..

فكتبت لها أول خطاب ممهورا بالصقر الأسود، وكنت أتخفى وأصنع الحيل كى أدس لها

الخطاب في مواقع معينة فى حديقتهم ومدخل بيتهم، لعتقدت انها تتحرك او تتجول فيها، وكان لختيارى للصقر الأسود رمزا لهذا المحبوب الغامض نابعا من مئات الروايات والقصص وللغامرات التى قرأتها فى تلك الفترة.. وكانت الخطة بعد الاطمئنان على وصول خطابات الصقر الأسود الساخنة الباكية الملتهبة لن احاول ان اكشف عن شخصيتى.. وظللت اكتب هذه الخطابات، وادسها فى أعقاب الأبواب وتحت التليفون فى الديوان، وفى اللحظات التى أراها رؤية عابرة - فى السيارة أو اثناء خروجها من البيت - كانت تبتسم فيزداد وجيب القلب.. ثم ضاقت القرية بى وسافرت مرتحلا فى بلاد الله حيث اصبح اخوها مستشارا، واصبح الصقر الأسود كاتبا، وبدأت حكاية الخطابات السرية الكتاب تأخذ اهتماما من الباحثين.. فإذا بالصديق المستشار، يشير إلى تلك الخطابات.. أى انه حصل عليها، واحتفظ بها ولم يبق إلا ان يشير - فى حرص ساخر - إلى امتلاكه لها.. ولأن حبيبتى - هل يمكن ان ينسحب عليها لفظ حبيبتى؟؟ - تزوجت وقتل اخوها ومات زوجها بمرض أيوب وأنجبت رجالا، فقد اصبح من اليسير ان افتعل مناسبة لزيارتها، وظللت أقلب فى حياتها المبكرة ولعدة زيارات دون ان اصل إلى ذكر خطاباتى، حتى حين نطقت باسم الصقر الأسود، لم اشاهد اثرا على ملامحها. ولعلها الخطابات الوحيدة التى يمكن لن اسعد بقراءتها مرة أخرى، رغم عدم وصولها لصاحبتها بالمرة.

وأنا الآن مستعد - حين اصبح عظيما - ان اشير الدارسين - بعد رحيلى - ان يبحثوا الأمر، ولن يقرأوا هذه الخطابات لعل الصقر الأسود يكون اكثر شجاعة وصدقا منى..

٣٤ ما حدث بين شارلمان والجد الأكبر

كنت أعلم - من ثقاة الرواة - ان جدى الحاج مستجاب له ميول أوروبية أوروبية فقط لأن الرجل رحل عن عالمنا عام ١٩٤١ قبل اكتشاف امريكا بأسبوعين، وقبل القاء القنبلة الذرية الأولى على هيروشيما بأربع سنوات، ولو طال عمره - كما طال عمر البعض - وعاش حتى الآن لكان ساعدنا فى فهم كثير من الأسئلة الأمريكية، ولكان فى حد ذاته الاجابة السليمة على اى سؤال عصرى، لكن الرجل - فى حدود ميوله الأوروبية - أدى ما طلبته تلك المرحلة التاريخية وزيادة، تحقق ذلك فى قدرته الفائقة على الهروب من قول الحق، وتغليب الواقع على المأمول، ولم يشارك فى الدعوة لتأميم قناة السويس لسببين: الأول انه لم يكن ثمة دعوة للتأميم قد ظهرت فى هذه الأحقاب، والثانى ان جدى العظيم لم يكن يعرف أين هى قناة السويس، إلا من حكايات قديمة عن الذين ضاعوا مبكرا فيها اثناء حفرها، وذلك واضح انه ما كان يمكنه ان يفكر بهذه الكيفية دون ايديولوجية غربية ضاغطة، وهى التى جعلت منه فلاحا عصريا ناجحا، لا يتكلم كثيرا ولا يسعى لمشاهدة الأفلام ذات السمعة الأخلاقية السيئة، وفى الحالات التى يجد نفسه وجها لوجه - داخل الزراعة الكثيفة - أمام مشهد أوروبى مؤثر، كان يشيح بوجهه امتعاضا ثم يعود - اكراما لأوروبا - فيرمق المشهد فى هدوء مفعم بحكمة الامعان، ولم يكن فلاحا يسقى ويروى ويزرع ويحصد ويجنى فقط بل وكان راعيا لمجموعة جميلة من الماعز والغنم، لا يؤذيها ولا يضربها كما تعود الشرقيون من سكان اسيا وافريقيا، بل كان يحنو عليها بإشارات موحية مؤثرة تفوق حركة عصا كارايان وهو يقود الأوركسترا ذات المشهد المحبب، وما كان يقطع عليه مثل هذا إلا الظهور المفاجىء لذئب أو ثعلب أو نسر أو أسد.. حينئذ يعدو الرجل عدوا يتجاوز به الـ ١٢٣٠ مترا فى الدقيقة التى كانت الرقم الأوليمبى للماراثون أيامها، (نوال المتوكل ١٩٣٣) وهذا النوع من الحكمة السريعة هو الذى ربط جدى العظيم بشارلمان ملك فرنسا وبلاد الغال وثلاثة أرباع أوروبا لأن شارلمان ولد فى القرن الثامن الميلادى (بالتحديد ٧٤٢م) ورحل فى أوائل القرن التاسع (٨١٤)، اى قبل ظهور جدى بأكثر من أحد عشر قرنا، ومن الغريب ان التقاء هذين المزاجين قفز فوق كل الأحقاب، اى فوق كل العصور المتوسطة المبكرة، والتى يدعوها البعض عصور الظلام، واخترق احد عشر قرنا ليحط فى هدوء فى القرن العشرين، الذى بدأ مزاجه «اى

القرن العشرين، بزواج الجد الجميل الحاج مستجاب، ليكون لزوجته - جدتي - أجمل اسم في الوجود: شهريان، نعم شهريان وليست شهرزاد وليست شهريار، لكن هذا الاسم لديه قدرة فائقة على ربط هذا الرجل الحكيم بالعصر الذي حكت فيه شهرزاد حكاياتها الشهيرة، والذي كان على زمن الخليفة هارون الرشيد وفي الناحية الأخرى من العالم كان شارلمان، فإذا بالحاج مستجاب يرتبط مزاجيا بشارلمان الملك، ودون هارون الرشيد الخليفة.. سبحان الله.. فلم يتزوج سوى مرة واحدة، وإن كانت سيرته لم تخل من وقائع لا يصح دائما أن نتعرض لها!

لم تكن الأجيال قد انتبهت للمزاج الأوروبي هذا الذي هيمن على الجد الكبير، صحيح أنه لم يلعب الشطرنج ولا البلياردو، وإن كان قد لعب مرة أو مرتين الكوتشينة، ولا أعرف إن كان قد وقع في شرك الشراب المحظور، لأنه يمثل هذا المزاج الثلجي اللعين لا نستبعد عنه شيئا، ولعل ما أصابنا - نحن ورثته - بالذهول، هو هذا الحادث الذي حاولنا إبعاده عن تاريخنا، أو تدمير الجزء المخصص له من ذاكرة الناس، أو العبث في الحادث تمهيدا التشكيك فيه - كما حدث بعد ذلك بأكثر من عشرين عاما - حينما شككنا في محاولة اغتيال الاخواني محمود عبد اللطيف الرئيس الراحل عبدالناصر في المنشية بالاسكندرية عام ١٩٥٤. واستطعنا أن نقول كلاما آخر (أن المعتدي كان عميلا لعبدالناصر نفسه وأن عملية الاغتيال كانت مسرحية وتمثيلية ناصرية) حتى فوجئنا بعد ذلك أيضا بأكثر من عشرين عاما أخرى - أو ثلاثين - بالرئيس السادات وقد تم اغتياله بنجاح بيد أحفاد محمود عبداللطيف، فاضطررنا أن نفسر هذا الاغتيال بأنه مسرحية من المقتول نفسه، فلم يصدقنا أحد!! لكن الحادث الذي ربط الجد الكبير بالحركة الأوروبية لم يكن - أيضا - من هذا النوع، بل كان متفردة تاريخية لم تحدث لأحد في كل أحقاب التاريخ المعروف منذ حرب البلاهة الأولى بين قابيل وهابيل، وحتى حرب البلاهة الأخيرة التي بموجبها داهم جيش العراق العرمرم دولة الكويت الطيبة لم تحدث هذه الحادثة طوال أحقاب التاريخ إلا لاثنين: الجد مستجاب - جزاه الله كل خير - وشارلمان الملك - جزاه الله بأي خير -

كان الرجل العظيم راجعا في ظهيرة ذلك اليوم التاريخي من حقله أو من رعي غنمه أو من أي مجال مسموح له في مثل هذا اليوم، كان اليوم يوم جمعة، وله في نفوس أهلي كلهم - بمن فيهم الجد نفسه - مهابة وسطوة، والرجل قد أسرع إلى البيت لينظف جسده، ويرتدي أجمل ملابسه وأنقاها وأطهرها، وقبل أن يعرج إلى داخل القرية وجدها أو وجده (لا أعرف إذا كان الأسلوب اللائق والمناسب للحديث يصلح للمؤنث أو المذكر!!) سنقول وجدها.. نعم: وجدها في مستهل هذه الظهيرة المباركة، دائرة صغيرة صفراء طم أقل ذهبية وبراقة تلمع في ضوء الشمس القوي، حينئذ تراجع الرجل ذو التجارب الخلفه وظل يمعن وهو يبسمل ويحوقل، ثم خطا خطوة للأمام تسمح له بالإمعان أكثر فيما كانت الدائرة الصغيرة البراقة قد ازدادت لمعانا، واخترق اللمعان أهداف مستجاب كما اخترق عمق العين، ويريش الرجل في اضطرابه فهو يعلم - عن يقين - أن الكنوز تظهر في ظهر الجمعة كما أن العفاريت تظهر في

نفس الوقت بعد أن تحل عقالها، وتصنع هذه العفاريت كثيرا من الحيل والمؤامرات لإيقاع أبناء آدم أو أبناء مستجاب في حبائلها، فما بالك بأن يحدث ذلك مع هذا الرجل، والذي يشاء له حظه أن يقع في هذا الاختبار؟ وانحنى الرجل مضطربا ومستطلعا، وتناول الدائرة الصفراء البراقة وقربها في وجل من عيونه، كانت ذات مساحة داخلية بيضاء ناصعة بها علامات تشبه خرابيش أرقام أعناق الجمال، هي حتى الآن كنز، نعم: كنز ذهبي يثبته تلك السلسلة الرفيعة المتألقة التي نبهته فورا أنها تشبه تلك المسلة التي يقتنيها عبدالعليم العمدة، واندفعت برمجة مخه بسرعة كي تغذيه باسمها، حيث ظل فترة يستخرجها من القاموس غير المستعمل داخل عقله، واندهش الرجل وبهت وحمد الله على هذا الكنز الذهبي الذي سوف يجعله بين الأقران أكثر ثقة في النفس وأكثر تميزا وامتيازا. وابتلع الرجل دهشته ولفها في ثنايا حمده لله واستمتع قليلا برؤية وتلمس السلسلة الذهبية الرفيعة الأنيقة ثم سار خطوتين - خطوتين فقط - وعاد للإمعان فيها، سلكان رفيعان ثابتان وسلك دقيق هزيل يتفلخر في الساحة كلها، يتراقص هذا السلك الثالث في حبور داخل قاعة الساعة كلها، أعوذ بالله كانت تجارب الرجل السابقة تجعله يدرس الموقف من جميع أجزائه: البهو الأبيض، والإطار الذهبي، والأسلاك الذهبية الثابتة والسلك المتراقص، وبتصميم أوروبي معروف، وفي لحظة الهلع نادرا ما تداهمه، وضع هذه الساعة على أذنه فوجده يدق، وجده - ولم أقل وجدها، أه أذن فها هو الشيطان المتوقع ظهوره له منذ أن أصبح لذات الأربع أربع - يخرج له الآن، أعوذ بالله لم يسمع أبدا من العمدة أن الساعة تدق، الشيطان هو الذي يدق، الشيطان المتشكل في الساعة المتخلق كالساعة، الشيطان ذو الروح الدقاقة، الشيطان فقط هو الذي يفعل ذلك. كان الموقف عصيبا، ومرهقا، وتجارب الحاج مستجاب لم تكن في صالح الشيطان، حينئذ، ألقى الرجل المؤمن بالساعة الشيطانية على الأرض، وظل يدكها - أو يدقها - بعكازته الصلبة يستعيذ بالله ويرفع عقيرته بالاستنجاد بكل القوى المضادة للشيطان، ويدك، ويرجع للخلف ثم يداهم الشيطان في الأرض، ويتناوله ويقربه من أذنه فيجده قد عاد داخل وكره فيلقي هذا الوكر الذهبي من جديد ويعود الدق أو الدك حتى أرهق تماما. كان العابرون والذين سمحت لهم المسافة بسماع ضجيج المعركة قد جاءوا من كل الأنحاء، ونجح الرجل الطيب - جد آل مستجاب - في تدمير وكر الشيطان، والتقط عكازته ثم التقط أنفاسه وترك الشيطان الذهبي يختفي بمعرفته أو يتبخر بمعرفته وسار مضطربا - ببعض الاضطراب - متوجها إلى بيته ليلحق بظهر الجمعة تاركا لنا هذه الحكاية التي ورثناها كما ورث العرب حكايات ألف ليلة وليلة ولتبرز أولى بوادر مزاجه الأوروبي، حيث لم يحدث ذلك لأحد من قبل إلا لشارلمان الملك.. حينما واجه عفريتا آخر في شكل ساعة أرسلها له هارون الرشيد من أحقاب طويلة بل - ويقول الثقاة - أن ساعة جدي الشيطانية هي ذاتها ساعة شارلمان، ولازلنا نبحث عمن استطاع - وبنجاح ساحق - أن يفعلها في الاثنين!!

٣٥ التحدى والاستجابة فوق ظهر جحش

ومع غرامى للطيق بالتاريخ، رفض جميع الأصدقاء أن أكتب مقالا سياسيا، ليس بحجة أن كل من هب ودب وفك الخط يكتب الآن مقالات سياسية بل لأنى أنا بالذات، ودون خلق الله لا أملك نظرة تحليلية فذة - مثلا - لا امتلك موهبة كتابة المقدمات والتى بعدها يبدأ عرض الموضوع للوصول إلى نتيجة مقنعة وواضحة، ثم قال هؤلاء الأصدقاء الذين يحتلون مقاعد كتابية جيدة لأنهم بداوا حياتهم بكتابة المقالات السياسية: «اكتب عمودا فى عشرين سطرا حتى تتلافى عيوب المقالة» وهم يقصدون أن العمود يخفى عيوبى.. فكتبت بالفعل عمودا عن الفرق بين بيض الضفادع والكافيار، وآخر عن الكوسة وعلاقتها بالقرع، ثم انهمكت فى دراسة عن هدهد سليمان ومناوراته فى مسألة الملكة بلقيس التى أدت إلى تدمير مملكة سبأ.. وعدت إلى الأعمدة فوجدتها تقف خاوية دون سقفه قلت فى نفسى «ليس من المعقول أن واحدا مثلى له دراية بكل النظريات التاريخية ابتداء من الثلاثى الاغريقى الشهير الخاص بالتراب والماء والنار - وانتهاء بالثلاثى المعاصر للزميل ارنولد توينبى المسمى بالتحدى والاستجابة - يمكن أن يستعصى عليه ادراك للمغزى التاريخى والهدف الأخلاقى وللمجال الجغرافى الذى يمكن أن يكتب فى أعمدته» وبمجرد ترتيب أوراقى وأفكارى حتى ظهر أبى، عاد إلى ذاكرتى بقوة صاروخية وضغط اشعاعى مروع، فقد كان الرجل فلاحا فقيرا من هؤلاء الذين يرون فى ملكية الأرض الفخر والاعتزاز، كما أن التفريط فى الأرض مهانة تجلب كل الازدراء، وعليه فقد نجح نجاحا واضحا فى أن يمتلك فدانا جنب القرية مباشرة، ثم عدة قراريط فى قطع خارج القرية، أهمها تلك التى كانت مساحتها سبعة قراريط أى أكثر من ربع فدان بقراط واحد إن كنت تذكر كم عدد قراريط الفدان، ومشكلة هذه القراريط السبعة أنها كانت فى منطقة بعيدة جدا عن القرية هناك فى غرب الجسر حيث يقوم مبكرا ليظل يمشى فى الطرق الزراعية والممتدة ويعبر بحر يوسف - فى مثل عرض نهر النيل - ويسعى طويلا حتى يصل إلى حقله العزيز الواقع وسط حقول قرى أخرى قريبة منها، تسعى دائما على أى مساحة تمتلكها وتزرعها، وتقوم بتنفير الفلاحين الغرباء عنهم - مثل أبى - كى يبيعوها لهم بالقوة أو بالسياسة أو بأية وسائل أخرى، حتى كان حقل أبى هو الحقل الوحيد الذى لم يستأثر به هذه القرى.. ولما كان أبى عنيدا.. وفقيرا أيضا، فقد انضم

- دون أن يدرى - إلى هذا النوع الباسل الذى فقد الجميع وسائل لرغامه وظل أبى يفخر بأنه الوحيد الباقى من أهل القرية الذى لم يقع فيما وقعوا فيه وظلت القرية تتهكم عليه وتسخر منه.. (يا راجل بيعها وارتاح)، حتى كان هذا اليوم مكثت فيه نظرية توينبى عن التحدى والاستجابة فى بطن بحر يوسف قاطعة الطريق على أبى!

كان الجو شتاء حينما زرع أبى هذه القراريط بالفول البلدى - أو الفول الحراتى الأخضر - الذى سيصبح بعد ذلك الفول المدمس الشهير، واحتاج الأمر إلى كيس كيماوى، أى جوال من الأسمدة الكيماوية التى كان يبيعها بنك التسليف (هكذا كان اسمه أيامها) وكان ثمن الكيس أقل من ثلاثة جنيهات من بنك التسليف الذى عادة لا يعطى هذه الأسمدة إلا لأصحاب الحيازات الزراعية المسجلة.. ودون تطويل فى معنى هذه الحيازات، فإن أبى لم يكن منهم، فقد جرت عادة الفلاحين أن يكتفوا بالعقود الابتدائية فى البيع والشراء دون التسجيل فى الحكومة بسبب سوء ظنهم بالحكومة (وجهلهم أيضا)، كما أن الملكيات الصغيرة لم تكن تحظى باهتمام فى ذلك الوقت، ولذلك فقد سعى - كعادته وعادة أمثاله من الفلاحين الطيبين - أن يحصل على مراده من السماسرة والوسطاء، وتجار الأسمدة بسعر أغلى قليلا، أو من المرابين والمكتسبين بسعر أحد المرابين، أى الشراء بالأجل عند بيع المحصول، وبثمن مضاعف، وقد ظل أبى أكثر من عشرة أيام يلف ويدور حتى حصل على مبتغاه ونام ليلتها قرير العين!

بصفتى الذكر الأول لرجل أنجب كتيبة من البنات، فقد كان أبى يصحبنى - مزهوا وطاردا أفكار الآخرين عن قدرة انجابه - إلى الحقل، وكنت أذهب معه بصفتى أهم وأكبر الورثة لرجل عنيد يمتلك سبعة قراريط وفى الفجر وضع أبى كيس السماد على ظهر حمارتنا (التى كانت تتكفىء على وجهها إذا ما أجبرها أبى على القفز فوق قناة ماء) ووضعنى على ظهرها، أى فوق الكيس، وأمامى الصرة التقليدية الحاوية خبزا وجبنا ولفتا، وتوكلنا على الله حيث ظل يسندنى أبى وهو يجرى بجوار الحمارة ليقص - كما تعود - كثيرا من حكايات أبى زيد الهلالى سلامة الذى ترك أو هجر صحراء نجد فى الجزيرة العربية وعبر البحر الأحمر إلى القصير ثم مدينة قوص فى مصر، وهناك جند الأجناد ليحارب دياب بن غانم فى تونس الخضراء، وكلما واجهتنا عوائق طريق يترك أبى أبا زيد الهلالى منتظرا فى عرض طريقه ثم يعود إليه فور تجاوز الحمارة لعوائقها حتى وصلنا إلى ترعة بحر يوسف، وكان الجو قد أصبح أكثر نورا، وبدأت شمس الحقول تهابر كى تخرج من بين ركام الغيم، وظلت فوق الحمارة الحاملة كيس السماد، وأبى واقف يسندنى ويسند الكيس، كانت المركبة التى تنقلنا من شرق الشاطىء إلى الناحية الأخرى قد جنحت على الشاطىء الآخر، ومياه بحر يوسف انخفضت لدرجة ظهور بقع طين فى حوضه، ولم يكن هذا مشكلة فى حد ذاته فقد تعودنا إزاءها أن نلجأ إلى وسيلتين:

- الأولى: أن يقوم من لهم دراية بخوض المياه الضحلة أن يخلعوا ملابسهم ويرفعوها على ذراع ويتحسسوا بالذراع الأخرى ما قد يكون مختبئا تحت السطح ليعبروا بحر يوسف شبه عارين.

ـ الثانية: في حالة وجود أثقال ودواب غير مستعدة للخوض في القاع، أن يلفوا سالكين طريق كوبري المعاهدة والذي يبعد عن الموقع عدة كيلومترات، طريق طويلة ومرهقة، ولكنه يحقق النتائج للمولة كاملة!

لكن أبي ظل ـ في ذاك الصباح ـ واقفا، كان قد أرهق من السير، وكانت الحمارة قد أرهقت من الحمولة وكان كيس السماد مرهقا في حراسته والمحافظة عليه لكن أبي ـ وأنا أسأله ـ ماذا سنفعل؟ خلع ملابسه ولعن أصحاب المركب والحكومة وفلاحي غرب الجسر، وأعطاني ملابسه لتلتف أمامي مع صرة الغداء، ثم بدأ يضغط من الخلف ويسحب من الأمام ـ الحمارة ـ كي تنزل من بين أكلم وفتحات الشاطىء الشوكية إلى بطن بحر يوسف.

لقد قرر أن نعبر اختصارا للجهد المضاعف في الدوران من كوبري المعاهدة، ودون اهتمام بنصحية واحد أو اثنين من العابرين، بأن تحت الماء الضحل بقعا غويطة وعميقة لكن أبي ـ والذي هو سيد العارفين ـ والذي لا يوجد شيء في العالم يمكن أن يخفى عنه أو لا يفهمه ضحك ساخرا، وظل يقود الحمارة بين بقع الطين والمياه والتي انغرزت فيها سيقان الحمارة مرات كثيرة، ذكاء ودراية أبي!!

وعندما اقتربنا من الشاطىء الآخر، لم تغرز سيقان الحمارة فقط بل وبدأت الحمارة تغطس، ولم يستطع أبي جرها أو سحبها أو شدها، فقد كان قد غطس قبلها.

الكارثة أن كيس السماد لم يكن من البلاستيك الذي بلا مسام كما هو حادث في العصر الحديث جدا، بل كان شيكارة من الخيش ذي المسام التي لا تحجز الماء، وكلما غطست الحمارة يندفع الماء إلى أعلى، وما كاد بحر يوسف يتشمم حبيبات السماد حتى التهمها وأذابها في جوفه بسرعة الأعاصير!

لم أكن أصرخ، كنت مذهولا من هول سرعة حدوث الكارثة، ذلك أن أبي خرج من تحت المياه وهو يصرخ لاطما المياه بذراعيه ومحاولا أن يعيد إلى الاطمئنان بصراخ أكثر، وكل الذي فعله أن ألقى بنفسه على كي أتشبث في رقبته متشبثا في نفس الوقت بصرة الأكل الملفوفة في ملابسه، وظل يضاغط ويتعارك ويضرب في المياه حتى ألقانا على بوادر جذور الشاطىء مجللين بالماء والطين.

وعندما وقف أبي على شاطىء بحر يوسف ـ صباح ذاك اليوم الجليل ـ يجفف جسمه ويرتدي ملابسه المبتلة كان يضحك بشكل واضح حامدا الله على سلامتي فالحمارة سوف يعوضنا عنها الله وكيس السماد سوف نتمكن ـ بالأمل ـ من تدبير غيره في القريب العاجل، وزرعة الفول في غرب الجسر لها رب يرعاها، وعلينا الآن أن نعود إلى موقعنا في قريتنا الجميلة، ثم سحبني من يدي كي نرجع عن طريق الطريق الطويل: كوبري المعاهدة وعلى الفول أن ينتظر حتى يكرمنا الله لنعد العدة مرة أخرى.

هذا هو ملخص العمود الذي انتويت كتابته تحت وطأة نظرية الأخ أرنولد توينبي عن التحدي والاستجابة، وبعد أن حال الأصدقاء بيني وبين كتابة المقالات السياسية، ذلك لأن العمود يخفي عيوبي كما أخفى قاع بحر يوسف الحمارة وكيس السماد، وعناد أبي وذكاءه وذكاءنا أيضا..!!

٣٦ انتبهوا.. الحكمة لا تنمو في الملح

خذ الحكمة من أفواه المجانين، وبعد أن أخذتها لم أعرف ماذا أفعل بها، وظللت أحمل هذه الحكمة على كتفي حتى جففتها الشمس، فأخفيتها بين طيات ملابسي فكادت ـ هذه الحكمة ـ تودي بي في الهلاك، قلت لنفسي: أحسن حل لمعظم المشاكل ألا يوجد أي حل، ومن ثم فقد بحثت عن المجنون صاحب الحكمة كي أردها إليه، فهمس الجميع ضاحكين: احتفظ بها لنفسك، فقررت أن أزرعها وأبيع محصولها لأوروبا، قالوا أن أوروبا تستورد حكمتها الآن من اليابان، وفي حدود ضيقة لأن لكل بلد حكمته الخاصة، هنا تكون مناطق شبه القارة الهندية وجنوب شرق آسيا أكثر البلاد احتياجا لمثل هذه الحكمة الجافة البارزة العتيقة، وكان واضحا أن طريقي لتنشيط تصدير الحكمة ليس سهلا، إذ أن نمور آسيا وأفيالها ونظم حكمها لاتزال تشك في هذا النوع من الحكمة التي امتلكها، كما أن قانون الاستيراد والتصدير يشترط ـ في الحكمة بالذات ـ أن يكون لك شريك من عندهم، ولما كنت لا أحب أفريقيا وأخشى من رطوبتها العالية وحرارتها العالية وجبالها العلية وغاباتها العالية، فقد استبعدت هذه القارة من مجال تسويق حكمتي، لكن تاجرا جوالا يستخدم طائرة في تجواله نصحني أن أهدي بعضا من حكمتي لحكومة الصومال، وشملني بتوصية مكتوبة يضعني في مرتبة أقدم الحكماء، وبعد أن شعرت بكمية من السعادة تكفي لتصدير كمية لا بأس بها من الحكمة إلى حكومة الصومال، اكتشفت أن الطريق إلى الصومال يمر بأمريكا، وبيني وبين أمريكا مشكلة قديمة لا أود إثارتها الآن، كما أن بعض أصدقائي رأى أن الصومال لا حكومة لها، وأن المواصفات التي تتطلبها في الحكمة المهداة إليها أن تكون مجانية بالطبع، وأن تغلف بأنواع من القذائف القصديرية القابلة للانصهار السريع، ولم يكن ذلك متاحا لي، وليس من الشيم التي أتحلى بها، بالاضافة إلى أني عرفت من مصدر موثوق به أن الصومال بلد عربي له مقعد في جامعة الدول العربية، وأن انخفاض عروبتها الآن راجع في المقام الأول لانتشار هذا النوع من الحكمة التي أخذوها من أفواه المجانين، ورأيت أن أستشير ذوي الدراية لا ذوي الثقة، فاتصلت بأبي نواف المسمى سليمان صالح الفهد، لأنه طاف العالم وخالط كل المخلوقات، كما أنه كون مجموعة من الآراء التي نادرا ما يعلنها، إضافة إلى قدرته الفائقة على تحمل الأحزان والأوجاع، وهذا شرط من شروط الفتوى

فى شئون الحكمة. اما الشرط الرابع الاكثر اهمية فى ابى نواف انه يتظاهر بأنه يفهم فى الشعر الحديث جدا، وهو بذلك تجاوزنى بمراحل حيث انى لم استطع حتى التظاهر بادراك هذا النوع المتطاير من فن القول، والذى يذكرك فورا بتطاير ذرات بقايا القطن خلال تنجيده، لا هو تراب ولا هو قطن ولا يمكن لك اتقاؤه. غير انى لم أجد سليمان الفهد فى مكمنه بكيفان، قالوا انه سافر من الكويت إلى بيروت كى يضع اللمسات الأخيرة فى كتابه الذى يبيجه عمن عرف من الناس، وكأن هذه اللمسات الأخيرة لا يمكن التفاعل معها إلا فى بيروت التى تتلى بك - دائما - عن اللمسات الأخيرة بالذات. هذا اذا كان كاتبنا قادرا على مواجهة كتابة صريحة واضحة عمن يعرف (الانتربول يبحث عن كاتب كويتى مطلوب فى تسع قضايا افشاء اسرار صداقات عليا)، قلت فى نفسى فلنترك سليمان الفهد حتى ننتهى من تسويق محصول حكمتنا بمعرفتنا دون الاحتياج لمساعدة أحد، لكن واحدا من أخطر الذين استشرتهم فى حياتى نبهنى إلى اهمية الاعلان المبكر لاستثارة الجماهير كى يطلبوا الحكمة من عندى، فإذا لم يكن متاحا الاعلان للصور المكتوب على الجدران وأعمدة الكهرباء وبطن السحب ووجه القمر وشاشات التليفزيون، فيكفى لانتشار الخبر - بصفة مبدئية - فى المجالس وعلى المصاطب وفى الديوانيات مثل موضوع (زيت حبة البركة) الذى اشاع تاجر ذكى انه يقوى الأعصاب - جميع أنواع الأعصاب - سواء ما كان منها معروفه أو خاضع للرقابة، وذلك اذا ما وضعت ملعقة صغيرة على فنجان عسل أبيض، فسوف يشعل هذا الخليط النيران فى الأجساد البليدة البارد، (دعك من معالجة بلادة العلاقات الزوجية الأليفة فليس لهذا موضوع هنا)، وبناء على هذه الأقوال والنصائح المتشرة، فوجىء الناس بزيت حبة البركة يختفى، كان موجودا لدى البقالين والعطارين بوفرة وبقروش زهيدة، لكن الذى كان وراء الاشاعة والأقاويل هو نفسه الذى قام بتجريد أسواق القاهرة منه ثم لم يلبث أطباء وصيادلة وعارفون ومجربون ان ظهروا فى المواقع المؤثرة وعلى الشاشات التليفزيونية وقد ارتدوا الحكمة المناسبة للاشادة بزيت حبة البركة، ومطلوب منى الآن ان اشيع فى الأقوال والهمسات مدى الحكمة فى استيراد الحكمة منى، كان صديقى ومستشارى الذى وضع هذا الحل فى قلبى شاعرا يكتب اللهجة العامية المصرية سليل بيرم التونسى وفؤاد حداد وصلاح جاهين وعبدالرحمن الأبنودى وسيد حجاب، وإن كان هو قد تجاوز الجميع بمراحل لا تسمح له بالتواضع، وهو دائما مشغول بمشروعات وهمية تدر دخلا وهميا من المسلسلات وتسجيلات الكاسيت ومقدمات (تيترات) البرامج المعروضة عليه والتى يأبى أن ينساق فيها فتدمر له شاعريته. اكتشفت - وهو ينصحنى بحكمته - إنه هو نفسه الحكمة الخالصة وان الانصات إليه كل هذا الوقت يستدعى نوعا من الحمق الذى يبرز ما فى الحكمة من حكمة، ولأن الموضوع كبير ويحتاج إلى وقت متسع اكبر من الوقت الذى تحتاجه الموضوعات الصغيرة، فقد رأيت أن تتوقف علاقتنا فى حدود لعب الطاولة وسماع آخر قصائده الجميلة، وحينئذ قررت أن أكون عصاميا وأن ألقى برأى المستشارين جانبا، فمن الملاحظ أن المجانين الذين نأخذ من أفواههم الحكمة دائما يعتمدون على

أنفسهم، فهل رأيت مجنونا يأخذ الحكمة من أحد؟ فما بالك والاستشارة هى حكمة واسعة ومستطيلة.

لاحظت - فى الأحقاب الأخيرة - أن كثيرا من الأشياء كالبضائع والحكم والعطور والحشيش والأجهزة والمطبوعات والأفيون والنصائح والملابس تروج تجارتها فى مناطق الحدود، إذ أن الأسلاك الشائكة تصنع نوعا من اثارة الرغبات الكامنة فى الفؤاد للحصول على هذه المسائل الصعبة التى اخترقت الأسلاك الشائكة. لقد كنت من أيام فى مدينة رفح الفلسطينية المقسمة بين اسرائيل ومصر، والتى رفعت مصر العلم الفلسطينى على الجزء الواقع من المدينة فيها بعد توقيع اتفاق غزة - اريحا، ولاحظت أن العيال والصبايا الصغيرات يقمن بافتراش بعض البضائع قريبا من الحدود، حنة وأجهزة كهربائية وزيوت وأعشاب، ورأيت العابرين من السائحين وغير السائحين يقفون طويلا يقلبون فى هذه المعروضات، وكلها معروضات يمكن لك أن تمد يدك إلى أى ركن فى بلادنا وسوف تجدها، لكن الحكمة الكامنة تدفعك دفعا لاعتناق الرغبة فى الاستحواذ على مثل هذه الأشياء المهربة، ومن قال أنها مهربة الا يجوز أن تكون مشتراة من أقرب مكان ليس به اسلاك شائكة؟ هذه طريقة فى التفكير تعوق تدفق الحكمة فطرتها بعيدا، ولذا فقد امعنت النظر وركزت التفكير حيث وصلت إلى الحل.

أوروبا فتحت الحدود بين جميع دولها فلم تعد قابلة للحكمة، والعالم العربى أولى باستثمار حكمتى من أى منطقة أخرى، وهكذا قررت أن أحمل ما أثمرته حقول زراعة الحكمة عندى، وأبدأ فأتاجر فيها داخل خطة محكمة طويلة المدى وذلك بأن أعرضها - كبضاعة مهربة قريبا من الأسلاك الشائكة بين مصر والسودان، وبين اليمن والسعودية، وبين الامارات والبحرين والسعودية، وبين العراق والكويت والسعودية، وبين سوريا والأردن والعراق، وبين لبنان وسوريا، ثم هناك الخط الطويل الشائك بين ليبيا ومصر، دعك من البوابات المفتوحة سياسيا لأمور تخضع لها حكمة السياسة. آلاف من الكيلومترات الشائكة التى تحاصر حدود كل أقطارنا، تحتاج إلى سنوات وسنوات من العمر المديد الذى أبيع حول أشواكه وأسلاكه خير ما انتجت من حكمة معتقة وحديثة، لأصبح من أهم مليونيرات الشرق العربى.

وبالفعل، توجهت إلى حيث زرعت الحكمة تمهيدا لتسويقها، فوجدت الأرض مقفرة، وما كدت أصرخ محتجا حتى همس لى صديق قضى فترة وراء أسلاك المصحات النفسية: لقد زرعت الحكمة فى أراضى مليئة بالملح، والملح ضد نمو الحكمة، وتناول حكمة جافة صغيرة وشمها، ثم ألقاها فى وجهى: كما أن هذه الحكمة بالذات فاسدة لا يقتنيها سوى الأحمق، وتركنى وسط الحكمة أعيد ترتيب الأمور من جديد، ولازلت..

٣٧
الشنب قبل الفعل أحيانا

بعد شد وجذب ونوم ويقظة ولف ودوران فى الحقول والشوارع، وقعت فى براثن عماد حمدى..

كان شاربى لايزال يجاهد - بمعونتى اليومية - كى يصبح شنبا، والشنب - فى الأصل اللغوى: جمال الثغر، وصفاء الأسنان، قال ذو الرمة: «وفى اللثات، وفى أنيابها شنب» ومع استبعاد لفظ «أنيابها» لخطورته، ولعدم اللياقة فى التعامل معه الآن، نصل إلى أن الشنب لفظ استعارة المحدثون الشارب واستعطوه فيه حتى تناسوا الأصل «الشارب» والحال - إزاء ذلك - يصبح مناسبا أن أحور وأشذب وأهذب فى بوادر شاربى كى تصبح شنبا، ليست شنبا مثل ذاك الذى يمكن تحت الأنف الغليظ لأبى وأعمامى، كأنه حمولة من الشعر ألقاها جحش ناشز فى طريق وعر، بل شنب مثل هذا الذى يلتقى بفاتن حمامة فى مكان أمين ليقول لها فى وضوح لاشك فيه ولا اضطراب: مش ممكن أعيش من غيرك لحظة واحدة وتجد أن صاحب هذا الشنب متحقق فى عدد معقول من الرجال: عماد حمدى وأنور وجدى ويحيى شاهين وكمال الشناوى، فلماذا لا يتحقق معى وتحت أنفى؟ حتى لو استعنت بقلم رصاص أحاول إبراز ما خفى منه وحتى - أيضا لو اتضح لى - فى نهاية المطاف - أن فاتن حمامة هى أختى وأننى أخوها، وأن الزمن قد لخبط الأوراق فى عدة أفلام متوالية استكمالا لفواجع حسن الامام المعروفة لك.

حينئذ، وبعد استبعاد يحيى شاهين لضخامة عوارضه وأنور وجدى لقصر قامته وثقل دمه وكمال الشناوى لعدم ثقتى فى أن شاربه من النوع الأصلى، أصبح من المناسب أن أكون عماد حمدى، حتى لو كان عماد حمدى نفسه قد ترك فاتن حمامة لعمر الشريف وعبدالحليم حافظ وأصبح - مع تحسن ملحوظ فى شنبه - وفى شنبى أيضا - يقاوم العصابات التى يتبادل رئاستها محمود المليجى وفريد شوقى، ثم استفان روستى فى الظروف الحرجة..

كان أصدقائى - فى ذلك العصر - قد توزعوا بين كافة نجوم التمثيل، يوسف وهبى استأثر بواحد ظل يلوى شفتيه بالصوت الرهيب تقليدا للنموذج العظيم، وهو ينهى وينهر ويأمر واقفا أمام باب بيتهم، حتى باع بيتهم وأقام فيه بالايجار، وعبدالحليم حافظ استأثر بزميل له صوت جميل يستعمله فى المديح الدينى،

وكانت أخته - الكفيفة - قد تلبستها حالة أم كلثوم، وأدى بهما ذلك أن هجرا القرية فضاع صوتاهما فى القاهرة التى تعج بالأصوات الأذكى، ثم هناك صديقى وقريبى المغرم بعبدالوهاب لكنه هجر الغناء لأنه قرر أن يكون موظفا محترما، وكان لفريد الأطرش عملاء أحدهم يعمل سائقا لأوتوبيس ويعالج بين الحين والحين فى مستشفى نفسى، وآخر ظل واقعا فى النفس الطويل الذى يستوجبه مقطع «حن الخلود» فاعتقدت إحدى قريباته أنه يشدو بـ «لحم الخدود» ومشكلته لأبيه الذى هاجمه بعكازه لاخراج فريد الأطرش من جسده، ولا يخفى عن الجميع أن عمر الشريف استولى على عدد من الأتراب، الذين كانوا مؤهلين أصلا لأن تحل فيهم بركة بقية اللامعين من النجوم، فظل شكرى سرحان ومحسن سرحان وفريد شوقى دون عملاء فى قريتنا..

إن فكرة اذكاء الرجولة المبكرة ليست فكرتى على أية حال، وذلك أننى - وبعد فترة اذكاء هذه الرجولة ودخولى الرجولة ذاتها - اتضح لى أن سقف الذكاء لأبناء الريف أوطى - أو أدنى - أو أكثر انخفاضا من سقف ذكاء أبناء المدن، والدليل على ذلك هذا الذى يحدث لاذكاء رجولة رجال المدن، الذين قد تجاوز بعضهم العام الثلاثين، حيث نرى الشرطة تطاردهم، وتطارد كل مهربى مواد الاذكاء، وهى مواد متعددة، ليس من بينها قلم الحواجب الذى يستخدمه غلمان الريف لاظهار شنباتهم اذكاء لهذه الرجولة بشكل مبكر..

لكن الأمر - بالنسبة لى - وبدون قلم حواجبه استقر شنبى بجهد بسيط لقلم رصاص، حيث كانت أولى عمليات المكياج التى قمت بها فى حياتى، حيث أصبح شنبى مشابها لشنب البطل الفذ: عماد حمدى، الشنب فقط ذلك لأن القلم الرصاص فشل فشلا ذريعا فى الاقتراب من بقية تضاريس وجهى.

وبعد أن تهيأت واستقرت حالتى، وأصبحت عماد حمدى، مع تغيير قليل فى نبرات الصوت: اسمعى يا أمال، احنا بنحب بعض ولازم نقف ضد العالم الظالم، العالم اللى ماعندوش رحمة أيوه يا أمال، مش ممكن حبنا ينهزم، أوعى تتكلمى، أنا عارف اللى جوه قلبك، وتكون شادية - هذه المرة ليست فاتن حمامة - قد تراجعت إلى الخلف حتى استندت إلى جذع شجرة، والموسيقا أمواج هادئة تعبر عن الرقق الرومانسى الحالم الجميل، وعندما أصبح المشهد مشتعلا - رغم هدوء الموسيقا وانسيابها - رفع المصور الكاميرا لأعلى، أعلى لأعلى - لتتجاوز جذع الشجرة المستند عليه جذع العاشقة والمستند عليه جذع العاشق أيضا، لكن عيوننا تركت الكاميرا تصعد وظلت محتفظة بالمسألة المشار إليها.

هذه الحالة - التى هى أنا الكائن تحت شنب عماد حمدى واجهت المعضلة: أين يتسنى لى فى قريتى - أن أجد فاتن أو شادية أو حتى مديحة يسرى؟

كان عبدالناصر - فى ذلك الوقت - قد برز بصفته القائد الأصلى لثورة ٢٣ يوليو، وأثناء انهماكى فى

لبحث عن بنت تصلح للموضوع الذى انشأت له الشنب جاء أحد زملاء عبدالناصر - فى ذلك الوقت - تحت كى يزور قريتنا وأقلم الأثرياء والاقطاعيون من أعضاء هيئة التحرير عددا لا بأس به من أقواس ولافتات النصر، حيث جاءنا عضو مجلس قيادة الثورة القائمقام محمد أنور السادات فى سيارة مكشوفة ووراءه عشرات من سيارات الجيب الخفيفة التى يقودها عسكريون، والمحتشدة بالبنادق والمدافع، والميكروفونات ذات الأناشيد الحماسية أيضا، والتى ترحب بالضيف الكبير، وتعلن مع الموسيقا الضاجة تمسكنا الدائم بالاتحاد والنظام والعمل..

كنت أجرى من منطقة لأخرى وراء الموكب، من قبلى البلد لبحرى البلد، من بيت اسماعيل بك كامل واحمد عثمان إلى بيت جميل القمص واللواء سليم القمص، إلى بيت مصطفى عبداللطيف الشناوى، ثم العودة إلى بيت كامل تامر شلقامى ليصلى فى المسجد، وليقف الضيف العظيم خطيبا فى الناس، كان للسادات صوت جهورى كما هو معروف، ولم تكن الاصوات تهمنى، وكان لونه يميل إلى السواد، ولم تكن الألوان تهمنى، وكان قويا وهو يهدد الذين يفكرون بالخروج على الثورة، ولم يكن الخروج يهمنى..

شاربه شنبه كان السادات يمتلك شاربا كثا تم تسوية غزارته ليصبح مهيبا، وهو شارب - عندما أجد مشابها له - سوف تصبح علاقتى بالثورة فى حرج، ففى الوقت الذى كانت فيه شوارب ذوى الشوارب من أعضاء مجلس قيادة الثورة أكثر بهاء من كل الذين حولى: أى من الممثلين والمدرسين ومهندسى الرى وأعيان البلد، كان شنب السادات يشابه أشناب أناس عظماء لا أجدهم على كوكبنا بسهولة: شنب الملك أحمد زوغو ملك ألبانيا الذى عزله الشيوعيون فور الحرب العالمية الثانية شارب ستالين الذى كان قد رحل من سنوات قليلة والذى كان مهيمنا على كل الاتحاد السوفيتى وظللت أتلمس شنب عماد حمدى فوق شفتى حينما كان السادات لايزال على المنبر يخطب ويروى حكاية وحشى الذى بقر بطن أحد أعمام الرسول، ثم هناك شنب عبدالبصير الذى كان الحارس الخاص لأحمد باشا قرشى، ولماذا نذهب بعيدا عن شنب الملك فؤاد الأول، وشنب الملك فاروق: ملك مصر والسودان، أشناب أخرى لم يصلها الكياج - أو هكذا تبدو الأمور، وتتجاوز بمراحل شنب عماد حمدى - وعدت أتلمس شنبى من جديد.

حينئذ - والنساء كثيرات يتفرجن على الموكب الخالد - رأيتها، أجمل من فاتن حمامة وشادية. وبرلنتى عبدالحميد ومديحة يسرى طيلى مراد وهدى سلطان لم تكونا فى تلك المنافسة الضارية ونور الهدى وماجدة وعقيلة راتب أيضا..

كنت قد تكاكأت الخلف وتحركت للأمام وسط الجموع الهادرة بالاتحاد والنظام والعمل، وفى كل مرة أكسب أرضا وأقترب منها، كانت البنت جميلة لتقتنا، وفارهة وفارعة حتى اقتربت منها، وخلال انهماكها فى متعة الفرجة: لمحتنى، لمحتنى أمعن فى وجهها، فأبعدت وجهها - أول الأمر - ثم لم تلبث

وتركت اندماجها - أو انهماكها - فى الحفاوة بالسيد عضو مجلس قيادة الثورة، ثم غطت وجهها بطرحة رأسها، فأحسست بأنها أخفت ضحكة واضحة.. مما شجعنى أن ألامسها أكثر..

فى هذه اللحظات اشتعلت الامنيات، وشعرت بأن الشنب يعمل بشكل جيد ومؤثر لكنها أبعدت وجهها عنى، وعادت للصراخ ترحيبا بالضيوف الكرام.

ومع حركة الجموع ابتعدت قليلا عنها، كنت أدور فى أبهاء السينما كى استورد لها هيكلا مناسبا لواحدة ممن أحببتهن فاتن أو شادية أو أى ممثلة متألقة أخرى، حتى ولو كانت اكتشافا جديدا، وفى غمرة هذا التفكير أخرجت يدها من وراء الطرحة وأشارت بأصبعها إلى وجهى - كان وجهها قد انكشف - وظلت تضحك ساخرة.

كان أصبعها لا يشير فقط، بل اقترب أكثر، وكاد يخرق عينى: ايه اللى انت عامله فى وشك ده؟ تذكرت حينئذ مسألة الشنب، فتراجعت للخلف مضطربا، ثم لم ألبث أن انفصلت عن الجموع، ودخلت أول دكان لأحد الحلاقين.

كان شنبى قد فقد توازنه من ناحية ظل مثل فرية شنب عماد حمدى أو روبرت تايلور أو صلاح ابراهيم، ومن ناحية أخرى مجرد أثر لشعيرات دقيقة لم تنضج بعد، نعم فرية من شنبى واضحة لاتزال تحتفظ بأثر القلم الرصاص، والأخرى زالت تحت وقع المسح والتحسس وعمليات الاتكاء الأخرى التى ناقشناها من قبل.

ولذت بالفرار وأنا أدخل بيتنا خاوى الشنب الواضح محتفظا بشنب لم يصبح بعد شاربا، وأنا أعادى الاثنين: عماد حمدى، وأنور السادات، دون أن أعرف الملاك الظالم الذى أودى بأحلامى إلى الجحيم أو إلى الهواء الطلق..

٣٨ العرق الدساس وثورة الهندسة الوراثية

والعرق - بكسر العين وتسكين الراء - معروف للجميع، ومن نافلة القول أن نعيد تعريفه لمخلوقات تتكون أجسادها من عروق تنبض بالدم، والدساس هو الذي يدس سرا أمورا شريرة - وفي النادر خيرة - في اذن أو جسد أو بيت شخص اخر، كما ان ثمة نوعا من الثعابين يطلق عليه الدساس، وسبب ذلك أنه يظل مختفيا تحت التراب او الرمل او في الاعشاب حيث لا يراه ضحيته إلا بعد ان يكون قد انهى مأمورية انهاء حياته، وهو غير الثعبان البخاخ، نوع شديد الافتراء لانه لا يختفي ولا يختشي ولا يخشى، بل ينتصب في الهواء على دوائر جسده ثم يبخ قدراته الفاتكة في وجه ضحيته، أعوذ بالله من كل هذه الكوارث، وخير لنا أن نعود للعرق الدساس، والذي هو في اسلسه مقولة أو مثل أو حكمة صاغها الأقدمون، وسمعناها من الجيل السابق علينا كلما اقترف أحدنا ما لا يليق، كمحاولة أصيلة لربط هذا الذي لا يليق بما اقترفه اباؤنا مما لا يليق، وان ما يشوب أخلاقنا من قصور، وتصرفتنا من عيوب ليس فجائيا - أو طفرة - أو صفة مستحدثة، وإنما هو وارد إلينا من عروق أصلاب الأجداد، وتم دسه في دم كياننا كل يظهر الآن فقط وهو عذر طيب يستحسن أن نتمسك به كما نرد نواقصنا إلى منابعها.

وبالتأكيد فإن رجل الدين النمساوي غريغوري مندل - أحد علماء القرن التاسع عشر - كان موهوبا في التقاط هذه القاعدة الخطيرة.

صحيح أنني لا اعرف جيدا إن قد سافر إلى النمسا في القرن التاسع عشر بالتحديد والتقى بهذا العالم بالتحديد، كما يعوزني دليل واضح أن يكون مندل - بنفسه - قد جاء إلى أقطارنا في القرن التاسع عشر ليقتنص هذه القاعدة الثمينة من أفواه جدودنا الكرماء، والذين لا يحرصون بشكل كاف على ابداعاتهم وابتكاراتهم، لدرجة أن صديقا لي هاجر إلى كندا، ووصل إلى اخر الشمال نحو القطب الأمريكي الجليدي حيث تعيش بقايا سلالات قبائل الاسكيمو فوجئ بأن الكوخ الثلجي الذي يلوذ به اثنان من الاسكيمو، قد ثبت في مدخله لافتة تصور (الصبر مفتاح الفرج) بشكل واضح وبدون أن يردوا هذه الحكمة إلى مصدرها الأصيل فينا

غير أن الصبر مفتاح الفرج تختلف علميا عن العرق دساس، ذلك لأن قاعدة العرق دساس أظهرها هذا العالم النمساوي، في صياغة تغطي على أصولها، حيث قال إن الوراثة هي انتقال العوامل التي تتسبب في تشابه الذرية بأبويها بوساطة عمليات التناسل والتلقيح في المخلوقات، وأن هذه الصفات تورث باعتبارها وحدات مستقلة ثم جاء بعد مندل نمساويون اخرون - أو أية جنسيات أوروبية أخرى - فأضافوا ما استنتجوه من الدراسة الموسعة للصبغيات (الكروموسومات) والمورثات (الجينات) وما يعتورها من انقسامات إلى ما قال به السيد (مندل)، هذا الذي انفجر الآن علما خطيرا تحت اسم الهندسة الوراثية.

للناونون والذين لا يحبون لنا الخير يقولون إن نظرية الوراثة في أوروبا استخدمت لفظ (الجينات)، في حين أن نظريتنا - وهي الأصيلة والأصلية - استخدمت العروق، وهو أمر بالغ السذاجة ولا يقاوم قدراتنا على ادراك المناورة والمراوغة خذ عندك أشياء مذهلة وبسيطة كنموذج، فرخ البط الخارج من جوف البيضة من يومين، حينما يصل إلى الماء يبدأ فيسبح سباحة لا يمكن أن توفرها له الجينات إنما توفرها له العروق، في حين أن كتكوت الدجاجة الذي فقس وخرج من البيضة المجاورة سوف يلقى حتفه في أول بقعة ماء، لأن العرق لم يدس له ما دس لفرخ البط أما حكاية (العقب) فهي خير ما نسوقه كي نشرح الفرق بين عمومية واتساع العرق الدساس، وضيق الجينات والصبغيات.

كان العقب بلطجيا ولدا صايعا من أولاد الشوارع في أوائل القرن، وكما يحدث في الأفلام التي ظهرت في الأربعينيات عن هؤلاء المشردين (يراجع أفلام وأقوال يوسف وهبي) فقد كان هذا الولد يجمع أعقاب السجاير (ولا أعرف كيف كان يستفيد منها على وجه التحديد)، ثم لم يلبث هذا الولد أن غير في نشاطه فبدأ يسرق أغطية البالوعات ويبيعها لتجار الحديد، ثم أصبح تاجرا للحدايد والرواكد المعدنية، واثرى ثراء كبيرا حتى انه تزوج من إحدى شهيرات العالمات، وانجب ولدا ادخله المدارس الأجنبية التي كانت منتشرة في القاهرة بسبب النشاط التبشيري والأوروبي في الشرق، ثم لم يلبث الولد أن كبر ليرث عن أبيه أموالا لا نهاية لها، وحين رحل أبوه - المكافح - بدأ الرجل ينظم هذه الثروة وحينئذ ظهرت مواهبه السياسية فاقتنصه أحد رؤساء الأحزاب حيث ضمه إلى حزبه ورشحه في أول انتخابات بمنطقة السيدة زينب، والتي يحظى فيها هو وابوه بشعبية طاغية، وقد نجح بطلنا في هذه الانتخابات نجاحا كاسحا..

وقام السفير البريطاني فوق العادة والذي كان يهيمن على أمور البلاد، أو على الأقل يتدخل فيها، بعمل حفل استقبال ضخم في فندق (شبرد) للأعضاء الذين نجحوا في تلك الانتخابات وكان فندق شبرد على حافة الأزبكية قبل أن يحترق عام ٥٢ ويعاد بناؤه في مكان مختلف على نهر النيل.

ويعد الحفل جلس ابن العقب باشا ـ والذى بالتأكيد كان يحمل نفس لقب الباشوية بالوراثة ـ مع بعض النواب فى ركن من القاعة المتألقة يتحدثون، ويدخنون..

وفى هدوء، وعندما انتهت سيجارة ابن العقب باشا، اطفأها بحركة مرنة من اصبعيه ثم دسها فى جيب ملبسه الفاخر!!

وقد سجل هذه القصة الراحل يوسف السباعى فى احدى مجموعاته القصصية لكن ثقافته لم تسمح له بالانتباه الكافى للعلاقة بين قانون وراثة «مندل» المتصل بالجينات، وحكمة وراثة اجدادنا المتصلة بالعرق الدساس، هنا تظهر اهمية العرق دون الجينات واستيعاب العرق الدساس لكل المعانى الاخلاقية التى يصعب على الجينات ـ والهندسة الوراثية بعد ذلك ـ مواجهتها، الجينات تعمل فى التكوين الجسدى، اما العرق الدساس فيعمل فى التكوين الجسدى والمزاجى والأخلاقى.

ولذلك فإنها فرصة سانحة أن يتحد علماء الوراثة فى اقطارنا لتعميم نظرية العرق الدساس فى أنحاء العالم ويقوموا بتطويع الهندسة الوراثية وما انتجته من ثورة فى توريث الجينات بعد معالجتها بمؤثرات للوصول إلى اشكال حيوية جديدة من اصلاب الاشكال الحيوية السابقة إلى العرق الدساس، ليتسع نطاق التأثير والتوريث ليشمل العروق كوسيلة اصلية لدس الصفات الخافية، والتى تقوم العروق بها وستقوم العروق بها، دون التأثير بنظريات الهندسة الوراثية التى قلبت دماغ العالم، وقلبت دماغنا ايضا..!

٣٩ تزوج الفلسفة ووقف وحيداً فى المطبخ

فرصة جميلة ـ وفريدة ـ ان اجد نفسى اتفلسف، وابدع فى مجال الفلسفة حتى تكاد ابار المعرفة ان تتلوى من المضمون، وتكاد الطيور ان تسترسل عائدة إلى اوكارها، متعة لا نهاية لها حينما تسحب مقعدا وتجلس امام بيتك لتراها ـ هذه الطيور ـ فى اسرابها المتواكبة تعاكس ضوء الشمس الغارب، وسوف تجد ـ ان لم يكن اليوم فغدا ـ طائرا جاء بلا سراب، حداة يكون او غرابا او نسرا او بومة والتى يدعونها ام قويق، ذلك ان الطيور الأخرى التى تتجمع فى اسراب، هى المسالمة الهائمة التى تبيح لعيونك ان تظل معلقة بها فى ذاك الغروب الجميل، العصافير الزرازير واليمام والحمام والسمان وابو قردان، تتهادى جماعات فى السماء لتمتعك قبل ان يأوى كلاكما إلى العتمة والأضواء الصناعية وقراءة اخر الأحداث او الانزواء وحيدا فى وكرك الدافىء المشتعل بالأفكار المجردة.

غير انى ـ وبعد توديع لآخر سرب من الطيور الحالمة الهائمة عشقا، ودون ان اترصد هذا النوع الكاسر الذى يطير دون سرب ـ اى بمفرده، وقعت فى منجم من الذهب او الماس بمجرد ان اويت إلى حجرتى، ففى حوار جميل بملحق جريدة الوطن الاثنين ٧ فبراير، اجراه الصحفى المتميز حزين عمر ـ وهو شاعر ايضا ـ مع الدكتور عاطف العراقى، احسست بالعالم كله يحتاج إلى صياغة جديدة إذ ان الرجل استاذ الفلسفة ووارث لزكى نجيب محمود وعبدالرحمن بدوى، وذو صوت منخفض لم اسمع له حسا او صوتا فى المعترك الثقافى كما تعودنا ان نسمع استاذ الفلسفة الهادر المعارض الشجاع لحد التهور الدكتور حسن حنفى، ولانخفاض صوت الدكتور عاطف وجد مكانا لائقا فى عقولنا، نحبه بشكل مختلف عن حبنا لحسن حنفى، وان كانت مكتبتى ـ وعقلى ـ يسعدان اكثر بكتب زكريا ابراهيم وفؤاد زكريا، ولأن الأحاسيس والمشاعر لا تصلح دائما لصنع العلاقات القوية فقد انبرى العقل ـ عقلى ـ ليحب كل هؤلاء العلماء، مع الافراط فى ذكر انجازاتهم من باب وجاهتى الثقافية المنشودة.

تناول هذا الحوار المشار إليه قدرا منهلا من القضايا الشخصية والعامة لكن اخطرها كانت هذه الحميمية التى اعلنها للمحرر المحاور عن الدكتور عاطف والتى عملها للمانشيت الأعلى للصفحة: فشل فى

الحب. فتزوج الفلسفة، ولأن مخي واسع، والظلام قد أودى بكل أسراب الطيور إلى أوكارها، ومقعدي الأثير في الشرفة قد اضطرب من البرد، فقد انسللت إلى حجرتي كي أفهم الطريقة التي جعلت أستاذنا الكبير يتزوج الفلسفة بعد فشله في الحب، ذلك أن جميع أفراد أمم الأرض واجهت الفشل في الحب، وأنا بالذات كنت أدمن حالة هذا الغرام الذي يقودني إلى طريق مسدود أعود منه بخفي حنين مع قليل من تذاكر المسرح والكتب المتبادلة محتفظا ببعض الرسائل المشتعلة حيث يداهم قصة حبي - دائما - حادث عارض أو ثراء عارض أو سفر عارض أو رجل غامض عارض، حينئذ وبعد تأمل قليل في الحكاية من أولها، تتحول إلى تراث إنساني شخصي، تصلح بعض عناصرها للاجترار، وبعض عناصرها الكتابة وبعض عناصرها للتفلسف «لم أقل الفلسفة»، وفي فورة كل هذه العناصر التي تركها في الفؤاد الحب الفاشل، ينبت من جديد ومن موقع غير مرئي حب جديد، حيث تظل الطوم - كل الطوم في مكانها داخل مجلداتها في المخ أو المكتبة لأنها فيما أزعم - لا تصلح للعلاقات الزوجية بالمرة.

قررت - بعد اطلاعي على هذا الحوار - أن أعتبر زواج الفيلسوف بعلم الفلسفة من نوع المجاز أي هذا النوع من المماحكة التي تثير الاعجاب لأننا نعيش حياة مغايرة لحياة الآخرين، ولكن الصورة المنشورة بجوار العنوان الأزرق الضخم عن فشل الأستاذ في الحب فتزوج الفلسفة تجعلني أنظر المسألة بلا مجاز، هو نفسه الدكتور عاطف العراقي وقد وقف في المطبخ، بقميص نصف كم مبيلا لتشمير الأكمام، وأمامه براد شاي من هذا النموذج الأصيل الذي تهجره عادة حينما يعطينا الله أكثر، نموذج البراد الذي استعملناه زمنا في البيوت وعلى منصبة الشاي، به بقعتان من الصدأ تزكية لعنصره الأصيل، وقد امتدت أنامل أستاذنا الكبير لتفسل الأكواب الخمسينية والخمسية هي الأكواب القصيرة التي تستوعب ٥٠٪ فقط مما تحمله أكواب الشاي الأخرى، فإذا أمعنت في استحواذ الأستاذ على المطبخ لراعك هذا الدفء المنبعث من غلاي الشاي والذي اكتوت جدرانه بنيران التجارب السابقة والجميع في متعة مترعة: البراد والغلاي والأكواب وسخان الكهرباء والصنبور والتأمل الفلسفية التي لم تخلق أصلا إلا لتلمس عناوين الكتب أو أوتار البيانو حيث يصبح الجو مهيأ لأن يقول الواحد - في المطبخ - أن شوقي لم يكن شاعرا، ونجيب محفوظ لا يستحق نوبل، موسيقانا كالمحشي وشعرنا كالمخض، وما إلى ذلك من أمور تتواءم مع دفق مياه الصنبور في حوض الغسيل، والتي يغسل بها صلاح عبدالصبور وكافة أمة الشعراء المحدثين العرب لينزع عنهم شاعريتهم حيث تتوقف الأمور في حدود أشعار حكمة المعري، وهي الحكمة التي تم تتويجها أيضا عند المتنبي وغيرهما من أساطين الشعر العربي قبل أن يداهمه العصر الحديث بقوانينه وحكمته وفلسفته وحداثته وقواه وثقافته فيفسد هذه الكلمة افسادا تاما.

وحياة الفيلسوف الأعزب - كما ترى - تستحق أن تعاش، وأنا شخصيا أجربها ثلاث مرات في العام، حينما تنزح زوجتي - مع عدد لا بأس به من بناتي لتقضي يومين عند أمها، ويقوم باقي العائلة - أي الولدان - بالنزوح إلى أصدقائهما في حركة مرتبة متوازية، ويصبح المطبخ كله حقلا لدخولي وخروجي، حيث أكابد وأعاني في سبيل كوب شاي أو تسخين طبق لحم لا يمكن تناوله باردا، وتصبح ثقافتي للحوبة تتضور تضورا مرهقا ومحدودا، لاتصور أن الزواج هو المطبخ، أبدا، أن الزواج - يا أستاذي - شيء قدري غامض كالعفاريت والخرافة وطائر الرخ، أضعف ما فيه هو المطبخ، وأجمل ما فيه هذا الاحساس الغامر بالتواصل الحي مع الآخرين دون وسائط الكتب والمجلدات، وحينما أعطاك الله مثلما أعطاني فتجول قليلا في السوق - فور نجاحك في قبض مبلغ مالي معتبر - لتشتري ٢ كيلو تفاح + تسعة جاتوهات + كاسيت كونشيرتو الفيولينا رقم ٦١ لبيتهوفن بقيادة كارايان + أعمدة الحكمة السبعة للورنس العرب + قصيدة لا تصالح في ملزمة منفصلة للشاعر أمل دنقل + كمية لا بأس بها من الطعمية الساخنة + حبوب تساعد المعدة على اتقان عملها + دعوة عائلية لمشاهدة مسرحية لعادل أمام + ترجمة جديدة لرواية الغريب لألبير كامي + مقال هجومي علينا من أديب غلبان جاءته فرصة الكتابة أخيرا + أربعة خطابات من أصدقاء يحتاج بعضها إلى قراءة ممتعة جديدة وحينما - بهذه التسويقة - أصعد إلى الدور الخامس، وأدوس مرهقا ومنهكا - على جرس الباب، حيث وحينئذ، وفي اختصار منهل لكل لذة ومتعة الوجود تفتح زوجتي الباب، وبين ساقيها تفلت البنت الصغيرة المفعوصة لتتشبث ببعض القراطيس أو اللفائف، ولا مانع أن يسقط بيتهوفن بين حبات الطعمية وأقراص التفاح كي أسلم نفسي لأول مقعد، وأنا أتشمم رائحة المسائل الأخرى تلك التي تخترق الخياشيم، فيضطر العقل أن ينزوي في جمجمته تاركا للمعدة أمر السيطرة على الموقف الجديد..

بعدئذ أي وبعد ترتيب هذه العناصر في مواقعها - يصبح مناسبا - أن تكتشف كم هو العالم الخبيث لسخيف جميلا، وأنت ترى أسنان ابنتك - أقصد ابنتي - وهي تقضم جزءا من التفاحة وقد تعلقت عيونها بأمها طالبة السماح، فاسترخي أكثر، وأتمنى أن أنتهي من الجزء المادي للحياة، كي أدخل إلى وكري ليتهادى العالم من حولي، وأحس بمتعة لا حدود لها وأنا أقرأ صلاح عبدالصبور بالذات، دون اهتمام شديد بهذا الفشل المروع الذي فاتني أن أستغله فأتزوج علما من العلوم، كي أقف وحيدا في المطبخ، إن المكان الوحيد الذي أقف فيه وحيدا هو الموسيقى والقراءة الجادة دون أن أدهس كافة أنواع الثقافة الأخرى.

ودون أن أتزوجها أيضا.

***

نعني أحسدك - يا أستاذي - على إعلانك الواضح أنك لا تتصور إبداعا وسط صراخ الزوجة

والأطفال، انه منظر مرعب ان يكون الامر على هذه الشاكلة ولذا فإن الحل الجبرى أن يتزوج المبدع من واحدة غير ذات صراخ تنجب كائنات صامتة ها انذا احس بالعوائق الصارخة التى - باسم الحياة - أقمتها فى نفق الحياة - حياتى - مع انى اعلم انى لا اصلح بالمرة ان اعيش حياتك او حياة عبدالرحمن بدوى، او جمال حمدان يرحمه الله. انها هى حياة نادرة لها عمالقها النادرون مع انى اعرف آخرين - غير نادرين - عاشوها دون ان يحققوا شيئا ذا بال، وهم كثيرون، لم ينشغلوا ابدا بهذا الانشغال الساذج الذى لازمنى فى الفترة الاخيرة. ومن الذى يفتح الباب فى الدور الخامس ليتشبث بأكياس الثقافة والفاكهة؟

وإذا فإن النابهين النادرين فعلوا ما لم يستطع احد ان يفعله. اغلقوا على انفسهم ابواب بيوتهم، طاردين فلسفة حمل قراطيس الفاكهة واكياس الثقافة بعيدا عن اهتماماتهم وكل واحد حر فى الطريقة التى ينهى بها حياته.

رقم الايداع ....

977-08-037-3